أتفاقية الساعة

رواية للدكتورة سوسن أمين رشيد حمدي

إهـــــداء

إلى كل من وجبت لهم الجنة

هدى

حدثني قلبي بكارثة..سقوط الأسنان في الحلم مصيبة.. فبالرغم من إسهابي معها في الحديث علّى أنسى يوماً من بدايته كانت كل ساعاته مقبضة ، ثقلها على رقبتي كاد يفصلها منذ داهمني منظرها وتراجعت متقهقرة متخلية عن مكان نواله ليس بالأمر الهين ..أول مرة أراها كاملة .. صدمة لحيائي وعيناي المدافعتان عن براءتهما مرة بالإغماض ، ومرة بالهرب لأقصى الحجرة ، ومرة بتلمس الطريق إلى الخروج واللاعودة وهى في انهماكها تنهال عليه بداية من العورة مؤكدة لنا بسخرية أنه لا يمكن اقتحامه إلا هكذا غير عابئة بهمهمات المحيطين وضحكاتهم المكتومة ..لجرأتها رأتها بشعة أقرب للرجال منها إلى أنثى بحجمها الضئيل بالنسبة لضخامته المفرطة كانا كفيل تفتك به هِرَّة .. دوار الدنيا من حولي أجبرني على المغادرة تلمساً لبعض الهواء وبعض العزلة. أول مرة نراها لغيابه.. لعبقريته في الشرح ومظهره كلهن يهمن به لولا خاتمه الذهبي حاجز الصد الرسمي لأحلامهن وآمالهن ومع ذلك لا يكاد ينجو من بعض التنهدات والتعليقات وأحيانا المغازلة الصريحة فالدكتور بهاء عزت غريم شباب الدفعة و قاهرهم بخيلائه وأناقته المبالغ فيها ..وهم لا يتركوه في حاله .. تعلقاتهم تنم عن الغيرة من هذا الطاووس الموشى بالعلم والمركز والغنى .. لطبيعتها الشعبية ترد عليهم وداد بسخرية..

– لم يجدوا في الورد عيب..

وها هن كلهن اليوم لا يتوقفن عن.. أين هو؟..أين هو؟.

على الباب الخارجي علمت من عم جابر أنها زوجته ترك لها مكانه لتنعم بالمشرحة وحدها قبل امتحان الدكتوراه في الجراحة.. يريدها الأولى.

متى تنتهي هذه السنة؟ نواح ضميري وتأريق ليلي و عزوفي عن الدنيا وما فيها..تمزيق أجساد من لا أقارب لهم وامتهانهم وكأنهم دمى وإن كان بلا دماء أو ألم إلا أنه لا يرضيني..فهم رغم الموت الذي غيبهم عن دنيانا إلا أنهم في نظري مازالوا نبضاً حياً وأدمي..ترى من كانوا ومن أوصلهم إلى هنا..ترى ما الحال لو كنت أنا الراقدة على تلك الطاولة..ومع ذلك فلست مبرأة فمثلهم جميعا أقتني هيكلا كاملا وأعطيه اسما ساخرا.. وبالطبع أحيانا أتهكم عليه أنا وهم أثناء محاولة حفظه عظمة عظمة .

رأسي تكاد تسقط عني.اتصال الدراسة عامين كاملين شيء مهلك و غيرإنساني . في محاولتها التسرية عن أعصابي المحطمة تمازحني جارتي سيسيل ضاحكة ونحن في طريقنا إلى الشقة.

– عادى يا هدى ما الضرر في رؤية ميت عارٍ اعتبريها ثقافة مبكرة.

– يا سيسيل لو كان عندك في كلية الهندسة ما أرى لتركتها.

– أنسي الأمر وتعالي نفكر فيما سأرتدي في خطبة نانسى.

راهنتني أننا سوف نجد أمها عندنا ككل يوم في تلك الساعة لشرب القهوة فخالتي لا تزور أحداً لأنها الكبرى. عند وصولنا كانت تقف واجمة فبالرغم من صوت المذيع والبشرى كانت ترتجف وجلة وكأنها غير مصدقة أنه لم تسقط لنا طائرة .

ليأتِ الليل مجلياً ما أخفى عنا في ليلة سوداء كانت الخامس من يونية . لم يتثنى لنا دخول معركة حقيقية والطائرات احترقت في أماكنها ولم ترتفع عن الأرض قيد أنملة ليحجب بعدها سرب من الهوان عن أعيننا الرؤية . عمي في رقدته الأبدية لا

يكف عن هز رأسه أسفاً وهي في ندائها الباكي علية تكاد تفطَّر قلب الحجر إن تسمع لها ليتحول في النهاية إلى صراخ هستيري ظل يزلزلنا.

– ابني..ابني .. من يطمئنني عليه ويخبرني ماذا جرى.

✶ ✶ ✶

حازم

تكالبت الذكريات على رأسي من كل زمان ومكان فتغيبني فلا أدري من أنا و أين أنا. الحمى تعتصرني وهذا التيار البارد يخلخل ظهري.

أشعر بأحدهم في الشرفة.. يدخل خِلسةً.. يختبئ في ظلام الغرفة.

صوت المناوب على الرادار في أذني صارخا..

– ضربت الهوك ؟ نهارك أسود يا جبل عتاقة .

العاصفة زئيرها يسلمنى للموت..جسدى ما بين الحمى و الرَّعدة.

أمي على باب الحجرة تحزرني

– هيا اذهب إليها إن استطعت أن تغمض عينيك و في حضنك حية.

دوماً مغيب الوهم في شروق الحقيقة .

ميج تبعد خصلات شعرها عن وجهها الوردي بأضطراب

– يريدون قتلى ..لابد من رحيلي لفرنسا.. هناك إيلي.

القتل شئ صعب وضياع الحب أكثر صعوبة .
ميج تتوسل لي كقطة
– أرجو ألا تتخلى عنى..أريد مشترياً بسرعة.

وهي معي فوق السحاب كان كل شيء مثالي ..
تبدين فائقة الجمال في لون الشفق الدامي كما شعرك وشفتاك. فترد بتودد
– أرأيت أننى أستطيع الدوران ..أرجوك لا تجعلنا نهبط الآن .. انظر للجبل هناك..

أحاول أن أنهرها ولكن عيناها تلجمني فأتوسل .. يا ميج سوف نسقط إن لم تتركيني .. فتبكي بأفتعال
الشهرة شي بغيض..عندما قتل حضر المصورون .. إنهم بلا أخلاق.. مجرد سرقة ليس إلا...

أصرخ وماجد أخي من قتله .. تهز رأسها بالنفي
هل تقصد ؟.
نعم أقصد

صوت يناديني
– كابتن ..الدواء .

أضع يدي على موطن الداء فتنزف جراح قلبي ..أحاول غلق مقلتيَّ دون رؤى

تتداعى ترسم في ذهني صورة لا أريد لها البقاء في ذاكرة أيامي.أخر من رأيته في المطار أحد الرجال يبكي

– كابتن.. الآن .

– أيهم؟ .

– الميج 17

– بنى سويف ؟ .

– أشك.. إن حالفك الحظ يبقى أسوان

الظهور المفاجئ للنجمة الزرقاء المتلصصة رسَّخ في ذهني ضرورة المجازفة ..انحنائي على شكل نصف دائرة جعلني في لمح البصر معها في مواجهة .. للاشتباك أجبرتني الساقطة.

الصوت يناديني

– كابتن.. الدواء .

أفيق على طلقات في أذني و العرق البارد يغرقني ..سيكتب هذا في سجلك القتالي يا صغيرة.. يبدو أننا سنتلازم من العمر فترة .

الصوت يلح علي وانا أعاند فتح عيني والخروج من أوهامي

– كابتن حازم ..الدواء .

ـ أين أنا

الرد أزهلني ..ماكنت أدري اني بعدت هكذا

أسير الإجهاد والألم..أفكار تطحن رأسي ..تبايُن اللون بين بشرتهم وملابسهم البيضاء يشتتني .. دمعي المحبوس من بقايا كرامة يناشدني ليتهم يخلوا عنى لكن دون جدوى فالكل يحاول مواساتي.

– إصابة بسيطة ..اطمئن يا بطل..هوَّن عليك الحرب لم تنتهي.

همٌّ يُبكِّي وآخر أكبر يدمر عقلي.. هل نحن طيبون إلى هذه الدرجة؟ أم أنه الحب الذي يعمي..غضب يملأ صدري .. حطام أحترق كحبيبتي .. فالمصاب واحد والعزاء ألغي فلا عزاء إلا للمعتوهين من أمثالكم وأمثالي من صاغوا الوهم حلما وعاشوا الحلم حقيقة فلما انتبهوا وجدوه طوفاناً هادراً ساقهم أمامه بلا تروَّي.

الصوت يلح

–كابتن حازم ..الدواء.

✶ ✶ ✶

جلال

أفتقده بشدة خاصاً في تلك الأيام الغاية في القسوة ليس على أسرتنا وحدها بل على مصر بأكملها .. بغيابه بت المسؤول عنهم خالتي وأختيه وهدى .. تلمس أخباره لم يشفى غليلي و لم يمكنني من طمأنتهم وطمأنتي فكل الاحتمالات سيئة.حاولت استجلاء الحقيقة قدر المستطاع من صديقه وصديقي..

– أطمئن يا أخي بخير والله.. لا تقلق يا عم جلال .

– حقيقي يا رفعت .

– عيب وهل كذبت يوما؟ لولا تدمير الممرات لكان الآن بيننا – كارثة.

– قول مهزلة..

علمت منه أن القاعدة في فايد قد تحولت لمقبرة في ساعة زمن.. أكثر من 70 % من سلاحنا الجوى انتهى .. حوالي مائتي طائرة دمرت كلها على الأرض لم يبقى غير حوالي خمس وثلاثين لو كانت اشتبكت كل منها بما هو مخطط لها لكن للأسف الشديد أكثر من مائة وخمسين طيار على أعلى مستوى لم يطلعوا طلعة واحدة للأسف بعد البعثات والتدريبات والمهارات القتالية.

أرد بمرارة

ـ لا شك خدعنا.

– أبعد حشد قواتهم على حدود سوريا وغلق خليج العقبة وترحيل القوات الدولية تقول خدعنا.. أنا راجع فايد .. عندما أعود يكون بيننا إن شاء الله..تخيل يمكن يكون الوحيد الذي حارب فينا ..أسقط لهم ميراج في السكة.

– وأنت لا تقل عنه.

– نحن جميعا كنا مؤهلين للنصر .. يا جلال النصر كان فعلا قريباً جدا ومنتظراً لا محالة بل وكنا نستحقه بجدارة..

أعلمني أنه كان هناك مئتين وعشرون طيارا على الجبهة المصرية و ثمانية على الجبهة السورية ، ويوم 26 مايو استطاع هو وحازم من الوصول لعمق الأراضي المحتلة بالقرب من حيفا لأنهم كانوا يستطيعون الطيران على أرتفاع 40 ألف

قدم عكس الميراج التي لم تصل أبدا إلى هذا المدى وكذلك منصات صواريخهم لم تكن تستطيع التصويب إلى أكثر من30 ألف قدم فطمأنهم ذلك تماما..

وأضاف قائلا

ـ لو كنا بدأنا لكنا الآن في عمق إسرائيل.لكن بالرغم من كل هذه الكفاءة لم ينجو منها إلا ما ذهب للسودان لقاعدة (دراو) أو (وادي سيدنا) أو لقاعدة (طبرق) في ليبيا.

– هل كنا لا نعرف بقوتهم .. ولكن أين مخابراتنا.

– اتضح أن المعلومات التي جاءتنا أغلبها غير صحيح قالوا مائتين ونصفهم في الصيانة وإعادة التشغيل وهم في الحقيقة أربع مائة طائرة.

– إذن فعلا هناك خدعة .

– جائز..كلغز الإشارة السلكية التي لم نستطع استقبالها من جبل الجيوش وجبل زعنون الكاشف لجنوب فلسطين..كان المفروض عندما تتحرك طائراتهم نعرف في ساعتها.. لكن كل شئ تم بسرعة.

– وها نحن يا للحسرة نحلل لماذا انهزمنا ويبدو أننا سوف نظل هكذا سنين عدة.

✶ ✶ ✶

حازم

أعتدت الصوت من كثرة النداء

– كابتن .. الدواء .

– ما الأخبار ؟ آي الأيام نحن ؟ .

– الجمعة .

أدر ظهري لأبكى من كانتا قوسا الإغلاق حولي ونجمتا حياتي..نفس الاسم وقدر العشق.. حبي وأملي .. صورتهما لا تفارقني ..من الذي وأد حلمهما وأرسلهما إلى تلال الغياب و كبلهما أن تنطلقا وأغلق السماء من دونهما ودوني وصف الأشلاء على الممرات المدمرة في عرض جنائزي .

سألني أحد الأطباء متعجبا بعدما ألفة جمعت بيننا في تلك الظروف الحالكة عن كيفية إسقاطي للطائرة الأسرائلية..

– أحقا يا كابتن ..ميراج .

– أصابتها إصابة مباشرة أفقدتها السيطرة فهوت ككرة مشتعلة.

– أليست الميج **17** استطلاعية .

– ومقاتلة خفيفة بها صواريخ وقذائف موجهة وقدرتها القتالية عالية جدا على الارتفاعات المنخفضة.

– بطل حقيقي .

– لا بطل ولا حاجة .. هذا ما كان مفروض أن يحدث مع كل زملائي لولا..

– نعم .. خسارة .

– وأي خسارة.. دكتور خليل أريد العودة ..خمسة أيام وأنا هنا.

– فيم العجلة.. الحرب انتهت.

– لا تقول هذا .. قل بدأت وعلينا أن نتفادى ضياع الباقي من كرامتنا..

– أرجوك اهدأ لم أكن أقصد.. أعني هناك وقت..لا تغضب.. سنرى بعد الأشعة .

– أرجوك غداً .

– لا بأس وإن كنا سنفتقدك كثيراً .

– وأنتم أكثر.. يبدو أن هناك شيئاً أكبر مما يقال يربطنا .

– أكثر مما يروينا.

ـ هو أيضا من سمح أنفصالينا وتقسيمنا ..خطيئة أخرى له كالهزيمة ولكن الجميع كان يتغاضى .

ـ ولكننا سنظل وطن واحد وللأبد أخوة .

ـ لابد أن أراك قريبا في القاهرة..

✶ ✶ ✶

جلال

حشد كبير وجد في جنازته ملاذا للتعبير عما أصابنا.. شيع مصحوبا بالثناء والإشادة.. أسرع النعش بنا بصورة مذهلة كعصفور قاصداً أيكه أو محبوب يسعى للقاء الأحبة.. رحيله فجر الجمعة وسرعة التجهيز والجامع الذي امتلأء عن آخره في صلاة الجمعة بشارات جاءت كلها مطمئنة ..غياب حازم ألقى على عاتقي المسؤلية ودوراً ثقيلاً حرصت على تأديته كما لو كان بيننا. حضوري الغسل ونزولي القبر لأواريه الثرى زادني هماً فوق الهموم المكدسة ومع ذلك أشفقت على المسكين الذي عندما يعود سيجد أباه وقد تنحى.

عند القبور تهون الدنيا ففي اللحد يستوي ما نتقاتل عليه و ما نزهده.. ففقط بنظرة إلى كل تلك الأجداث المرصوصة وشواهد القبور المتلاصقة استشعرت قيمة أني مازلت أحيا وأدركت قيمة تلك الفرصة التي لا يحظى بها كل من هنا.

لكن أربك الجميع تزامن العزاء والخطاب المعلن عنه مسبقاً..خروجنا المتدافع إلى الشارع أنسانا فقيدنا وأعادنا فتية نهرع إليه إذ دعانا كما في أيام الثورة الأولى .. ميدان التحرير بحر هادر من لحوم الرافضين لقراره المصرين على استمراره في موقعه.. نفس توسل خالتي وبناتها صباحاً عند خروج فقيدهم الغالي أن يبقى .. سحبي معهم في تيار التعدي على حرية مَن يأبى إلا أن يتركنا أخذ منى الباقية الباقية من عافيتي الخائرة وتركني في الرمق الأخير على شفا السقوط في هاوية أقدام المتدافعين هنا وهناك بشدة..لاستحالة الخروج من نهر جارف ضفتاه نساء يبكين ويلطمن الخدود ورجال يصرخ بأعلى صوت..أبقى..أبقى.. فالشعب اختار زعيمه برغم النكسة .. فهو يراها بالنسبة لقامته العملاقة مجرد كبوة لابد ان يتخطاها .. فمن ذا الذى يرضى أن يدفن أبيه حيا حتى ولو كان مصاباً أو مهزوماً .. هذا هو العزاء الحقيقي الذي أستحقه في هذا اليوم كل منهما.

✶ ✶ ✶

هدى

وكأن كل شيء بعد المأساة جائز فجاء قراره بالتنحي صدمة

(وأن أتنحى تماما ونهائيا عن أي دور سياسي..)

كيف يعقل هذا .. ألا يكفي عمي وما جرى حين جاءت صرختها التي أرعبتني وإسراعي إليها و أنا كلى يقين أنه لا يمكن أن يخزلني وسينجو ككل مرة .لكنه لم ينتظر الصباح .كانت ليلته من الصعوبة بحيث أنه أتمها بالكاد ومع الأذان ودعته

نسائم الحياة لتنضم خالتي لجموع أرامل هذا المنزل ويخيم الحزن عليها بمخلابه الأبدي.

ارتميت عليه أحتضن البقية الباقية من الأب الذي لم أعرف غيره أبا .. برودة الموت ورهبته تُحدث بالبدن قشعريرة غريبة كالواقف على بحر لجي تتخطفه الوحدة .. قدسية الرحيل برمتها أحاطت أجسادنا المكلومة فكستنا بالسواد من أول لحظة..لها تنحى لتتسلم القياد ولأول مرة .. كونه قعيداً لم تسلبه أبدا الهيمنة.

ـ صوت الرجل في البيت لا يوازيه شئ يا هدى حتى ولو كان همهمة.. يشعرك أن الدنيا دنيا .

حتى بعد الحادث ورحيل ماجد والحزن الذي خيم بظلاله على الأسرة بأكملها وعدم مقدرته على المشاركة في الحياة أو الحركة إلا أنه ظل دعامة هذا البيت لنا ولكل الأسر من حولنا ..طنط آليجرا تستشيره في كل أمورها ..كيفية السيطرة على سامى وسمير بعد موت أبيهم في سن حرجة ..إيجاد مشترٍ للعزبة ..المعاملة مع المستأجر الذي يحاول اغتصابها منها.. والموافقة على المهندس إسحاق بباوي كخطيب لسيسيل كان شيئاً أساسياً وإلا ما تمت الخطبة وخاصة أنه كان حديث التخرج وإمكانياته المادية ضعيفة.. لولا وساطتي عنده بدافع من سيسيل عجل بالموافقة .. وطنط بهية تأخذ رأيه في كل صغيرة وكبيرة وفى اختيار المستأجرين لشقتها المفروشة..الشلل انتصر على الأطراف لكن العقل ظل متقدا يعمل بكفاءته الأولى إلا أنه ظل لآخر أيامه يبحث عن ملابسات ما جرى أكان عبد الفتاح مخمورا أم مخدراً أم أن ماجداً هو من كان يقود مستغلاً حب عبد الفتاح له بالرغم من تحذير عمى بألا يسمح لمن لم يتجاوز السابعة عشر بالقيادة .

لن أنسى ما حييت منظره وهو ينصرف يوم الحادث ضاربا عنقه بكفه مؤكداً لعمى الولاء والطاعة .. عنتريته الزائفة أضاعت رقبته التي لم تفي بمسئوليتها ليستمر بعدها في البكاء ليومين كاملين دن أن ينبذ ببنت شفة..لتجده زوجته الثانية صباحا ميتا في سريرة..أكان انتحار أم موتاً طبيعيا ..ما عرفنا.. رحلا ليدفن معهما سرهما ومَن منهما كان المتسبب في تلك المصيبة؟ ظل السؤال المحير لنا جميعا ليومنا هذا .

✶ ✶ ✶

وجبت

وكأن النكسة ما جاءت إلا لتخرجنا من بلدتنا الطيبة الهادئ طبعها.. العليل نسيمها.. وحينا الوديع بجامعه الفسيح في نهاية المنعطف يؤم فيه جدي المصلين ويعطى درسه الأسبوعي عصر كل خميس..بصمته على ألا تغيب..حتى أَسمَّى ..أرادت أمي ..(مي).. لكن هو كالسيف قاطع رغم أنف الجميع وإن جانبه التوفيق في بعض الأحايين.. كما في اختياره لاسمي.. وما اختاره لي من نداء أبدي..لأكابد العمر كله عناء شرحه وتفسيره. ولكنه هو بحق عالم السويس الجليل وبركة الأربعين وشيخ الإسلام كما يدعوه الجميع بل رفعه بعضهم لدرجة الأولياء..فهو إذا استسقى هطلت الأمطار وإن دعى لأحد رزق البنين والمال وإن أذاه أحد أقتص منه في الحال فإن جاءه معتذرا ومقبلا يديه ما يكون من جدي إلا

ترديد (لا تسريب عليكم اليوم.. لا تسريب) .

ضاعت كل محاولاتنا لإثنائه عن البقاء فيها وحيداً تحت القذف هباء وأصر على البقاء متمنيا الشهادة مردداً (من يطول) . ندين له بالكثير. فمنذ مولدي وأنا وأمي عالة عليه..بالرغم من ثراء أبي العريض ..أمي وأخوها التوأم جاءا نتاج هذا الصفاء والجمال والدعة ..جدتي أيضا كانت أسطورة في تقوى الله..أصولها التركية لم تكن تغيب عن من له عينان.. لمزيج الطيبة والحنان والجمال أسموها أم الإحسان فبالرغم من دخل جدي الضئيل كانت رمزاً للعطاء والسخاء وبذل المعروف للقاصي والداني.

✶ ✶ ✶

حازم

إحباطات استغرقتني طوال الرحلة.. الطريق البري من السودان لأسوان كان الفرصة لاستعادة الذكرى. عندما أعمل عقلي الآن فيما حدث أجد أن كل شيء أتى بما هو غير منطقي ..سنين من زحف العجز والموت واستنزاف عصارة الأمل ممن أرتضى تحمل المسؤولية كاملة وإن حاول الجميع رفع الحرج عنه والتخفيف عن كاهله.. حتى أمي صبرت ارتضت.. لكن هو لم يتحمل عبء المسألة والمساءلة ..انفجار الشريان أسقطه جسداً بلا حراك في قيد لا يرجى منه شفاء .. لمجرد أنه وافق على ذهاب ماجد مع من .. لطالما تعجبنا من صداقته له وتلك الثقة وهو من هو.. خفيف العقل.. ضحل العلم.. دائم الهذر..بعيد كل البعد عن تحمل

المسؤولية ومع ذلك لم يكن يسمح لغيرة بالإطلاع على أخص خصوصياته ويفوضه تفويضاً كاملاً للتعامل باسمه من دون استشارته أو الرجوع إليه.. بل الأكثر من هذا.. أستخدمه ككاتب في الفترة المسائية كنوع من المساعدة لضآلة دخله الحكومي وفتحه أكثر من بيت.. تزوج اثنتين و لم ينجب من أي منهما فأقدم على الثالثة بالرغم من محاولات أبي إثناءه عن هذا.. وإمعاناً في التقريب أستخدمه كسائق له في أغلب الأحيان بالرغم من تحذيرات أمي الدائمة واتهامها إياه بتعاطي المخدرات وأنه ولابد سيقترف يوما ما مصيبة .

فيرد عليها متساهلا

– حرام عليك.. لا تظلميه.. الرجل تاب.. فقط نفسه في الأولاد..

– كل صفاته كافية لطرده .

– ليس لهذه الدرجة.. ربنا يهدي .

– يحب السرعة والمغامرة..(سائق الهبل على الشيطنة).. أخاف عليك وعلى الأولاد .

– غداً ألفت نظره وأنهره .

– ولماذا تتعب نفسك معه .. فقط أطرده .

– كيف أطرده.. يحبه الأولاد.. ويحبهم كثيرا..العيش والملح له حق.. يكفى إخلاصه وولاؤه .

لتأتى النهاية مفجعة..إلا أن مصاب أبي في الاثنين كان أجل وأعظم فلم يتحمل .. انتشلني الوصول لأسوان من جب الذكريات لكن رؤية السد وبحيرته ومن قبلهما أعظم القرارات والانتصارات..القناة والجلاء..إنجازات أذهلت العالم. رؤوسنا التي

طالت وقتها السماء كيف طارت من فوق أكتافنا منذ أيام.

اعتصرني قيظ يونيو في محطة أسوان وتسلسل شريط الأحزان.تظفرا على لإذابتي قلبا وقالبا وتداعت على رأسي المنغصات .. أتون الماضي هيأني للسعير الآتي .. باختصار مرارة الواقع لا تناقض استحالة الأحلام ..كياني المهزوم يشتاق بارقة أمل أو بصيص من نور .. حررني من غفوتي حقيقية أن خداع النفس أمر ألف مرة من ألف انهزام والنداء الأخير على القطار..ما أصعب أن أتخلى عن طائرتي وأعود لوطني محبوساً بين جدران مقيداً إلى الأرض بقضبان مع أنى في رحلة شبيهة مع ميج كنت كمن يحلق في السماء .
برتابة خانقة تمضي الساعات .

✶ ✶ ✶

جلال
أقدار .. أقولها من باب التسرية والتخفيف عن من تأذى ولاقى الأهوال وعاد ليلقي بظلال النكسة علينا كغمامة سوداء تزيدنا همّاً فوق الهموم وإظلاما فوق ما نغرق فيه من ظلام وتعيد علينا المشهد الحزين مئات المرات .
يصرخ في بحدة
– ومن سواه .. لتعرف كم كنت مخطئاً أنت وأمثالك ..الزعيم الملهم .. ها هو الجيش دمر ورجاله سيقوا إلى المحرقة فمن يدفع الثمن.

ويظل في حنقه سارداً مئات المآسي.. من مات ومن عاد حطاماً .. أصدقاء وزملاء .. أرواح زهقت بالآلاف ومفقودون هنا وهناك وتدمير أسلحة بالملايين .. وهزيمة تدرس للأجيال .

فأحاول قول أي كلام لتهدئته .ز

– أنا معك.. أهتم بالسياسة وترك الشأن العسكري ..قد يكون للصالح العام ..

– إطلاقا.. كان المهم عنده الولاء .. الأمر كان يتناقل على ألسنة الضباط لكن من كان يستطيع إيصال الأمر إليه.. لمصلحة من إبعاد الكفاءات العسكرية.. لمصلحة من تجريد الجيش من قياداته الكبرى الواعية ..أكان يخاف أن يظهر له شخصيه تناطحه الأمر.. لكن كيف.. وهو من يومه الزعيم الأول والأوحد على الأمة..تخيل قواعد الصواريخ معطلة يوم خمسة يونيو لأن القائد العام في السماء.. هل هناك استهتار أكثر من هذا.

– أرجوك كفاك ..ستنهار .

لاشك أن أفقدتنا الهزيمة الاتزان .. و قلبت موازين الأشياء ..فقد كان لابدَّ أني أنا من ينهار وأمثالي ممن ناصروه بفكرهم وأقلامهم وصدقوه حتى النخاع ..لكن ها أنا أجلس هادئاً رزيناً وحازم مثار يكاد يقطر دما وعلى وشك الاحتضار.. من كان لا يطيق عليه انتقاداً أصبح فجأة له القاضي والجلاد ويريدها مقاصل في كل مكان ..لكن هذا ظلم ومحض الافتراء إن مر هاجس الخيانة على فكره ولو للحظات فالزعيم فقط خانه التوفيق فهل ننسى له كل الإنجازات .. ليأتي صوته المتحشرج كالخارج من إعصار ليسحبني معه لبحر من الشرود والمتاهات العميقة.

يردد من بين دموعه المتحجرة

– لقد ضعنا يا جلال .

يخفى وجه بين يديه وأنا مذهول من حاله وملتاع.. فكم يعاني وأي انقلاب..ليرفع يديه عن عينيه فإذا هما نهرين من دماء .. يحاول إخفاء بكائه لكن هيهات.. يسرع في طريقه للباب معلنا عدم مقدرته على البقاء فقد خارت قواه من تضارب الانفعالات.

أوصيه أن يحترس لنفسه ويتوخى الحذر..فيوصيني أن أنسى الرجل وألا أتعلل له بالقدر.

– (أسأله بحسرة)..أتراهم الكلاب؟

– (بنفس الحسرة).. تفصلنا القنال .

أغلق خلفة الباب وأنا في غاية الحنق والاعتلال.. لا أعرف ماذا أريد هل أدق رأسي بالحائط أم أقفز من الشباك لإنهاء لحظة فيها الموت خير من ألف حياة .

✶ ✶ ✶

هدى

تغيرت الدنيا من حولنا في أيام ..وفد علينا أناس جدد من كل مكان.. من تركوا منازلهم في بلدان القناة وأتوا مهاجرين ومهجَّرين إلى القاهرة الأم.. جيهان وأبوها الذي ترك عملة كمرشد في هيئة القناة وأمها التي تتمثل فيها كل سمات المدنية والصفات العصرية بضراوة..التحرر والجرأة وارتفاع الصوت ..كأن البحر أضفى هديره عليها .. كانت بسمرة وجهها وجسدها الذي بالرغم من امتلائه في غاية النشاط والحركة ..كالدينمو بعكس زوجها الذي كان كترس بطيء في ماكينة معطلة . كان ببشرته الناصعة البياض وعيونه الزرقاء وصمته أقرب إلى تمثال الثلج منه إلى رجل تجري فيه دماء حارة.. أخذت جيهان وأختها منار منه كل شئ بعكس أخيهم حاتم الذي كان نسخة من أمة طبق الأصل. تركوا بيتهم ببورسعيد بعد إغلاق القناة وأتوا للاحتماء من الدمار والقذف الذي أصاب المدينة في العمق.. استئجارهم لشقة بالدور الثاني جعلهم ملاصقين لشقة الأستاذ إبراهيم الذي أستضاف هو الآخر أخته وابنتها .. جاءت من السويس لتلحقها بالمرحلة الثانوية وفرارا بها من بلد هجرها ساكنوها وأظلمت على من فيها تاركين وراءهم الجد الذي أصر على البقاء.

حين دعتني درة للتعرف عليهم أجبتها على الفور .. فما بيننا من محبة تستدعى هذا .. ترى استشهاد أبى عليها ديناً .. جمعنا اليتم صغارا من الأم والأب فأصبحنا رفيقتا درب واحد أسمه الصبر.. ما من مرة اجتمعنا فيها إلا و ناقشنا قضية الوطن السليب وقهر شعبة بالقوة وفقد الأحبة. كم من مرة يستحضر الإنسان لحظات من أعماق الماضي أثرت في تفكيره وتكوينه الوجداني علةً باستدعائها يعيد للحياة من

عالم آخر شخوصاً لو كانت عاشت لتغيرت الدنيا. عاشت مثلى فريسة الخوف والفزع.. احتضان كارمن لها ومعاملتها كابنة لم يحميها من عذابها والهواجس التي لفتها والتصقت بها كجلدها لأن كارمن نفسها كانت فريسة فزعها من أخيها ميشيل وأسرتها .. توعدهم الدائم لها بالأذى صهرها في بوتقة من الترقب والهلع. فما كان منهما إلا أن اقتسمتا رعبهما سويا فزادت الطين بلة .

✶ ✶ ✶

جلال

قطع الرنين صمت الجدران وخرس لساني الذي ألجمني منذ أيام.. معتقل بالرغم مني داخل ذاتي ليزيد الصوت الآتي من تيهي وشتاتي..

– الكل رحل يا جلال ..بيروت.. قبرص ..اليونان..أي مكان غير هنا..الشعر والمسرح خلاص..من يستطيع أن يكتب وإن كتبنا ماذا نقول وإن قلنا هل سيتركوننا.. الكل غادر .

– الكل غَادَر أم غَادِر ؟

– أهذا وقت التذاكي واللعب بالألفاظ.. أنا راحل .. أنت حر.. ما كان عليَّ إلا البلاغ.

أنهى حديثي معه بزفرة أبلغ من الكلام ..

نعم يا نذير الخذلان.. نعم السفينة الغارقة أول من يقفز منها الفئران.. عقمت البلد

التي لها مثلكم أبناء يتنكرون لها ويغادرونها وقت الأزمات .. كما غادرت الشمس سماء القاهرة وهجر القمر لياليا وأظلمت الدنيا من حولنا وبتنا مؤرقين حيارى على شوك من حسرة الندم و ذل الامتهان.. فما بالك بأهل القرى والنجوع ..من أضاعوا السنين في كهف الآمال الزائفة و الأحلام .. من لم يشهد هذه الأيام لم يعرف الحزن في حياته..اكتست وجوه البشر بلون غريب .. ما بين الطين والقطران.. لون لم نستطع أن نصفه أو نسميهً .. لكن الأكيد أن له علاقة بالعار.. إن كان للعار ألوان.

لتضيق بي الدنيا وأضيق بها وبنفسي وبالجميع وأتقوقع وأصاب باكتئاب عنيف..زهد في الحياة وعدم رغبة في المواصلة وسؤال يتخبط في عقلي من عدم الاتزان لا يكف ولا يهدأ ولا يثبت على حال.. كيف أهل سيناء والقدس والجولان بعد صباح الاحتلال.. سؤال سيوصلني للجنون وفقد الحياة .. وما من مجيب غير دقات قلبي التي فقدت الانتظام وشهيتي التي ضاعت مع ما ضاع وعصبي الحائر بيني وبين الأوضاع.. وارتفاع ضغطي البائس وهبوط وزنى اليائس وأخيراً وليس أخيراً ظهور ما ورثته مع المال وكان يخفيه الاستقرار فإذا به يسطع ويرتع ويضعني تحت إمرته ويقول ..أركع.. وبالرغم من اسمه الجميل.. فقد كان فعله كله التدمير ..لكل أعضائي ..من شرايين و أعصاب وعينين وإذا بي أصبح لداء السكري

مرعى والعافية ذكرى .

✶ ✶ ✶

يوسف

ليتني ما تركت المعتقل.. فبالأمس والأمس فقط كانوا يتكلمون عن الاكتساح المحتمل والانتصار المنتظر.. فمنهم من يعد الخُطب ومنهم من يعد الرايات لابتهاجنا بانتصار العرب..وكأنها خمسة عشر عاما من الخرف والعطب.. ليأتي صباح الاثنين الحزين ملطخا بالهرج والمرج.. ليختبئ بعدها الجميع لا ندري من ألم أم من خجل.. وأسدلت الستار على أبشع كلمة نهاية لمسار زعيم وأمة.. صغنا كلماته كتميمة كل منها علقها فوق قلبه كي يغلقه دون سواه فلا ينازعه فيه منازع .. ولتبقَ الهزيمة التي أخرجوها من أكفانها وزينوها وألبسوها ثوب البراءة كي تسير بيننا على استحياء كمجرد نكسة.. وبحثوا لها في التاريخ عن أخواتها من نكبات و انكسارات ليبلوروها ويبروزوها ويطلعوا بأبطالها السماء ..لتذاع سيرتهم وخيبتهم ليل نهار من باب من رأى بلوة غيره هانت عليه بلوته ونكسته.. ليتأسى من تأسى وليصبر من صبر وليضج من ضجر.

وهكذا مرت بنا الأيام تنحني وتنحدر لترصد اعتقالاًو تنعى انتحاراً.. ولتتوالى علينا الأخبار في سواد القار . وليزداد الفقر في نفوس البشر وفى أقواتهم وكأن الأرض حين تُنتهك تجدب ولا يرجى منها حصاد أو ثمر .. وها أنا الخارج من المعتقل في

تلك الظروف أبحث عن عمل لكن دون طائلكالباحث عن إبرة في كومة قش ولا أجد غير السبيل ملجأ وملاذاً كما كان دوما في الشدائد والأزمات ببابه المفتوح على مصراعيه ولا يسأل فيه عن من جاء أو من راح.. وما حسبت على الشيوعيين إلا لتواجدي المستمر فيه كغيري من الكثير من الشعراء والفنانين فلوجوده وسط المدينة كانت تهب علية كل ريح ببابه المفتوح للجميع تحت ضيافة صديق الكل الشاعر عبد الكريم درويش أحيانا للتوا صل الأدبي والأكثر التماسا للملجأ والطعام والاختباء المريح .

كان التعصب للرأي وفورة الشباب والعقل المتقد الذي لا يكل ولا يمل في التفكير في الشأن العام هي صفات كل من ارتاد السبيل..مناقشات وانفعالات واعتراضات وفى النهاية الكل أصدقاء بالرغم من اختلاف المعتقدات والمفاهيم.. وبيننا سوريون و فلسطينيون وعراقيون.. وعبد الكريم في شغله الشاغل من كرم الضيافة ومصالحة المتجادلين والمتشاكسين.كان بسمرة وجهه المشوبة بوهج الانفعال كلون الطمي الآتي من أسوان وقت الفيضان.. وعيناه الواسعتان الدافئتان ببياضهما الناصع الذي تتوسطه مقلتان تتقدان حماساً وحناناً وحباً للحياة..وعطاؤه الذي لا ينضب ولا يزول .. كريم إذا أقبلت الدنيا عليه وأكثر كرما عند الإدبار.. كان باستقامة طوله الفارع كنخل الجنوب شاهقاً ومهيباً ومثمراً طول العام ..كان كالنجم ونحن من حوله أجرام ..وكان مع جمال إن صمت وإن قال .. ومع ذلك كان معنا في الاعتقال ولم ينفعه حبه لا للثورة ولا لجمال ولا لبنود الميثاق التي كان يحفظها عن ظهر قلب ويتلوها علينا بفم واقتدار.

وكان عام **66** عام اضطراب واحتدام..كل من كان له فكر أو رأي أعتبر معادياً للنظام.. أيًا كان هذا الفكر وهذا الكلام ولماذا قيل وفي أي مقام ..ما دام عندك رأس لا يفتر عن التفكير وعندك لسان.. فأنت والعياذ بالله من المتآمرين واثبت عكس ذلك إن كنت تستطيع ..أنك لست عدوا للوطن والدين. اعتقلوا العقل المصري كله في الزنازين.. عقل الباحثين عن الديمقراطية.. والرافضين للديكتاتورية.. المستنكرين للفوارق الطبقية ولاستنزاف طاقتنا البشرية والمالية في أمور لا تعنينا كحرب اليمن وغيرها. كانوا يرون أن جمال يبنى بها صرحا لزعامته الفردية. أما من هم على شاكلتي فكان لا يعنيهم غير أوجاع الناس والفقر الناخر في عظام البشر حتى النخاع . كنت أرى أننا تخلصنا من طبقة الباهوات والباشوات لنبتلى بطبقة أصحاب النفوذ العسكري على البلاد والمقربين منهم ومن النظام .. ولو أن للحق كان يقال أن كل هذا يحدث دون علم جمال .

لحسن الحظ جاء القبض عليَّ بسيط.. ففجراً أُخذت من أمام البيت دون أدنى مقاومة أو ضوضاء فلم يشعر بي أحد وأنا ماضٍ مع زوار الفجر.. ولكوني وحيدا وأعيش بعيدا عن أهلي لم يلتفت لغيابي غير صديقي جلال الوحيد الذي لم يقبض عليه من بيننا بالرغم من أنه كان من رواد السبيل الدائمين لكن لم يكن يعنيه غير الأدب والفن .ليس له أي اتجاه سياسي واضح ومع أنه أرستقراطي و طال أموالهم التأميم إلا أنه أبن الثورة النجيب.. حبه لجمال واضح للعيان خاصةً فيلمه الأخير .

بحثه عنى في كل مكان حين افتقدني .. وصوله لمعتقلي عن طريق ابن عمته وصديق عمري كمال شوقي.. زارني و باقي الزملاء وطمأن أهلي وأمدهم بالمال من

دون علمي.. و ها أنا بسبب الاعتقال أفقد وظيفتي في الجريدة التي هيأها لي كمال بالثانوية بعد معاناة وكانت لي ولأهلي حصناً من سؤال اللئيم ..وهأنا في طريقي للسبيل..أعان الله عبد الكريم عليَّ وعلى أمثالي من أصدقائه العاطلين.

وها هو العيد.. بأي حال عدت يا عيد ..عيد عارٍ من أهداب الاحتفال..لم يستطع دفع غبار الحزن والأسى والأنكسار.. طاف بنفوس اشتاقت العمى كي لا ترى.. كسا شتاء **67** قفراً بغيض فمر على استحياء ..متحرجا.. على باب المعتقل قرب سقارة كان الشعور أكثر كآبة.. يعتصر القلب بضراوة..لولا رؤيتي إياه متكئاً على جدار..مثلى جاء لزيارة كمال.. من نكن له نفس المودة ونحفظ له آيات العرفان.

أسرني بفضله حين زارني في معتقلي منذ أقل من عام عندما اعتقلوا أغلب المثقفين تحت مسمى التيار الشيوعي..فكنت أول المعتقلين وإن كنت لا أنتمي لا إلى تيار ولا إلى ثوار.. الحكاية وما فيها أنى كنت متواجداً معهم باستمرار في نفس المكان..أما أنا فكان لي دائما فكرى الخاص..أرى العدالة الاجتماعية التي أتت بها الثورة ولو أنها إنجاز.. إلا أنها غير كافية.. عدالة مائعة ..مناوئة للنظام..انحيازي الدائم للفقراء ومعرفتي بأحوالهم من عناء وشقاء جعلني أطمع في عدالة أقوى مما في روسيا والصين وأطالب بتطبيقها حتى لا يبقى على وجه الأرض فقير.. ولكن دون المساس بالمقدسات والشرائع و الدين.

لتتقارب في المعتقل كل الأفكار حتى أصبح لسان الحال.. لماذا نحن هنا ؟ولماذا

هذا الظلم والاضطهاد ؟..الذي ما أدركت أنه هين إلا بعد أن نقلنا إلى مزارع أبو زعبل وشاهدت ما يتعرض له الإخوان من إهانات وإعتداءات وتعذيب.. من خلع أظافر.. لضرب بالكرابيج.. مالا يمكن أن يتخيله أو يتحمله إنسان..ساعتها فقط عرفت أن ما أعد للشيوعيين أرحم بكثير مما أعد للأخرين.

الذي حمدت الله عليه أن مكوثي في السجن لم يدم طويلا وأعتقد أن لتدخل كمال فيه باع كبير. لم يمنعه منصبه الرفيع في المخابرات من زيارتي ودعمي أثناء الاعتقال..لم ينسَ أننا ابنا بلدة واحدة وأصدقاء بالرغم ما بيننا من فروق في العمر والمستوى المادي .. بل سعى لتوضيح موقفي وأن أفكاري ما أتت إلا من المعاناة وحملي هم إعالة خمس أفراد بعد وفاة والدي ..مما أجبرني على ترك دراستي والالتحاق بعمل كتابي في إحدى المؤسسات الصحفية لتوفير راتب لا يكفي حتى الطعام .

وها نحن نلقاه أنا ومختار نسيبه بالأحضان .. دعوت من كل قلبي أن يفرج الله كربه ويهون عليه ما يلاقيه ..حوله زوجته وابنتاه.. وجموع الأقارب والأصدقاء..بذل المعروف والحب فبادله الجميع بما أعطى من بذل.. ومع ذلك ما أقسى أن يقضى هذا اليوم بين جدران السجن وإن كان ليس بالمعنى الحرفي المتعارف عليه.. فالمبنى سكنةٌ عسكرية مؤسسة على مستوى عالٍ من الفخامة والرقى.. بها قاعات للاستقبال جلسنا معه في إحداها.. فاقداً للوزن.. شاحباً بعض الشيء.. لكن عينيه هي..هي من الطيبة والرقة ولكن تكسوها عبرة وكلمة لم ينطقها اللسان مفادها الامتنان..

– لم تكلفتم هذا العناء .. وحشتني يا يوسف .. وأنت يا مختار.

أتلقاه في حضني..

– أي عناء هذا.. إن شاء الله شدة وتزول .

– يعلم الله أنى ما فعلت شيئاً أعاقب عليه ..كم عرضنا جميعا أنفسنا للخطر للحفاظ على سلامة وأمن هذا البلد.. وسوف تثبت الأيام..

– إن شاء الله .. لكن الصبر .

– من أين الصبر .. كل القيادات في السجن.. لكن ألم تخشَ المجيء يا يوسف.. قد يقبض عليك وأنا هنا لن أنفعك بشيء. خصوصا أنك سوابق..

– يا ليت يا أخي حتى أبقى معك..وعلى رأى المثل ..(ماذا سيسخطونك يا قرد)

ولأول مرة أرى ابتسامته منذ دخلت .. أنارت وجهه الرزين وأزاحت عنه ضباب المحنة واستدارت به إلى بدر ..لنغرق ثلاثتنا في ضحكة عالية جرفتنا إلى بحر من البشر الذي ندر جدا في هذه الأيام الفقر.

جلال

حتى عندما الكل هاج وماج ..ما هذه زعامة ولا تلك بلاد التي يحدث فيها الجاري عندنا من اعتقالات وتجاوزات ..كنت مع الرجل قلبا وقالبا.. فقد كان قمة في الإخلاص والوطنية والنزاهة .. عف اليد واللسان والسريرة .. عرفنا معه معنى

القوامة والزعامة .. وعشنا معه الحلم العربي أكثر من خمسة عشر عاما ..لم يعش لنفسه يوما ..حياته كلها كانت للوطن منذ حصار الفالوجة وقناعته التامة أن الطريق لتحرير فلسطين يبدأ من القاهرة..حول مشكلة اللاجئين إلى قضية عالمية.. شعب اغتصبت أرضه وشرد و لابد له أن يرجع.. والقناة والجلاء والسد .. وكلما نجحت مصر في بناء قوة ذاتية كلما اكتسبت أعداء جدداً وخصوماً يسعون لإجهاض شرارة الثورة.. فالرجل وطني ومتفانٍ وغايته نبيلة ولكن كما كثر عدد الأعداء كثر عدد الضحايا.. وكنت أنا وأبى ممن تضررنا..لكن الدفعة الشعورية تجاه الرجل كانت قوية ومتحكمة .. باع والدي أرض جدي ..الذي كان أحد نواب مجلس الأمة وكانت أغلب ثروته أرضاً زراعية.. لينشئ مصنعاً للزيوت والأعلاف.. وأبقى منها مزرعة صغيرة حوالي خمسين فداناً بالقناطر الخيرية.. فلما صدرت قوانين الإصلاح الزراعي.. حمدنا ربنا على أننا بعنا الأرض.. لكننا لم نهنأ طويلا إذ طاردتنا قوانين التأميم.. وصودر المصنع.. لنصبح في يوم وليلة مفلسين. أصيب أبي بصدمة ودمره مرض السكر ولزم البيت لا يخرج منه أبداً ولا يقابل أحداً غير عمي منصور..الذي لأجل صداقته بأبي وصداقتي أنا وحازم.. أنتقل بعائلته من جوار جدتي بالدقي إلى الزمالك ليقيم في نفس العمارة التي يقطن بها صديق أبى الحميم والذي أمم هو الآخر مصنعه المهندس ناجي موريس .. الذي فوجئنا بعد التأميم بإصابته بمرض السرطان ليرحل عن دنيانا في خلال عام تاركا زوجته وأصدقائي الأعزاء من مدرسة الليسية سامى وسمير وسيسيل بلا أي مصدر للمال إلا عزبة

صغيرة في أقاصي الصعيد.. حتى اضطروا لترك المدرسة والانتقال لمدرسة عامة لكن عمى منصور أعادهم إليها لتدهور مستواهم الدراسي وعدم تأقلمهم فيها بالمرة..وما أعرفه أنه ساعدهم ماديا وإن عاش ينكر هذا.. إلا أنهم اضطروا إلى الاستغناء نهائيا عن الطباخ والخادم وأصبح شغلهم الشاغل كيفية بيع العزبة ..الأمر الذي لم يكن بالهين لوضع المستأجر يده عليها والقانون بعد الثورة كان الأرض لمستأجريها ولا يمكن إخراجهم منها. مع كل هذا لم أسمع من أبى كلمة شكوى أو كلمة تذمر تجاه الرجل.. لا أدرى أَثر السلامة أم رضى بالقدر.. إلا أن اللسان الذي لم يشتكي بعد اختلال ظروفنا المادية ووضعنا الاجتماعي .. ثار تحت بركان الجسد الواهي ليشيخ قبل أوانه ويفتح أحضانه لنصال التراخي واعتزال الحياة والأماني ..إلا من أمنية واحدة.. أن يراني ضابطا ومنضما إلى منظومة القيادة ..

لكن لم يدم التحاقي بالكلية الحربية أكثر من عامين.. كان والدي المشجع الوحيد لإتمامها..كان يريد استعاده بعض السلطة التي نزعت منا بإلغاء الباشاوية والبكاوية.. وألحق بركاب من هم يسيطرين على مقدرات الأمة. صحيا لم أكن مؤهلاً لهذا .. ففشلت في نهاية العام الثاني في اختراق الضاحية..لأترك الكلية التي كانت سجناً لروحي وفكري وميولي و بعد العديد من الالتماسات التي وجهها أبى لمدير الكلية الذي أجاب بأنه من الأفضل تركي الكلية عن وقوعي أسيرا في

أيدي العدو إذا ما قامت حرب..الأمر الذي قوبل بحزن شديد من جهة أمي وأبى حتى أن أمي ظلت أياماً و لياليَ تبكي ليقينها التام بضياع مستقبلي .. حتى أني كدت أسقط في بئر الحزن والحرمان.. خاصا أن فصلي من الكلية واكب دخول حازم كلية الطيران .لكني لم أستسلم لليأس و عدت ألتمس من أبي الرضا كي أدرس ما أحب وهو مصر على أن أدخل كلية البوليس أو أسافر لدراسة القانون في فرنسا..وأنا همي الأدب والفن.. فوافق بعد مجادلات انتهت أخيرا لصالحي على التحاقي بكلية الآداب..على أن أدرس الإخراج بجانبها..وها هو بعد النكسة.. لا أعرف كيف أصبح يُنظر للزي العسكري و كأنه سبة.. وعاد الجيش يلملم ما انفرط من عقده. بإعادة التسليح والهيكلة .. عله يجد في عمليات الاستنزاف فرصة يعيد بها بعض الثقة التي أضاعها وأضاع معها الزعامة والهيبة والأرض التي طالما تغنينا لها بالعزة والحرية والكرامة .

✶ ✶ ✶

يوسف

في أحد لقاءاتي المتكررة أنا ومختار تذكرناه.. فلولاه لكان والد مختار الآن مغيَّباً خلف القضبان. فبعد إحالته للمعاش داوم عم سلام على الصلاة في المسجد ليجلس بعدها يتحدث من باب إبداء الرأي وقتل الوقت .. وأصبح لا يُرى عم

سلام إلا وحوله جمع من الناس يحدثهم عن الأحوال و الأوضاع و المنغصات وينتقد النظام .. وإذا سألوه أفتاهم بعدم الخوف وضرورة الجهر بما يضمر القلب ويثقل عليه.. وزيادة في الإمعان بعث بأكثر من خطاب إلى رئاسة الجمهورية يشكو فيها من سوء المعاملة في بعض الجهات ويسرد التجاوزات والمضايقات التي يسمع عنها أو يلاقيها أثناء استخراج المعاش .

صدق الرجل ما يقولون بأن لكل مواطن صوت لابد وأن يصل إلى أولى الأمر فاستمر فيما هو فيه بلا أدنى شك أنه يوما ما سيبعث له جمال ليسلم عليه ويسلمه جائزة التفاني التي ستكون حتما في عيد الثورة أو ربما في عيد العلم ..ليفاجأهم ليلا أمر لم يكن في الحسبان ..مجموعة من الرجال غاية في الشدة والغلظة يقتحمون المنزل بعد منتصف الليل لاصطحابه ولا يردون على سؤال مختار الهلع ..إلى أين ؟..إلا..بسوف نعيده قبل الفجر.. وكأنهم أصنام.. وكلما حاول مختار الاستفسار.. لم يكن عندهم غير نفس الرد. استمات مختار في إثنائهم عن أخذه دون جدوى.. وعدهم بإحضاره في الصباح لأن الرجل مريض وكبير السن والجو برد..لا حياة لمن تنادى..وبدأوا في استخدام العنف من دفع لمختار بشدة وجذب للأستاذ سلام الذي كان تقريبا من الصدمة فاقداً للوعي.. لولا أن ألهمه الله بأمر.. زوجته.. التي تكن لحماها كل الحب وتعتبره نعم الأب.. لتخرج صارخة من إحدى غرف النوم تحمل على كتفها الرضيع الذي لم يتم شهوره التسع.. لتلقيه غير عابئة به بعيدا عنها..وتستمر في الصراخ وهى متعلقة بزوجها وأبيه باكية منتحبة..وتأمر

بالاتصال السريع بكمال ابن خالها..الذي بعد محادثته مع رئيس المجموعة ..تم الاعتذار والانسحاب فورا دون أخذ عم سلام الذي كان في ذهول لا يعي.. ليجلس بعدها في الركن يبكى.. أبدل أن يكرم يريدون أخذه للسجن .. ليعانى الرجل بعدها من اكتئاب وهزال شديد .. يمتنع بعدها عن النزول إلى المسجد.. ويقسم أنه سيظل إلى آخر عمره يصلى بالبيت.. والواضح أن الرجل لم يتعرض لهذا فقط بسبب الخطابات والانتقادات ولكن أيضا وهذا الأهم أنه ابن عم محمد المصري أحد قيادات الإخوان الذي قضى نحبه في السجن وكنت قد قابلته في المعتقل مرة أو مرتين.. وها نحن .. أنا طليق.. وكمال في السجن.. وعم سلام يجلس في بيته قرير العين .

✶ ✶ ✶

جلال

الأشهر القليلة مع الشيخ كان لها مفعول السحر..ذاهب بقلب..عائد بغيره .. كان كل هدفي تجميع مادة فلمية للعمل التسجيلي الذي أعده عن الدمار الذي حل بمدن القناة فإذا بي ألاقى دنيا أخرى .. بعد كل عشاء وعلى أنوار بعض الشموع القليلة الشيخ يحدثنا عن ديننا وعن نبينا صلى الله علية وسلم وعن الدنيا والهدف من وجودنا فيها .وكآني ولدت من جديد وهيئت لحياة أخرى ..وكآني أحبو في روضة من الصفاء والنقاء وترتيب الأوراق لسنواتي القادمة.. أولى المهام فيها رضا الله عز وجل وبعدها إتباع السنة.. والأمر بسيط وهين كما وضَّح الشيخ.. وحدَّد الله

تعالى ثم استقم كما أمرت على هدى المصطفى .. والتزم الجماعة ولا تشت فتهوي ..وأشحذ الإرادة..

مسلم أنا حقا ومن بيت مسلم تقام فيه كل العبادات والشعائر..صوم..صلاة.. زكاة .. وأفعال شتى .. لكن العلم شئ آخر..أن تفعل وأنت تعلم لما تفعل وتستشعر الحكمة.. وتتفكر في القدرة الإلهية والمنهج الموضوع بدقة لسعادتك في الدارين الأولى والآخرة.. أنساني الشيخ الفيلم وأنساني الدنيا وما فيها وأنساني كل شئ إلا الاستزادة من علمه الغزير ومن توجيهاته الفضلى..ومع أنى ربيت منذ الصغر على حب الله تعالى والخوف منة بل أنى كنت أبكى كثيرا كلما اختليت بنفسي في أولى صباي إذا تفكرت في آياته الكونية سبحانه وكنت أناجيه سرا وجهرا.. إلا أنى كنت أشت وأنقطع وتأخذني الحياة فأتوه فيها ومنها .لكن العلم الذي ألقاه هنا هو الذي يفسر كيف جاءت كل آية تلو الأخرى وكيف تنزل الكتاب على نبينا بهذه الكيفية .. وقصص الأنبياء والأمم السابقة . كان يأخذني العلم الدنيوي فينسينا ما هو أهم وأبقى .. وأنا فيما أنا فيه هنا فرح بما ألاقى من زهرات الجنة ولأليء مضيئة تلقى في طريقي أسير على هداها..وأخيرا أسير على هدى.. آه يا هدى لو تعلمي أني أحبك الآن أكثر من ذي قبل.. وعندما تعمق حبي لخالقي أنبثق منة حبي لكل مخلوقاته وأنت في هذا لك النصيب الأوفى.

✶ ✶ ✶

هدى

في مكانه بالضبط..حتى لا نشعر بفقدان الأب الذي كان ولا يزال في الوجدان.. رب الأسرة والبيت .. وإن كان في أيامه الأخيرة غاب عن العقل والإدراك.. ولكن الرمز يظل رمزاً ..ولكنها بعكسه.. تأكد أنها ستنهض.. ويوما ستترك الرقاد..وأراها تستجيب للعلاج.. أتابعها بعين الابنة المحبة وعين الخبرة .. لاشك أنها تستجيب..وأحيانا يرتفع صوتها في النقاش أعلى مني ومن نجوى .. حتى لأشعر أنها عادت شباباً.. فإذا دخل عليها حازم قالت ..

ـ بطلي قد جاء..

فننصرف وتظل هي وهو في حوار وكأنها تعيد معه تخطيط الحياة.. وتبثه أحزانها وما فات.. وهو يصغي باهتمام ويطيع.. وكأنه يبشرها بالأمل الذي ضاع.. ونحن في هذا كله يقينا لا نعرف ما يقولان.. وكأننا من حولهم أشباح.. فإذا جاء موعد ذهابه لإحدى العمليات..تبدى عليها القلق والاضطراب..ولكنها تحاول جاهدة التماسك كي تبدو أقوى من الخوف والأحزان.. ولكن تخونها عاطفة الأمومة و رقة الأعصاب .. فتصمت وتعاف الطعام.. وتسبح بنظرها في السماء بابتهال ودعاء.. إلى أن يطرق مرة أخرى علينا الباب.. ويعود رب الأسرة الصغير.. الابن والأب والحبيب لكل نساء هذا المكان .

وجبت
منذ يومي الأول ونظرتي لهما إعجابا وحبّاً وبعض الغبطة.. لكن أبدا ليس حسدا أو حقداً.. فأنا في أشد الاحتياج لصداقتهما في هذا البلد الصعب.. الجديد على في كل شئ.. حقا أن درة لا تبخل عليَّ بالتوجيه والنصح..لكنها سريعة الاستثارة..عصبيتها تنسف كل جسور الحوار وتحول رياض الصداقة إلى ميدان كر وفر.

جيهان شمس ساطعة ..تلهب المشاعر..تسيطر بشعاعها على الجميع .. لا ينكرها إلا جاحد عديم البصر والإحساس .. جمالها خلاب ..فتنة للناظرين .. أقرب ما تكون لنجمات السينما ..كل شئ فيها مضيء ومشع.. مبهرة للكل.. أما هدى فهي القمر المنير في هذا البيت بلطفها ونورها الهادئ الوديع الذي لا ينبعث فقط من جمال وجهها وبشر روحها ولكن أيضا من حب الجميع لها..أما أنا فالأرض .. ولا شيء غير الأرض..بطينها ورملها وانبساطها واعوجاجها .. بالنسبة للجميع قروية ساذجة ..متوسطة في كل شئ..فمن سيلتفت لي في هذا الكم.. لذلك صداقتهما مؤازرة كبيرة لي ودعم..ولو كان أبى معنا لتغير الوضع ولسعى الجميع إليَّ..في حياته لم يرني غير مرتين..أولهما حين كنت في التاسعة ..شيء عجيب..حتى من عاينه أنكره ولم يصدقه وازدرى هذا الأب.. يكفيني جدي وما علمني ..كم كان سيسعد بدخولي الجامعة..رحمة الله عليه..لو لم أعرف غيره في حياتي لكفاني..

أخر رسائله جاءتني مع جلال وكانت عنه.. يوصيني أن أوليه ثقتي..وقال إنه دائما سيرعاني ..منذ ذهب إليه لتصوير آثار الحرب والدمار وجدي أحبه وتولاه .. رأى

فيه خيراً كثيراً كما قال وقلبه عامر بالإيمان لكنه يحتاج لمن يمد إليه يد الإخلاص.. وأنه سيكون لي في الدنيا العون والأخ .. حين ذهب إليه بالرد وليكمِل باقي الفيلم الذي أهداه لروحه فيما بعد وجده قد استشهد في نفس اليوم وهو ذاهب لصلاة الفجر بقذيفة غادرة من إحدى المروحيات و ليقوم عنا بواجب العزاء والدفن.. من أحبه كابن .. فساقه الله إليه ليشارك في تشييعه والصلاة عليه وفعل ما لم نستطعه نحن لبعدنا عنه.

✶ ✶ ✶

جلال

.. بدأ أولى خطى المعافاة منها وانشغاله بالحرب القادمة شحذ فيه الهمة ..عشت ألوم نفسي أنى السبب في معرفتهم.. ورحت أفتش في خبيئة نفسي هل عن عمد سعيت لهذا وفرحت به لأفسح الطريق أمامي لهدى .. أم أن الأمر كله جاء مصادفة ..منذ رآها لأول مرة معي في الأستوديو بُهر بها..من أول نظرة بينهما علمت أنها ستكون قصة.. فبرقَّة عينيه ولمعة عينيها واستمرار الحديث بينهما عن الطيران والسينما.. أفهمني فورا أن هذا هو الحب من أول نظرة ..على الأقل بالنسبة له .

حتى عندما أرشدتها عن الشقة المفروشة بالعمارة المجاورة له عندما سألتني عن مكان تنتقل إليه حتى يتم تجهيز شقتها كان الأمر كله مصادفة ليس إلا .. وإن كنت بمساعدتها للانتقال إليها قضيت على كل فرصة لفصم تلك العلاقة ..لن

أنسى منظره وأنا أجرّه من يده إلى الشرفة لأريه أيها كأغلى هدية قدمت إليه يوم ميلاده ..كان مبتهجا جدا كطفل أهدى لأول مرة لعبة.. سحبني مسرعا لنذهب إليها.. قال يكفيني أنى سأمضي شهرا أفتح عيني وأغمضها عليها .. لتستمر لقاءاتنا ..الثلاثية.. لتتحول تدريجيا إلى لقاءات ثنائية ..ما ألوم نفسي عليه حقا هو أنى أخفيت عنه حقيقتها .. كان له ألف حق أن يرتاب فينا ويضيع في غيابات الحيرة.. مسافر معها كأكثر ما يكون الأصدقاء.. عائد بكم هائل من البغض والجفاء..أكاد أصب عليها جام غضبى وألعنها نهاري وليلى وأستثنيها من كل أعمالي..فكان سؤاله لماذا وهى بطلة فلمي المرشح للمهرجان وصديقتي من قبل الفن والأفلام..لكن ما الجدوى إن كان سيلتمس لها آلاف الأعذار و بمرآة الحب العمياء سيصر أنها من الأتقياء الأبرار.

✶ ✶ ✶

يوسف

بمثقفي الستينيات كانت القاهرة حالة ثقافية فريدة ونادرة ..مفرداتها سلبت الألباب ولولا موهبة من الله عز وجل في الشعر القصة ما استطعت مجالسة رؤوس الفكر من هؤلاء النجباء . ومع أنى ما جنيت إلا الفتات إلا أن اسمى أضحى معروفا في عالم الأدباء وأصنف كأحد أهم كتاب القصة القصيرة..لكن ما الجدوى ..إن هذا لم يترجم لمال وما كان حالي لولا عملي المتواضع بأرشيف الجريدة وضمة السبيل الحنونة ..فبالرغم من كونه شقة صغيرة متواضعة فوق أسطح أحد أبنية القاهرة الفارعة إلا أنه حاز جزءاً كبيراً من هذا السطح كشرفة ..فكانت

الصحبة والمنتدى .. خاصة وهي كاشفة للهرم والبرج والنيل والقلعة..فإذا بمصر بتاريخها القديم والحديث تحتضنك بمنتهى اللطف والدعة.. فمهما شت منا الحديث عن غيرها أعادتنا إليها طائعين لننشغل مرة أخرى بها ونتدله من جديد في حبها كل على قدر عقلة وأتساع قلبه ورؤيته. وليتسابق الجميع في تخطيط مستقبلها ورسم الطرق لها..فكل منا يريدها أن تمضى في طريقه ظنا منه أنه الأكثر حرصا عليها والباقي الوحيد على مصلحتها.. تيارات سياسية عدة لكل منها حظوة وسطوة ..لكن دون جدوى ..فهي من تختار منهجها وطريقها و قائدها .. وهي التي تفرض علينا ..ولا يستطيع أحد أن يفرض عليها .

.. ومع أن السبيل كان في الأغلب ملتقى ذكوري لا يطأه جنس الحريم ..إلا أنه في بعض الأحايين كانت تهب عليه نسمات الربيع الحلوة ..من شاعرات وصحفيات يجمعهن بعبد الكريم صداقة وزمالة وصلة..لدماثة خلقه وطهر سريرته..كان حقا يعاملهن كلهن كأخوته إلا نور صفى الدين ..في صمت كصمت أبى الهول أحبها وتدله في حبها بالرغم من مستواها الطبقي الرفيع.. الذي يبعد عنه بكثير.. بعد القمر الذي لم أرَ له مثيلاً لصورته تلك إلا من شرفة السبيل.. ننظر إلية بالساعات.. فإذا بنوره وبهائه يسلب العقول..آه من بدر ليالي الصيف مع الأصدقاء كان يشعرني أحيانا أنه جد قريب وأنى لو مددت يدي إليه لمسست جبهته البيضاء ولطبعت عليها قبلة اشتياق .. لولا نسيم الليل العليل الذي كان يوقظ العقول فيعيدنا على أرض الواقع صاغرين .

✶ ✶ ✶

حازم

..أتيح لكل الطيارين الخروج في مهمات قتالية غاية في الخطورة وغاية في الجرأة خلال فترة الاستنزاف التي هي بحق الحرب الحقيقية التي خاضها الجيش المصري حتى أصبحنا جميعا على قدرٍ عالٍ جدا من الكفاءة والإجادة.. الطلعات المتكررة على الضفة الشرقيةً للقناة أذاقتهم معنى الهزيمة بالرغم من انتصار يونيو المزعوم علينا ..كوننا قمنا من كبوتنا كان كافياً لعصر عقولهم الحمقى..الفصيلة التي استطاعت أن توقف فرقة بأسرها في الرابع عشر من يونيو.. ومعركة رأس العش في الواحد والثلاثين من نفس الشهر انتصار حقيقي بمعنى الكلمة في وقت كان تسليحهم أكثر من عشرةِ أضعاف ما عندنا. لا أدرى لم رضينا بامتصاص الضربة الأولى.. أم أنهم أقنعونا أنه لن تكون هناك حرب بالمعنى الحقيقى .. من ذا الذي يظن أن الحرب تنتظره ولو للحظة.. من يظن هذا يصبح كالأعمى .. الحرب كاسحة و الدرس موجع لنا وجراح الحرب كلما تقدمت في العمر أزدادت عمقا .. المهزوم فقط من يتلهفها ليعيد الموازين لطبيعتها.. فميزان الحق القائم منذ بدء الخليقة .. لا يميل إلا بالتراخي والمهادنة .

الفرق كبير جدا بين طائراتهم وطائراتنا من ناحية الإمكانيات والكفاءة .. فالميراج تحتوي على جهاز ردار للتصويب مداة ستون ميل في حين ردار الميج **17** عشرون كم ..كنا أحيانا في غنى عنه لأن أبصارنا كانت ترى أبعد من هذا المدى .. وكنا كثيرا ما نستخدم مقدمة الطائرة للتصويب..وكانت الميراج تسطيع حمل حوالي خمسين طناً من القنابل في حين تحمل الميج **21** أثنين طن فقط والميج **17** تستطيع حمل أقل من طن ذخيرة ..ومع ذلك كانت كل عملياتنا تأتي بثمارها

المطلوبة .. فهم كانوا من جبنهم يرتعبون من الطيران على الارتفاعات المنخفضة حتى لا تطولهم نيران مدافعنا المضادة ويلقوا بحمولتهم من ذخيرة دون النظر لإصابة الهدف .. المهم أن يرجعوا دون إصابة..أما نحن فكنا نطير على ارتفاعات منخفضة ..فيأتي التصويب مئة في المئة ..حتى أن رفعت كانت له كلمة تضحكني دائما بعد كل تصويب ناجح خصوصا على معسكرات جنودهم ..

- القنبلة وقعت في حجره..

وأخيرا أعطانا السوفيت طائرات الميج **23** ولأول مرة ..خمس طائرات دفعة واحدة ومحركات إضافية لها لأن مدى طيرانها ليس بالمدى الطويل و تستهلك بسرعة وتحسبا لأي أعطال قد تواجهنا.. و طائرات الأنتنوف الناقلة والتبلوف العملاقة..و منصات الصواريخ سام**3**و**7**وهذا في حد ذاته يعد كرما من روسيا التي ضنت به علينا في حرب يونيو..وللحق الميج **23** طائرة عملاقة.. كفاءتها القتالية عالية وهى قاذفة قنابل ثقيلة.. لكن مازال عشقي للميج **17** طاغياً والتي مازالت طلعاتي التدريبية والقتالية بها بجانب الميج **21** في المهمات الاعتراضية والاستطلاعية التي كان السقف الأعلى لتحليقها أعلى من الميراج فتنقض عليها من أعلى.. أما طائرتهم الفانتوم فقد كانت أكثر مقاومة.

كانت فرحة القيادة بالطيارين الروس لا توصف.. فرحة عظيمة .. لدرجة أن أنزلوهم في قصر رأس التين في الإسكندرية وأمر لهم الرئيس بعربته المكيفة لشدة حرارة الجو في هذه الفترة .. التسليح والتطور لم يطور سلاح الطيران وحده بل بدأت جميع وحدات الجيش المختلفة تستعيد نفسها وزاد كم التسليح القادم خاصا من دول شرق أوروبا .

.. الملاحظ أن الجميع أصبح أكثر صلابة وأكثر جدية وجمعهم الهدف الأسمى والعمل الدؤوب على سرعة المواجهة والدفاع عن أرضنا المغتصبة و كرامتنا المسلوبة.. فانتظار الحرب الفاصلة كان الأمل والغاية.. وزيارات الرئيس المتكررة للجبهة كان لها مفعول السحر في نفوس الضباط والمجندين.. خاصا من بقى منهم في التجنيد فترة طويلة تجاوز بعضها الأربع سنوات. مرونة المناورات العسكرية بعد كل معركة وكفاءة الطيارين وهارموني الإيقاع بينهم وبين قواعد الدفاع الجوي والصواريخ المضادة كمظلة واقية لعملياتنا على شط القناة أتت بنتائج مذهلة..فاستنزفت تلك العمليات الكثير من قوة العدو وطاقتهم العسكرية والمعنوية.. وجعلتهم في تشكُّك من موعد الضربة الكبرى..

الغريب أن هذه الفترة أنستني ميج تماما ..حتى أنه لتمضى شهور دون أن أذكرها.. يبدو أنه إذا انشغل العقل بقضايا كبرى أفسح له القلب مكانا ليقود هو..وتراجع القلب وانزوى ومحي ما فيه لفترة .

✶ ✶ ✶

هدى

حوالي الساعة السابعة مساء أكتمل اليوم بمسلسل المفاجآت الصادمة.. فبعد يوم طويل منذ الصباح الباكر..من المعاناة في المستشفى ومعي درة وإجهاضها المفاجئ .. وهو ما أضاع أملها في طفل كانت تنتظره متلهِّفة.. بعد فترة طويلة من الانتظار

والعلاج والمثابرة وحتى المجازفة بحياتها بإجراء عدد من الجراحات الخطيرة ..كان عليَّ البقاء بجانبها لمواساتها ورعايتها مع وجبت ووالدتها ..ولم أتركها حتى اطمأننت عليها.. وبعدما جاء وقوع خالتي عصرا لتلوى قدمها ولتعود لرقدة الفراش مرة ثانية بعد فرحتنا بقيامها من رقدتها التي طالت طويلا بعد رحيل عمي عنا.. وفي وقت أنا فيه لأشد الاحتياج للهدوء النفسي والعصبي لقرب امتحان البكالوريوس وخاصة أن مادة الجراحة ترعبني.. ليس من صعوبتها ولكن شيء في نفسي يحدثني أنها ولا شك ستحرمني النيابة بالقصر العيني .

لتجئ الطامة الكبرى.. موت جمال أذهلنا و أرعبنا وكأننا جميعا يُتَّمنا وغرقنا في بحر الحزن داخل أنفسنا.. حزن وطن بكامله.. في مفترق الطرق.. فقد الدفة..قبل أن ينجز ما تمنى .. فمن بعد ناصر يستطيع حمل تلك التركة المرعبة .. الكل بكي وأنتحب أمام الشاشات التي أذاعت آيات القرآن الكريم بعد نعيه لنا.. وأنبأت عن وصول الرؤساء العرب .. بعضهم لم يترك مصر إلا من ساعات قليلة.. كان يصلح بينهم.. ويجبر الصدع الذي طالما يظهر لنا كل فترة ويكشر عن أنيابه ليفتك ويفكك من تماسك هذه الأمة وينخر في قوائم أخوتها وعروبتها التاريخية والمستقبلية.. أجهدوه وهو محمل بكل هموم الدنيا و بعبء تنوء من حمله الأمم ولمس شخصه الذي زحف على جسده المرض والوهن.. وإن كان الكثير منهم لم يكن يعرف..فعادوا ثانية لتشييعه..يعتصرهم الحزن والألم ..أكثرهم صغرا وألما كان رئيس ليبيا.

✶ ✶ ✶

حازم

..عنف المفاجأة وهول الحدث أطلق عقلي في سباق مع جموح الغضب .. عبء السخرية جذبنى لحافة الجنون في توأمة البكاء والضحك .. سرعة الهبوط ودوامة اللاوعى سحبتني سريعا لمتاهة الرمال.. توهجها تحت شمس إبريل عاد بي للوراء لأبعد من ست سنوات.. حين غطتها أطرف وأشلاء وحطام جيش لم يحارب للبقاء.. كحالي مع من ائتمناه.. وسلمناه قاعدة الصواريخ.. في طريقي للأرض كان السؤال ..كيف غيب هذا المعتوه القابع فوق جبل عتاقة عن الوعى فيسلمنا.. هي للنار وأنا للآسر.. مستسلما تماما لها.. بعد أن قذفني مقعد الطائرة بالمظلة.. وإلى حيث هي سائرة..وهى كالمسخرة في نزولها واندفاع حبالها.. وتلاعب الرياح باتجاه انحدارها ..

وأنا مذهولا من مشيئة الأقدار وطرفة الاختيار..السابعة عشر سقطت محترقة.. والأرض واسعة ولا يحلو لها السقوط إلا هنا.. وهنا بالذات..لتحط قدماي كأغلى صيد هبط عليهم من السماء.. قدمني لهم خطُّ دفاعي على طبق من فضة.. ليحوطوني بأجسادهم وأسلحتهم ولجام غضبهم في نقطة هي مركز معسكرهم بالضبط..النقطة التي قدر لي فيها أن يقيدوني ويقودوني للمجهول الأتي.. ولأنزل في رفح..ضيفاً على سجن حقير وحجرة أصغر من الجحر.. تحسباً لما سألاقى حاولت إغماض عيني دون جدوى.. صباحا ..أول من رأيت.. الموكل بحراستي.. ينظر إليَّ وكأني قادم من الفضاء وهو في نظري كالقائم من الموت بعد البعث.
إصراره على تبديل حرف الحاء في أسمي بحرف الهاء وجعلي هازم..أعطاني بعض التفاؤل في هذا الجو الكئيب..القاتم..

✶ ✶ ✶

وجبت

لم أتخيل أن فرحتي بقدومه هذه المرة ستتحول بعد فترة إلى هم وحزن وكراهية. دوماً يأتينا ضيفاً فيملأ حياتنا بهجة بحكايته ورحلاته منذ ترك يافا إلى أن أصبح يمتلك صرحاً من الأعمال التجارية في كثير من البلدان العربية والأوروبية .. وكيف جاء إلي مصر عن طريق الحاج عوض الله المنسي صديق جدي الذي كان يزور لبنان كل صيف لإحضار بضاعة لوكالة المفروشات التي يملكها، وكان وجيه يصاحبه في رحلاته الترفيهية في جبل لبنان بأمر من السيد وديع .. فأحبه الحاج كابنه وطلب من وديع أن يبعثه إليه في مصر للعمل وللزيارة.. وليصبح في المستقبل هو

حلقة الوصل بينهما بعدما أصبح الحاج لا يقوى على القيام بهذه الرحلة الصيفية .. وكيف تعرَّف بعدها على خالي إبراهيم الذي كان يدير حسابات الوكالة ، فقامت بينهما صداقة قويه من أول لحظة.. وأصبحا لا يفترقان.. وأحب خالي أخته درة من يوم أن رآها ، وتزوجها.. لنصبح بعدها أسرة واحدة.. ليتحول هذا الضيف العزيز فجأة إلى لص يريد سرقة كل ما لديَّ في الدنيا ..

✶ ✶ ✶

حازم

باستدامة الرنين ..كالميت أفيق على صراخ زبانية الجحيم..

– قم ..أفق .. التحرك بعد دقيقتين .

أنضح وجهي بالماء.. أتوضأ.. النار المنبعثة من أحدا قهم تكاد تحرقني ..من شدتها أكاد أشعر بحرَّها على جلدي ..

– هيا.. أي صلاة تلك.

تكرارها كان أفضل بكثير من قبوعي في هذا القبو البشع .. مسجى على سرير معدني صدئ في هذا القبر القذر وجدران سقطت بشرتها من الهرم .. كيف بنوه أبناء الأبالسة من الوحشة والضيق مغايرا تماما لكل توقعاتي في قبر لي أفسح منه وأبرح ..حنين عارم لقبر في الوطن ولا ألف حياة في غيره من المدن.. رحلتي تلك كبدء الحساب بعد الموت..وأصعب ما فيها أن كل الموكلين بسؤالي من

شياطين الجن وأنا كالعالق بين السماء والأرض ولا أجد لقدمي موقع كي أستقر ولا عندي لهم من أجوبة غير..لا أعرف.. والصمت..ذكائي في عدم الإجابة يشحذ ذكاءهم في حملي على الكلام.. والأساليب عندهم كثيرة..

بالعصابة السوداء على عيني.. يقودوني كالضرير.. بين أيديهم أمضى.. ساعتين من التأرجح في العربة الجيب فلا أدرى أنصعد جبلاً أم ننزل تلاً وكأننا ننزلق على جسد أفعى عملاقة تأبى أن نمر فتزأر وتزمجر وتتلوى لتصيبني بأبشع غثيان وآلام بالبطن لم أشعر بهما إلا منذ مجيئي إلى هنا وأكلي من طعام هذا الوغد. قبلت كي أتخلص من إلحاحه ومن هموم ثقال قد تؤدى بأكثر الناس تؤدة و اتزاناً إلى حافة الجنون و الانهيار. جعلها بالحيلة والمحايلة حلقة الوصل فيما بيننا كأنشودة الصباح وترنيمة المساء.. شاعون يد .. شاعون يد .. ووجدتني فجأة الهدف المستباح لسهامه المتتالية لخطة محبوكة من دهائه المغلف بالصعلكة للاستيلاء عليها.. بداية حاولت المقاومة لكن في النهاية رضخت بعد تقبلي لبعض مِنَحِه المفاجئة.حادثني وعينيه ستخرج عليها..

– نتفق.. أنا لست ملاكا.. ولا بابا نويل.. الطعام له ثمن..وهي الثمن..اتفقنا يا كابتن..

– لا.. إلا هي ..

– واضح إنك غنى .. هل تعيش في قصر.. يستطيع أبوك أن يشترى لك آخرى..

– لقد رحل .

– أنا أيضا لم أرَ أبى ..كان بطلاً .. هربت بي أمي بعد ما أحرق هتلر اليهود فى الهلوكستب ..تماما كما كان يريد أن يفعل بنا ناصر .. هتلر الشرق.

– اخرس يا كلب ..لا اتفاق بيننا يا نذل.. هل تعرف لماذا هتلر أبقى على

بعضكم.. كي يعرف العالم أنه فعل الصواب بحرقكم عندما يعرفوا طباعكم و أخلاقكم.. أما ناصر.. فكان سيدكم..

– لا تغضب .. لا أقصد .. هم يقولون هذا .. مالي أنا وناصر والحرب .. أنا ما يهمني شاعون يد .. موافق يا هازم ..شاعون يد .

– موافق يا وغد .. لكن إياك و التطاول مرة أخرى و إلا ستجد نفسك وراء الشمس.

بعد العذاب المسمى بيننا ككل رحلة .. يقودوني لداخل مبنى الإدارة المركزية الذى لا أعرف مكانة و لا كينونته ولا ما هو.. في الانتظار..دخان سجائرهم البغيض ..أشتاق طبيعته المتلاشية ..أفيق على نقيق ضفدع مكتوم الإيقاع ..كمن يتمرغ في بركة من الوحل .. يشعرك بقذارته وعفونته .. بالرغم من شدة تأنقه.

يوجه لي كلام أتمنى الصمم عن سماعه

– وبعد.. ألن تتكلم ؟.

– حازم منصور الجيوشي..نقيب..الرقم التسلسلي (**16773**) ..

– كفاك.. أنت تعرف ما أريد .

يشير بإصبعه لأماكن بعينها على ورق الخرائط الموضوع على مكتبه ويكرر الأسئلة عن خزانات الوقود.. تحركات القادة و تشكيلات الجنود.. قواعد الصواريخ والمطارات والممرات و الرادارات ..وأبنية جديدة بجانب مطاري امبابة وبلبيس.. وردى لا يصيبه إلا بالجنون .. احتقان وجه وبروز عينيه نبأني بما يضمره و حتمية تطاوله .

– تكلم و إلا .. ألم تجرب المرة السابقة. قولي ما الذى يمنعك.. هذا أمر روتيني تم مع كل من أتى هنا.. ومن أجاب عاد وفقاً لبروتكول التبادل بيننا ..

– حقا ..

– وهل أكذب عليك.. افهم يا كابتن.. أجابتك هي جواز السفر.

– وهل تجوالي في بلدي يحتاج جواز سفر.. أنت من تحتاجه ..وجودك أنت غير شرعي .

– أنت مجنون ولا شك.. سترى ..إن لم تجب قد تعيش أعمى..

ضغطه إصبعه على أحد الأزرار بعصبية أتت به .. أشيب .. عبوس ..قمحي.. يتبعه جنديان مدججان بالسلاح.. الذى لم أتبينه لاتساع الحجرة تبدَّى باقترابه مني مفاجأة..كدت أفتح ذراعي لملاقاته .. ولولاها..لقبلته..صفعة مباغتة..أطاشت عقلي وجمدت الدم في عروقي.. مذيلة بسيل من السباب العلني الذى يعاف اللسان أن يذكره أو يتلفظ به لا يتقاذفه إلا السفلة من رواد المواخير وأبناء الحواري.

– آلا تعرف هذا يا ابن....آلا تعرف مطار امبابة يا ابن..... ومطار ألماظة ياابن.....

رأيته يريد تكرارها لولا مباغتتي له و دفعه بعيدا بلكمة قوية أسالت الدماء من وجهه النجس وكادت تسقطه لولا تلقف مساعديه إياه .. فقام مترنحاً كالذبيح لينضما إليهم في ضربي ضربات عنيفة متتالية مكررا سِبابه القذر والأسئلة.

– سأبلغ الصليب الأحمر عن تلك التجاوزات.. اتفاقية جنيف تلزمكم بحسن معاملة الأسرى.. لم ألقَ حتى الحد الأدنى .

– لن ترى منهم أحداً.. وسائلنا لا توقعنا تحت المساءلة..نحن فيها أساتذة..ولن تتوقعها..انطق ياابن.... لترحل من هنا.

– الله يلعنكم ..تغور المبادلة ..الله يلعنكم.. يا كلاب يا مجرمين يا سفلة ..

..أعادوني للسجن محطما .. متهاويا.. ككل مرة إلا أنه أرقني الكابوس الجاثم على أفكاري فحرمني النوم من تفكيري في ذلك الوغد .. رمزي .. يده التي ربت على كتفي بها مناديا إياي بالنسر المصري والذي مَنْ كنت أبجل فيه معلمي للطيران الشراعي.. هي اليد التي هوت اليوم على وجهي ..لو استطاع قتلى اليوم لقتلني.. وشفتاه اللتين طالما قبلتا يد أبى..الذي لولاه لكان هذا القذر الآن في عداد الموتى في قضية أهون ما يقال عنها إنها فضيحة.. تصِم صاحبها بالعار مدى الحياة.. ولسان هذا الحيوان الذي لم يكن يفتر عن مدحه و تعظيمه و تذكر أياديه البيضاء عليه هو الذى يتجرأ اليوم على قدره و مقامه .. ناكرا التاريخ الطويل من بذل المعروف والإحسان ..لكن للأسف لمن لا يستحق.. و ها هو اليوم يتطاول عليه ويسب هذا العملاق رمز العلم والاستقامة.. والقدوة لمن يقتدي.. حقا ما خلا يهودي بمسلم إلا وحدثته نفسه بقتله .. فالذئب يظل ذئباً و لو ارتدى ألف ثوب حمل .

✶ ✶ ✶

وجبت

لكن مالي أنا وكل هذا؟.. لِمَ هي بالذات التي أختارها .. والأخريات كثيرات؟ .. أحبها.. ليكن .. لكن هي أمي.. حقاً ما من أحد رآها إلا وأعجب بها وتمناها زوجة ، وإنى أحتار كيف استطاع أبى تركها بعد شهرين من زواجهما .. الغريب أنه تزوج بعدها اثنتين وطلقهما بعد نفس المدة.. فاتضح للجميع أن العيب فيه وهي مبرأة من كل علة.. فبالرغم من أنها على مشارف الأربعين لم تزل جميلة وبضة بل هي أملح منى ومن درة إن وقفنا بجانبها .. وإن ناديتها ..أمي.. ذهل من لا يعرفنا.. و نصحوني ألا أناديها هكذا ..فأنا بجانبها أبدو كأخت ولجمالها قد تبدو هي الصغرى ..

فبالرغم من ليالي الحزن و الوحدة التي أذابت الكثير من مفاتنها ..وخلو الحياة من الشريك الذى يحنو ويرعى ، ومجاهدتها في تدبير أمور معيشتنا حتى لا نكون عبئاً على أحد..إلا أنها مازالت شابة يرغبها الكثيرون بالرغم أنى أصبحت أطول منها ودخلت الجامعة ..لكن كل هذا لا يعنيني .. أنا أريدها تبقى معي ..لا أن تسافر معه إلى إنجلترا .. لن يحصلوا منى أبدا على الموافقة .. وسأظل أبكى أمامها ليل نهار حتى أعذبه وأعذبها .

✶ ✶ ✶

حازم

لم يتقاعس دان عن الالتزام ببنود الاتفاق.. شعور الجوع المستمر تحول لتخمة وأمتلاء.. فعادت لوجهي نضارته وكأني أقضي إجازتي مع ميج على شاطئ البحر في الإسكندرية هرباً بها من كل القيود والمحاصرة التي كانت تحيط بنا في القاهرة.

وعادت إليَّ صحتي التي أذبلتها كميات الطعام الغير كافية لمن هم مثلى من أصحاب الأجسام الفارعة..وما كان يصاحبها من منغصات زائدة.. فبجانب قلة الكم كانت رداءة الكيف و دناءة التحضير والتوزيع و ملازمة وجه دان الشنيع.. فحساء السجن فاقد اللون والتمييز..فهو الابن الغير شرعي لكل بقايا الطعام الفاسدة..والخبز الذى تعافه النفس.. تحجَّره يؤهله لبناء المقابر أو للمقامرة.. ملك أم كتابة..و قطعة لحم في الأسبوع ..تبدو أنها من نعالهم ..لونها أسود و بها نقط بيضاء و حمراء..لا تعرف إن كانت مسلوقة أم محروقة أم مخنوقة.. كل تلك كانت مآسي أحياها كل يوم في أسر إن خبرة الطير الداجن ضج من القيد والحبس والتقييد.. لتتكاتف معهم عليَّ.. رحلتي المتكررة وتكرار الأسئلة وسوء المعاملة وملازمة وجه العدو.. من سوء حظ المرء أن يصبح و يمسي على وجه من لا يحب.. فكيف بوجه العدو الذى بيننا و بينه جدار شائك من الدم والحرب والغصب لكل ما ليس له فيه حق منذ ابتلينا به شوكة في الحلق.

– عليهم لعنة الله..ست سنوات كست آلاف..إلى متى يا سادات..إلى متى..

تملكني الانفعال فلم أشعر بوجوده لاصقاً وجهه على القضبان .. ناظراً إليَّ بسخرية .. هذا المتهتك الجبان..متهكماً على بضحكته الصفراء..

– ستنتظر طويلا يا هازم..احتمالا كبيرا.. مائة عام..الجميع يعرف أن السادات يخاف القتال.

طالت ذراعي رقبته من خلال القضبان.. روحه في يدي أكاد أزهقها..و هو بوجهه المحتقن ينتفض كالفأر وعيناه الزائغتان تتسابقان ليهربا من عينيي المشتعلتين المثبتتين على وجه الرقيع.. فلا تفلتاه . فجاء صوته متحشرجا..

– ما هذا ..أتريد قتلى .. هذا كثير ..لِمَ تكرهني؟..وأنا أعتبرك صديقا..أرجوك اتركني..

– أي أصدقاء يا حقير و أنا وراء تلك القضبان .

يسعل من شدة الضغط على عنقه ويزداد احتقان وجهه ..أرفع قبضتي عنه شيئا فشيئا.. فيسرع مبتعدا.

– مالي أنا والقضبان.. أنا بيني و بينك اتفاق ..

– غور يا جبان ..

يمضي وقد تملكه الخوف والرعب والحنق عليَّ إلا أنه حاول إبداء رباطة جأش ويحرك عنقه يميناً ويساراً ويصلح من هندامه الذى اختل ويسرع الخطى مردداً..

– ساعتك سوف اخذها.. أفهمت ..ساعتك.. شاعون يد ..شاعون يد .

✶ ✶ ✶

وجبت

أهلكوني بالمحاورة والمجادلة و كأن الجميع انبرى للدفاع عنهما.

– ولم لا.. وهي مازالت .

– أعرف.. والله .

–آلا تحبى أخي .

–كيف لا..أحب عمى وجيه جدا .. لكنة سيحرمني منها..

– ولم لا تكون لك أمًّا وله زوجة..لو تعرفي كم كان قاسياً منذ فر بنا أنا وأمي وهو في السابعة عشر ..وإلى يومنا هذا لم يرتبط بامرأة ..أول مرة يتمنى شيئاً لنفسه.. مازال يعطى نفسه بالكامل للدفاع عن القضية ..كلما أتى إلى القاهرة يقابل أبا عمار..جهده و ماله تحت أمر المنظمة.. أنت تعلمين هذا ..

ولكن مالي أنا وكفاحه وحرمانه.. وهل عليَّ أنا أن أتحمل عبء ما تحمله هو..و مع ذلك وافقت على مضض ..لا بل بإلحاحهم أجبروني على الموافقة.. حتى هدى التي ألجأ إليها في كل ملمة كان لها نفس الرأي وكأنهما اتفقتا .. حتى وكأنها نسيت غياب حازم عنها ولم يبقى لها غير موضوع أمي قضية تحيرها.. مع أن خبر أسره نزل علينا جميعا كالصاعقة.. كنت أرى في رؤيته سعادة لا أعرف كونها.. إلا أنه كان في نظري مثال الرجل الكامل بكل معنى الكلمة.. شخصية متفردة.. وسيم ولطيف وحلو الطلعة..فهو الرائع في غير استعلاء.. والوديع في غير تراخٍ.. محبته في قلبي كانت من محبة هدى التي أصبحت صديقة لي ولأمي من أول يوم وصلنا.. وإن كان حزن هدى لغيابه لا يقارن بحزن أي منا.. وإن كنت لاحظت مؤخرا أن جيهان أيضا تتقد نارا لفراقه.. من طريقة سؤالها عنه وتذكره ..أتحبه هي الأخرى؟..

– ولم لا..هي مازالت..

– و الله العظيم.. أنا عارفة..ولكن ألم تكن والدتك أصغر منها .

– والدتي أحبت أبى و عاشت معه مدة..

– سنة واحدة ..أخبرتني خالتك عاليا.. وهى تقارن بينها وبين ظروف نوال الحالية..

– حقا سنة واحدة.. لكنها كانت كافية .. أبوك لم يترك لها ذكرى واحدة حلوة تتذكره لأجلها..لا تقسيْ عليها وتحرمنها من حقها في حياة جديدة قد تكون فيها كل الخير لك ولها.. هيا أقبلي وأسعدي هذه البطلة وكافئيها على صبرها منذ وقفت حياتها عليك وهى في السابعة عشر من عمرها..إن رفضت فلن تتزوجه و لكنك سوف تعيشين العمر بذنبها .. أعرفك بطبعك سخية فلا تبخلي عليها و دعيها تحيا حياة طبيعية تغافلت عنها عشرين سنة.

✶ ✶ ✶

حازم

مرت بنا الأيام بعد تناسي الصدام.. متظاهرين أن الأمور بيننا على ما يرام و أن شيئاً لم يكن. وقد كان.. أفشى إليَّ بمكان مخْبأ الممنوعات في الجدار خلف السرير تحسباً لحملات التفتيش الفجائية.. يبدو أن هيأه أحد سكان هذا الجحر القدامى فظل يتوارثه القادمون حتى آل إليَّ أنا.. آخر المنكوبين .. وعدت كما كنت من حيث الصحة و المزاج محاولا التأقلم مع تلك الأوضاع لولا بعض الأعراض الغريبة من شعور دائم بالغثيان و نوبات من القيء و الإسهال و ارتفاع

مفاجئ في درجة الحرارة يصاحبه صداع..أعزتها جميعاً إلى حالتي النفسية و رحلة العذاب ..لكن أكثر ما آلمني حال الزملاء من ضعف و هزال..و تمنيت أن يكون لكل منهم حارس مثل دنيال يبرم معه اتفاقية طعام و سلام.. فمنذ أن اتفقنا لم تعد زنزانتي تخلو مما لذ وطاب..أرغفة اللحم والدجاج الجيد الذى يعرفه خلق الله و ليس النعال.. مصحوبا أحيانا ببعض المشهيات..

وكنوع من الترضية بعد ما جرى بيننا بدأ يتحفني بأكياس اللبن والبيض والزبد والمربى.. حتى الشوكولاته و قطع الجاتوه تذوقتها أكثر من مرة و أطباق البودنج التي كان لا يأكل منها إلا قائد السجن و الصفوة.. ومع ذلك أعيش في نفق مظلم من كثرة ما قدمت من تنازلات.. ولذلك تلقيت كل تلك الهبات دون أدنى شكر أو امتنان بالمرة.. فمهما قدم لي لن يكون ثمناً لها..حتى وإن قدم السبت..مقدسهم.. والأحد وباقي الأيام الأخرى..أما هو فقد كان في ولهه الشديد بها و شوقه الجارف لها ينتظرها كالعاشق الولهان ويذكرني باتفاقنا ويكاد يطير فرحاً بها وكيف لا وهى ما هي.. من البلاتين الخالص والماس..تحفة فنية.. لم يعد يصنع مثلها الآن.. يستحيل أن تعوض.. لكن هذا ما جرته على الاتفاقيات والمعاهدات..أغراني بالطعام فأعمى بصري عن يوم السداد.

حاولت الحصول على أكبر قدر من الرفاهية من اتفاقية (هازم – دان **73**) كما ينطقها هو..في بادئ الأمر أظهر الرفض و الامتعاض ثم رضخ منصاعا لكل طلباتي من أطايب الطعام..أما في مسألة حرية التجوال أثناء فترة التريض المسموح

بها في الفناء فلم يسمح بها على الإطلاق متعللا بقانون السجن الذى لا يسمح بالحديث بتاتا بين السجناء..لولا هذا لدعوتهم جميعا لمشاركتي الطعام خاصة ضابط الإشارات كما راق لي أن أسميه.. ذلك الأشيب النحيل ذو الوجه الدقيق الملامح تغطية لحية بيضاء ..وله عينان غائرتان تبعثان على التدقيق فيه.. فما أن يراني حتى يحييني عسكريا ويبدأ في إشارته التي تتزامن مع انشغال الحراس عنه وعنى..فهو دائما يضع سبابته اليمنى على فمه ثم يرفعها ويهزها يمينا يسارا في الهواء..فبماذا يريد أن يخبرني أو يحذرني .. ولماذا أنا وحدي الذى يتبعني..لا أدرى..حاولت إدراك المعنى.. لا خيالي يسعفني ولا عقلي يلهمني.. ولكن باتت إشارته المبهمة تؤنسني وإن كدت أركن لكلام دان بأن أفعاله الغير متزنة مبعثها أن الرجل مختل نتيجة أسره على حدود الجولان بعد تحطم مجنزرته وقتل كل من معه..دعوت له بالسكينة وأصبح ما بيننا رد التحية فإذا ما بدأ في إشارته تغافلت عنها وأدرت وجهي للجهة الأخرى..فإذا خلوت بنفسي أجدني أفكر فيه وفيها وأقلب الأمر على وجوه عدة.

وبالرغم من أن محاولاتي مع دان أن يتركني أتكلم معه ولو لدقيقة قوبلت بالرفض الشديد لأن هذا يعرضه للمساءلة والضرر الذى قد يصل إلى الفصل أو الحرمان من الترقي ثم إن هذا كان خارج اتفاقنا إلا أني ظللت مع اليأس في المحاولة .. وبعدها احترمت خوفه وأمتنعت عن المطالبة بأي شيء خار ج المعاهدة ..ومع

ذلك فأن إشارات الأخ العربي جعلته أقرب صديق لي في هذا المكان الموحش..أرتاح لرؤيته بجانبي..وتد منصوب القامة بالرغم من اختلاله واحتضار ابتسامته الباهتة على شفتيه ..أراه بطلاً وفارساً وإن خلت يداه من مقدرات حياته وساقه الأسر إلى بعض الشرود والهذيان..فما الضير إن ظل هو في إشاراته وظللت أنا في الابتسام .

وضْع رأسي على الوسادة عّلي أنام ..صاحبه بعض الأمنيات والأحلام ودعاء أبي المفضل في المصائب و الأزمات (اللهم اكفني بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير) .. فغداً موعد الاستجواب وسيمل لساني من ترديد الاسم والرتبة والرقم التسلسلي..و يملوا هم من أساليب التعذيب المقنن لمن هم في مثل وضعي ويستطيع فضحهم إن هم تجاوزوا الحد..فهم من الجبن فقط بأن يتجاوزوه مع صغار المجندين وشباب المقاومة.. أما أنا فللمقايضة ولإرجاع على الأقل عشرين من ضباطهم الأسرى أو جاسوس ذي أهمية قصوى للموساد ولأمنهم القومي.. كالجاسوس الروسي الذى تجسس لحسابهم وتدرب على أعلى مستوى فوصل لرتبة عقيد وكان من الكفاءة بحيث ظل هو وشبكته في مصر خمس سنوات واستطاع تجنيد بعض العناصر المصرية ضعيفة النفوس واستغلالها لحين قبض عليه في القاهرة السنة الماضية هو وجميع عناصر الشبكة وهم يحاولون استعادته طوال تلك السنة ..فإلى الغد..إلى.. (ما هي در كات خا) و(ما هى وحدة خا) حتى تغرب الشمس.

✶ ✶ ✶

وجبت

قال لي وهو يجلس في مواجهتي وعيناة تفيض شجن وحنان وبأس في نفس الأن

– رحلة العذاب على ظهر السفينة اليونانية أنطونيا شيء يروى.. ليتك تكتبينها حين تصبحين صحفية.. كما تحبين أن تكوني إن شاء الله.. ألست تتمنين هذا.. أرأيت أعرف عنك أشياء كثيرة.. لكن أرجوك لا تنسي منها كلمة.. كنا آخر من صعد إليها.. يوم 21مايو.. كانت مزدحمة بدرجة فظيعة.. كنا نبيت في العراء على سطحها.. كان البرد يشتد جدا ليلا.. لسعته كلسعة الأفعى.. ونحن لا نجد ما يسترنا.. خرجنا من بلدتنا تاركين كل شيء وراء ظهورنا.. حتى رفات أبى وأخي باسل ما لحقنا أن ندفنهما.. جرينا مع من جروا خوفا من الإبادة الجماعية وهتك عرض الولايا..أصيبت أمي بالتهاب رئوي ماتت على أثره بعد وصولنا بيروت مباشرة.. وفي ملاجيء الإيواء رأينا الويل.. الحرمان التام من كل سبل الإعاشة.. وإن كان الجميع يحاولون المساعدة..لأتحمل بعدها المسؤولية كاملة.. الغريب أني نجحت بعد كل هذا.. كل أهل الشام كذلك ..تجار من الدرجة الأولى.. ما تزوجت أبدا .

– أعرف..

– بمعاونة السيد وديع الذي وضع ثقته فيَّ لعلاقته السابقة بوالدي ولكوني حاصلاً على التوجيهية استخدمني كمحاسب لوكالة الأقمشة والسجاجيد التي يمتلكها..و بدأت رحلة البحث عن باقي أقاربي الذين كانوا أيضا يبحثون عنا.. ولوجودنا في بلدان مختلفة توسعت أعمالنا التجارية.. وجئت مصر بدعوة الحاج عوض الله الذي كان يزورنا دائما في الصيف لتقضيته في جبل لبنان حيث لا مكان أجمل منه في الدنيا..

– حقا

– لبنان هو الجمال بعينه.. الجبل وينابيع المياه الصافية.. تعرفي.. إن أردت أن تغسلي عنقود عنب ووضعته تحت ماء النبع في أشد الأيام حرا تشققت حباته من شدة البرودة ..هناك كل شيء هاديء وبديع .. خضرة تكسو المكان وأزهار أشكال وألوان.. وفاكهة كثيرة وينابيع متشابكة وأشجار الأرز.. بالفعل جنة..

– حقا..

– نعم.. تخيلي زوجه الحاج عوض الله كانت تتهمه أنه متزوج هناك لكثرة رحلاته الصيفية .. ولكنه لم يكن يأتي إلا للتجارة وللتمتع بهذا الجمال الخلاب الذي لا يمكن لمن عاينه مقاومته وعدم الرجوع إليه لمشاهدته.... كان لا يصعد الجبل بعد عناء العمل إلا وأنا معه.. وطلب من وديع أن يتركني آتى مصر..أم الدنيا.. بعد ما أحبني كابن هو الأخر كوديع ووثق بي.. و قال ستجد فيها فلسطين أخرى.. لا لجوء ولا غربة.. بل ستكون صاحب بيت أكثر منا.. وبالفعل وجدت ما قال وزيادة حتى أصبحت رحلة الشتاء لمصر فيها كل السعادة وخاصة احتفاء عائلته بنا وزوجته التي أطمئن بالها برؤيتنا و بوقف الحاج لرحلاته المشتبه فيها..

– جيد ..

– وصادفت خالك إبراهيم الذي كان مسؤولا عن حسابات الوكالة و صادقته وتآخينا ..أحب درة من أول نظرة..على أي شيء..لا أدري .. هاها.. ولكن هكذا..وتزوجها.. لأبقى أنا وحيدا.. عندما رأيت أمك.. شعرت أن ليس غيرها مناسب لي.. ولكنها كانت ترفض لأجلك.. وقتها كنت لازلت صغيرة.. فعلا هاجر سيدة عظيمة.. ومتفانية..

– فعلا..

– ومع أن الحاج عوض الله كان قد عرض عليَّ أبنته الكبرى إلا أني ما أردت غير أمك زوجة.. ولا أريد غيرك لي ابنة.. مع درة.. وها هي درة موافقة.. بقي أن توافقي أنت.. فهل أسمعها..

وافقت لا أدري ..من إلحاح أم من اقتناع أم من شفقة .. المهم أني وافقت بعد حديثه معي في نزهة طلب من أمي أن نكون فيها وحدنا معه أنا ودرة.. في فندق الهيلتون جلسنا ساعتين.. الكل يعرفه حيث ينزل دائما عند حضوره للقاهرة.. يعاملونه باحترام وتوقير مبالغ فيهما.. وهو للحق رائع جدا.. عمي وجيه..اسم على مسمى.. إن قارنته بأبي .. أبي يصبح في ذيل القائمة.. بل أن عمي وجيه يجعلوه خارج المنافسة.. غاية في الأناقة والوسامة.. شارف الخمسين ولكنه شباب بروحه العذبة وتصرفاته التلقائية اللطيفة.. طويل.. بياض وجهه منير..شعره كالفضة.. وله ذقن مهندم تزيده جاذبية..شعرت بفخر وعزة وأنا أجلس أمامه والكل في خدمته ويسعى لإرضائه..بحديثه الممتع جدا وحكايته عن طفولته وترحاله وتحمله المسؤولية وحمله الأمانة تجاه كل من حوله وكيف جعل من لقب لاجئ منارة يهتدي بها أصحاب المصائب والظروف الصعبة بعدما كان اللقب سبة ومعرة.. وفي مقارنة سريعة بين تلك النزهة وأول نزهة لي مع أبي وأنا في التاسعة.. وكم بكيت فيها بشدة لإحساسي بالغربة ولمعاناتي مغصا شديدا ولكني كنت خجلة من أن أخبره..فكيف أخبر من أراه لأول مرة.. ومن يتهكم على طوال الجلسة.. على شكلي و مظهري وعلى أمي وعائلتها.. ظانا منه أن ما يفعله يضحكني ويجعل النزهة مرحة.. في حين أني كنت أريد تركه والمغادرة بأسرع سرعة.. لهذا كله أبديت الموافقة لعمي وجيه خاصةً بعدما وعدني ألا يأخذ أمي معه بصفة دائمة

لإنجلترا حيث مقر أولى أكبر شركاته للاستيراد والتصدير وأنه سيدعها تأتي إليَّ كلما سنحت الفرصة.. وهو من سوف يأتي إلينا و يجعل زيارته لمصر مقسمة على طول السنة بحيث لا نفتقده ولا يفتقدنا..

ـ ما أسعدني عند عودتي أن تكون في انتظاري.. الناس تتعب حتى يكون لهم ابنة مثلك..في خلقك وتربيتك..وها أنت ابنتي من دون أدنى تعب..لكن أعدك أني أنا الذي سوف يتعب من أجلك كل الباقي من عمره حتى يستحق مثلك ابنة.. هيا بنا لتبشري ماما.

✶ ✶ ✶

حازم

مع مرور الأيام ورفضي التام لجأ أبناء الأبالسة معي بعد ذلك إلى أغرب حيلة لتحطيم الأعصاب بعد استنفاذ كل مخططات الضغط والإرهاب ويأسهم من أن أدلى بأي معلومات..أخضعوني لما لم أتحمله فلي ضعفى و قلة صبري وحدود لاحتمالي.. وجه آخر لما فيَّ من قوة وصلابة وعنفوان .. فانهرت .. لكن حتى في أشد لحظات الضعف كان عقلي يرسم لي حدوداً للانهيار كي لا أتجاوزها باختياري أو بالإجبار.

الحبس الانفرادي مع صوته المتكرر بلا انقطاع المنبعث من ميكروفونات زرعت بكل الأرجاء ليل نهار لمدة ثلاثة أيام في غرفة منعزلة بلا أثاث يغطى أرضيتها الماء وضعني على حافة الجنون..(أرفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد

الاستعباد)..وهكذا نهار وليل.. لا اعرف ما الذى دمر مقاومتي أمام ترديدها المستمر.. ما الذى جعل الدم يغلى في عروقي..أريد الاشتباك.. لا أدرى..فتهكمهم عليه لم يعد يجدي ..فالرجل مات.. وغريمهم اليوم السادات.. ومع ذلك مجرد ذكره يقلص أمعاءهم و يخلخل أوصالهم ويعيدهم إلى الشقوق كالحشرات .. لأنه مات بطلا وزعيما وعملاقا عربيا وضع رؤوسهم جميعا تحت الحذاء..وأصبح الكابوس الذي لا يفارقهم لا في الصحو ولا في المنام .. ومع ذلك لا أدرى لماذا لم أستطع الثبات أمام هذه الطريقة النفسية من طرق الموساد.
ما كان أسعدني وأنا لا أجيبهم على أي سؤال.. فنزداد عداوة وبغضاء وعداوة العدو أعلى شعور بالاحترام للنفس والعلياء .. لكن كان عليَّ الآن أن أدلى ببعض المعلومات كما هو متفق عليه بيني وبين قيادتي إن أنا تعرضت للخطر لأنها تغيرت بالفعل منذ مجيء. لكن ظل أمر المبنى الجديد بجانب المطار نقطة الخلاف بيننا..ولكن مع كثرة المحاولات وفشلهم في استخلاص أي إجابات أخرى أيقنوا أن لا فائدة من الانتظار وباتوا هم المتلهفين لإرجاعي واستلام جاسوسهم الروسي .

وها هي المبادلة التي تسربت إليَّ أخبارها عن طريق دنيال باتت وشيكة.. غير أن اعتلال صحتي سرق مني فرحتي بتلك الأخبار.. ورؤية أبي بالأمس في ذلك الحلم..يخرج من الماء ومعه ماجد وهما بملابس الإحرام ويردد (بعد شهر من الآن)..بشرني بشيء سوف يحدث يؤجل تركي لهذا المكان .

✶ ✶ ✶

يوسف

كان دائماً ببابه المفتوح ليل نهار لأي صديق أو حتى غريب بلا أدنى تدقيق بمن سيرحل ومن سيبيت يجعل منه طريقاً أكثر منه بيتاً .. وعبد الكريم في خدمة الجميع بلا أدنى تزمر ولو قليل..كان هذا هو دائما حال السبيل.. أما هي فقد جاءت ليلتها مع هدى و جلال .. تتوق لحضور ندوة شعرية ولها فيه بعض المحاولات .. شابة صغيرة كل ما يميزها الطيبة والذكاء .. ليست فاتنة الجمال ولكنها حالة .. تشد انتباه من يراها .. تجعله يود الاقتراب والحديث لمعرفة المزيد عن تلك الدعة المتحركة على أقدام .. أجمل ما فيها عيناها..متسعتان بدرجة تشعرك أنك تستطيع أن تروح وتجيء فيهما ببراح .. ووجهها المستدير وشفتاها المكتنزتان ونظرتها التي تشعرك بالراحة والأمان .. لولا ملابسها العصرية لقلت إنها فلاحة وفلاحة أصيلة من عمق الريف أو من أقاصي الصعيد .. ليجيء سلامي على جلال حاراً ككل مرة فهو صديق من قبل أن يكون قريب لكمال صديق الطفولة..فداخله نقاء قلما تجده تلك الأيام وشعاره المستديم.. الفن ينقصه الكثير إذا فقد المحبة والخير والإنسانية.. فلا يسع المرء إلا أن يحبه ويحترمه ولا يكن له أي عداء..فهو صديق للجميع كعبد الكريم ولكن بانضباط.. كل شيء عنده بميزان..يعطى كل شيء حقه ويجادل السفيه على قدر عقله.. فإذا جاء نصبوه الرئيس..فيفسح المجال أمام الجميع مع سيطرته التامة لمنع الانفلات فتدار الجلسة العادية لمجموعة من الأصدقاء كندوة على أعلى مستوى من الرقي الحضاري والثقافي والاحترام . أجابت سؤالي خجلة..

– وجبت .

– نعم .

– أسمى .

– حقاً.. لماذا؟.. أقصد جديد.. ما يعنى..أقصد جيد.. أقصد من؟..

– جدي .

– والمعنى .

– الجنة وجبت لمستحقيها..وكذلك النار ..فأيهما تختار؟..

– الجنة بالطبع .

– إذن .. وجبت .

– يوسف صدقي.. كاتب قصة..وفى المستقبل صحفي.. أين تدرسين؟..

– سياسة واقتصاد ..

– تكتبين الشعر .

– محاولات .

– أذن سأراك كثيرا.. أسمعيني .

– ليس معي شيء منه الآن .

✶ ✶ ✶

حازم

من الذى وضع فكي بين الرحى وقال اطحني..نمر جائع يفترسني.. رأسي بين أسنانه كالعلكة يلوكها..لكمات بطل عالم للوزن الثقيل تتوجه لفمي. على وسادة أسمنتية الهوى..كالبندول تتحرك رقبتي..تلتقط عيني خيوط الفجر من الشباك الحديدي والنور الزائر يؤلمني... أحاول رفع رأسي.. الاعتدال في جلستي..أقوم..

أمشي..ما جرى لي في ليلتي السوداء فصبحني صباح الضنى.. وجعلني آتى بأفعال المجانين من قيام وقعود والتفاف حول نفسي.

ليالي وهو يمتطى سيفه الناري.. متآمر على رقادي.. طعناته التي أخذت بتلابيبي لم تجعل لي مجالا للشك من أنه لابد من وضع حد لهذا الهم كي أرتاح وأستمر.

منذ عرفت معذبي وتحسسته بين أصابعي.. زادت لكماته شدة وصفعاته التي تبرمت منها باتت كالمدية تطعنني..فتراجعت مذعناً وكففت عنه يدي وجلست وأغلقت فمي .. لأبيت به وأصحو.. لغم في الفك يلازمني .. فتيلة بأيديهم .. أحاول تناسيه فإذا بمطرقته على رأسي تتزامن مع دقات قلبي. وكسابقتها من الليالي..أفقد بغيتي ..نوم استملته بشتى الطرق..فما أشقاني بيقظة بعد منتصف الليل بألم يكاد يذهب عقلي. فمن اعتاد الصراخ ليلا..لا خيرا يرجى منه في الصباح أبداً.

ليل مؤرق وصبح منهك وعذاب لا يريد أن يمضي أو يتحرك..من حين لآخر يستدعى حمى ترعدني .. تورم خدي أضاع ملامحي .. وتغافلهم عنى اضطرني لإحداث جلبة شديدة بضرب القضبان بقبضة يدي.

وبات العلاج شريطة الإجابة .. رفضي بإصرار خفض الضريبة..سؤال واحد لا غير.. ما المبنى بجانب المطار.. كيف حقا لم ألتفت لهذا البناء..وهم لم يعلموني بشيء هناك.

أقلقني ما سوف يمارسوه عليَّ من صنوف الضغط والتعذيب.. فعلى وحدي فض

الاشتباك.. صلاة .. دعاء.. رب افتح لي باب ..
وأراحني الصيام حتى ظن أني ألغيت الاتفاق..
– للمرة المليون الساعة لك لا جدال.. كفاك إلحاح وأرتجع عنى الآن وأحضر الملح .
استخدام الملح كمضمضة أراحني بعض الشيء من الاحتقان لكن الألم مازال والصداع وهو بهذا سعيد ويتمنى لو يزيد..يثلج صدره أنى أعاني وبتشفٍّ ولؤم يتابعني وبحديثه يضجرني..
– لماذا تصر..هم يعرفون كل شيء سواء أجبت أم أبيت..تعرف عظمة الموساد..هم هناك لم يفكروا فيك.. حتى المبادلة يؤخرونها..لن يعرفوا صدقني كل مَن أتى أجاب .

استمراري في النظر إليه بقرف واحتقار من دون رد اجبره على تركي.. ليمضي مطأطئاً الرأس متمتماً..أنت حر.. أنت حر..
آه ..ما أعذبها من كلمة و ما أروعه من وصف.. أنت حر ..خاصةً لإنسان إذا كان في السجن ..لله..أنت حر .. نعم.. أنا حر ..أنا حر.. أدهشني أسرة و هو خارج القضبان..دائم الانكسار.. ذليل.. مسلوب الإرادة.. مقهور ينظر إلى من أسفل وكأني عملاق أو جبل يتوقع سقوطه عليه. حتى أني أحيانا أشفق عليه وأكلمه.. وأكاد أربط على كتفه كي أطمئنه ..لكن حسده الدائم لي يقتله..وجبنه يذهله .. مرتعب..مرتجف.. متلصص دائما.. خائف مني ومن رؤسائه ومن الحياة ومن الكون .. قدماه غير ثابتتان على الأرض.. متأهب دائما للفرار وكأن وحشاً يجري وراءه أو به مس من جان .

شعوره بالدونية يضنيه ..وتوجسه من الجميع يذويه.. يحسب كل صيحة عليه..ضائع ما بين حزب شاس وحزب المفضال..فما أتوا بمثله إلى هنا إلا ليكونوا خداما .. أصوله المجرية لم تشفع له.. نزوح عائلته للمغرب ثم لمصر هربا من النازي وقصص البطولة الوهمية التي يقصها عليَّ من حين لحين والأهوال التي يدَّعي أنهم لاقوْها لا تضفي عليه أي وقار أو احترام..ولم تجعل له جذوراً أو تاريخاً .. ولا حق في اغتصاب وطن من ساكنيه ..كلهم كذلك .. رعاع.. حثالة الأرض..وخبثها.. لا دين ولا مواثيق ولا أخلاق..ترقبهم ضربة الإفناء تزيدهم توحشاً وإجراماً ..

يقينهم من التشريد والزوال يجعلهم سجناء الخوف والرعب من متى يطردون من ما ليس لهم بحق.. أما أنا .. فحر.. ما أجمل أن تكون صفتي الحرية وأنا في الأسر.. ديني وعروبتي وقوميتي يعطونني هذا الحق..النسر المصري الذى أذاق مدرعاتهم الويل بطلعاته على الضفة الشرقية للقناة.. مازال طليقا رغم القضبان ومازال حراً..

تفاؤلي الآن يشعرني وكأني عدت إلى البيت .. وعدت إلي حضن أمي.

أفكاري المتلاحقة كالسيل أجلستني على الأرض..علَّي أهتدي لشيء.. حين وقعت عيني عليه عرفت فيه الحل ..ثواني القرار أشعلت فتيل الخطة..وعملية الاغتيال احتاجت رباط البيادة.. سلاحاً للمعركة.. تحسباً للانفجار.. في ثوانٍ ..طرفه حول

رقبتي والآخر حول ساقي المثنى .. ببسم الله.. وللأمام بقدمي.. وبكلَّ ما فيّ من قوة وعزم وأمل في الخلاص ..أمضي..

ليعيدني تصادم وجهي بركبتي الذي جاء كالبرق الخاطف للوعي الذي كان تقريبا قد غاب عني.. لتأتي صرختي بشعة .. مدوية.. لكنها أنسب موسيقى تصويرية لتلك العملية الانتحارية.. تاركاً ورائي المسكين غارقاً في كم هائل من دمائي الحارة. فكلانا قتيل ومقتول بالمبادلة..

ولأن لكل ثورة ضحايا وأشلاء ..لم يرحل المأسوف عليه وحيدا بل أصر على اصطحاب جزء لا بأس به من عظام فكي المنهار من شدة الجذب ..مخلفا ألما شديدا لا يمكن مجابهته أو الاحتمال.. لوقف سيلان الدم ما وجدت غير منديل طرزت علية هدى أول حرفين من اسمى بلون السماء.. لمعرفتها مدى حبي لهذا اللون .

برحمة من الله وفضل.. غفوت جالسا..مستندا إلى قائم السرير الحديدي بظهري.. والبيادة ورباطها بجانبي..أضعف وأغرب وأصلب خط دفاع صادفني ..

ضوء الفجر الذى غمر الغرفة ملأني تفاؤلا وبِشْراً..في حين كان واقفاً أمامي مرتجفاً.. مذهولاً من منظر الدم متسألا..
– آي معركة تلك

– تخلصت منه

– كيف

بعدم تصديق ينظر إليه.. معلقا في مشنقته على طرف السرير كي يراه كل من يمر وبكل الحسد يؤدى التحية العسكرية للقائم كالنصب.. ما كانوا يضغطون به عليَّ أضحى الآن مقاماً يزار.. ودعماً لي من ذي قبل..

– أشهد أنه لا يقف أمامك شيء

– كلنا كذلك

– حقيقي.. لا أصدق .. تبالغ

– لأنك ضعيف ورخو..أنا أتكلم عن الرجال بحق..

..أول شهادة حق من فم هذا الكذوب .. خلاصة أهل الإفك.. داء متأصل ..إلباس الباطل ثوب الحق وإنكار الحق حتى ولو كان كضوء الشمس .. نحن حقا لا يقف أمامنا شيء.استعدت عافيتي والنوم.. لكن شهيتي تضاءلت أمام نوبات الصداع والغثيان والقيء.. لم أعرف ما الذى يتلاعب بمعدتي.. فأوزعت الأمر كله لحالتي النفسية و رحلة القهر ..وليظل يقيني دائما أن كل شيء بقدر.. ولأظل أنهر إلحاح خاطر مستمر.. لماذا صبرت عليه كل هذا الوقت في حين أن خلعة جاء ببساطة شديدة و كان فيه الحل.

✶ ✶ ✶

هدى

لولا خالتي لقذفه بمحارة البحر ذات المذنبات التي بيده فهو يمتاز بثقل ظل ما أتيح لغيرة . فمه منجم حمم قلما يسلم منه أحد و يدس السم بين حروفه بدأب.. كثير اللف والدوران يزين الباطل و يجهض الحق كالعمليات التي يجريها في عيادته الشعبية وستكون سبب شطبه من النقابة إن شاء الله يوما ما. يتباهى بما ليس فيه فإن لم يفعل يصبح كالقط الأجرب يتكور في الركن ويصمت .. طوال الجلسة يتحدث عن مزاياه و كيف أنه البطل الأوحد..هازم الأمراض مداوي الأعراض مع أنه حاصل على البكالوريوس بتقدير جيد بالكاد.. يرى نفسه أستاذ الأساتذة و عالماً أكثر من العلماء الكل يلجأ إليه في حل المعضلات و تذليل العقبات وعلينا نحن أن نتحمل هذا الهراء أكثر من ثلاث ساعات كل بضعة أيام بحجة الاطمئنان علينا..أجارنا الله من زياراته و هون علينا حماقاته في هذا الجو الخانق الذى يتكاتف هو و شهر يونيو على خلقه من حولنا. ويسأل جلال متحديا متنمرا.

– و ما أعمالك الجديدة أم أنك عدت عاطلاً .

– أحضر عملا لدعم روح الصمود و يلقى الضوء على حالة الاستنفار العام وحرب الاستنزاف.. الجيش يقوم بدور بطولي هناك على طول خط الجبهة..أم أنك لا تدري بما يدار .

– وما دخل الأدب و الفن بالسياسة والحرب .. ما أعرفه أنا أنكم فقط للضحك والفرفشة و تسلية الشعب.

– أعتقد أنك لا تعرف شيئاً..الأدب ليس كله بلاغة يا دكتور لكنَّ جزءاً كبيراً منه تربية لمن يفتقدها .. الفن والأدب .. المفضل دائما.. على العلم هما أساس نشر

الوعي و تنبيه العقول لموضع الداء ليجد له المتخصصون حلاً

– أولا و أخيرا الأدب و الفن ..هو لعب ..لا أحد يصدقه أو يجعل له وزناً.. أليس كذلك يا هدى..أظن أمثالنا ليس عندهم وقت يضيعوه في هذا الكلام التافه.. الفارغ ..

– الدنيا من غير أدب أو ذوق لا تعاش يا دكتور مجدي .

كاد يقتلني بنظراته الحانقة . بإجابتي خذلته و حجَّمته و أعيده لأرض الواقع منصاعاً فلست أنا التي يمكن أتوقع نفسها في شباك هذا الثعلب الغبي ينصبها حولي منذ فترة بنظراته الهائمة و تلميحاته التي يحسب أنها تؤسرني و لكن كلها مكشوفة بالطبع عندي ومع ذلك لا يرتجع و لا يرتدع و يعدنا وهو يودعنا بزيارة قريبة كعادته .. بالطبع فقد وجد في بيت خالتي المستوى المادي والاجتماعي الذى ينشده ولذلك وثق علاقته بحازم وحاول التقرب لنوال بعد خطبة نجوى للدكتور شوقي حافظ مدرس التاريخ العبري بجامعة القاهرة لكن نوال كانت من الذكاء بحيث فطنت مبكراً لطبيعته الطامعة فتجاهلته ورفضت تقربه وقبلت بمصطفى الآياتي ضابط المدرعات وصديق حازم خطيبا لها .. كان كاملا شكلا وموضوعا وبجانب أخلاقه العالية كان يحبها لشخصها بصورة مذهلة .

كانت نظرته لي حينها أنى مواطنة من الدرجة الثانية .. فصنفني بحسباته المادية درجة ما بين بنات خالتي والخادمة. طبعا.. اليتيمة التي تربى في بيت عمها و لم ترث من والديها شيئا يكون سندا لها..تلك النظرة تغيرت تماما بعد تفوقي و التحاقي بالكلية و بعد أن أورثني عمى مالا كابنتيه بوصية.. بعدها فقط بدأ في

سعيه الدائب لخطب ودي .. فما وجد غير جدار عالٍ ساهم في إعلائه بتشككي الدائم في نواياه وتكذيب كل ما أراه منه و إن كان يسعد أي فتاة .. فهو خبرة في معاملة النساء و اقتحامهن في ثوان.. فما أن يراني حتى يتملقني و يرفعني بالمديح في أخلاقي و خُلقي ويمتدح جمالي وقدري و المستقبل الباهر الذى ينتظرني ..فكان علمي التام بأنه يفتقد العاطفة الصادقة نحوي كان يصمُّني و يغلق من دونه حواس سمعي .

عاش يعانى مما هو في عين العاقل ليس بعيب..إلا أنه وجده عارا لابد أن يتبرأ منه .. فأسرة بأبنائها السبع استطاع فيها الأب ذو الراتب الضحل أن يعلم ويربى كل هذا الحشد لعمل يستحق الفخر.. شظف العيش ظل يشعره بالنقص وزاد شرهه للمال فإذا ناله.. بخل به.. فصاحب حرصه أنانية لا يضاهيها في خلقه شيء حتى أنه بعد تخرجه رفض مساعدة والده ..طامع فيما عند الغير .. وما له بحق وما ليس له بحق..ولذلك لم تسلم سيرته من بعض أعمال النصب كاقتراض المال والفرار لحين ينسى الأمر.

من بهذا الطبع كان ولابد مضحياً بحبه لابنة عمه وابنة عمتي في نفس الوقت.. فوالدها مدرس الرسم كان بالكاد يستطيع تلبية مطالب أبنائه الخمس ولولا عمتي وما لها في الاقتصاد والتدبير والصبر و مساعداتها إياه بميراثها عن جدي فلم تبق منه شيء في سبيل أن يمضى هذا الركب ما استطاع أولادهم الحصول حتى على التعليم الابتدائي..فلم يفِ وضعهم هذا بطموح مجدي كي يرتبط بسعاد التي ظلت

تحييا على أمل الارتباط به طويلا..بل هجر زيارتهم مردداً ..

– المسألة ليست ناقصة فقرا .

إلى أن تزوجت سعاد بمدرس كان تلميذ أبيها و لكنه مدرس كيمياء فأتاح لها بعض الرفاهية من عائد المراجعات والدروس الخصوصية. عندما أخبرتني بسعيها هي وزوجها للتدريس في الكويت أو السعودية تمنيت أن تحقق كل ما تتمنى .. أمَّا هو فمازال في سعيه الدائم وراء من ستفتح له بمالها أبواب السعادة وترتقى به درجات وليس درجة.

✶ ✶ ✶

حازم

ليسو كأي يوم..حالة من التعالي و الزهو..وصوت غناء من مكبرات الصوت وأمر بالخروج للفناء مع أنه السبت .. أعرفه حين ينحشر في حلقه شيء.. صوته الرقيع لا ينكر محاولته استدراجي للحديث بخبث..

– ما أجمل اليوم ..

– حار وخانق ..لا يطاق..(زفت) ..

– كيف الجو رائع .. لماذا تشعر بالضيق ..

– لأن أيامكم كلها (هباب) ..من يصبح ويمسي على وجوهكم لابدَّ أن يستاء ويغتم .

– لا..لا.. لتتفاءل يا كابتن .. آلا تعرف ما اليوم ..

– عيد ميلادك.. أم عيد ميلاد أمك ..

– أهم بكثير .. خمسة يونيو ..

..آه يا ابن.... يا قذر .. كالمطرقة على الرأس..أو تفريغ صاعقة بالجسد.. لم أحسب أيامي هنا..كان المهم أن تسرع الخطى وتمر..لكن أن يأتي هذا اليوم .. آه يا أبن العاهرة..أهذا الذى من أجله تلف وتدور من باكر لتخبرني به.. ألهذا يا أولاد الشياطين تختالون مثل الطواويس..تاريخكم الطول الموشى بالتآمر والدسائس ليس فيه من النصر إلا النذر اليسير.. لولا خمسة يونيو ما كنتم شيء على الإطلاق ..آه يا أبناء .. تتغنون بالنصر على مصر وناصر الذى كان رباط حذائه برقبة كل من في جيشكم من ضباط وجنرالات وبرقبة كل شعبكم المختار .

في الطريق للفناء.. يعلن عن سروره بالتمايل والغناء..وأنا أغالب كمدي والبكاء .. وأتمنى قتله أو حرقه كما أحرق قلبي.. متى يمحى هذا اليوم بانتصار..متى يعاد ترتيب الأوراق بمواجهة حقيقية مع أولئك الأوغاد..الرجل منا بمائة منهم أو مائتين..قلوبهم هواء.. نفوسهم جلبت على الوهن والجبن..لو نفخت في أحدهم

لسقط قتيلا من الرعب .

.. بصرخة عالية فيه وكأني سأغتاله من الخلف.. قفز الغراب المتبختر أمامي منتشي ومتفاخر ومعتز .. قفزة عالية في الهواء .. لينبطح بعدها باكيا على الأرض .. ما أغرقني من جبنه في استفاضة من التشفي والضحك .

في الفناء كان العزاء.. وكأنه الحداد على أغلى الأبناء يوم العرس..بؤس ونحيب صامت .. فلكل منا جرح .. إذ كنت آخر الحاضرين جلسوا عند انضمامي إليهم جلسة التشهد على الأرض .. قراءته لبعض آيات القرآن أشعلت فيهم الغيظ .. أه .. لضابط الإشارات حلاوة صوت تنساب من بين شفتيه الآيات كالماء البارد في هجير الصيف وكأني أسمعها لأول مرة وكأني لم أفقها من قبل.

ٹ ڈ ڇ ڍ ڇ ڇ ڤ ۍ ې ې □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ ى ى ې □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □□ □ □ □ □ □ چ المائدة: ٦٤
ٹ ڈ ڇ ڍ ڇ ڇ ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ
ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ چ آل عمران: ١٨١

لم يدعوه يكمل و انهالوا عليه ضربا وهو كالصخرة في وجوههم من صلابة ورباطة جأش وقوة .. بعد إبعاده رفعنا جميعا أيدينا إلى السماء بدعاء خفيَّ إلا أنى خالفتهم برفع صوتي شيئا فشيئاً وصوتي ينضم إليه في كل لحظة صوت .. بدعاء أبى الدائم

المستمر (اللهم بأنك أنت الحق..أهزم أهل الكفر والشرك).. لإسكاتي نلت ما نال صاحبي .. الصخرة.. كما سوف أسميه من اليوم وإلى أخر العمر.. وساقوني إلى الزنزانة بالقوة ..ولكن بعد هدم حلمهم الواهي في احتفالهم بذكرى لن تتكرر أبدا بأذن الله بعد اليوم .

✶ ✶ ✶

هدى

خرجت من غرفتها هي وصغيرتها لترحب بجلال بعد تعطف مجدي علينا بالمغادرة بعد زيارة من زياراته المتكررة التي تضفي علينا سحابة قاتمة من عدم الانسجام وقلة الراحة..فنوال لا تطيق رؤيته أو محادثته خاصةً بعد ما أصبح لها وضع خاص بعد استشهاد مصطفى..أقرب ما تكون شبها بأمي وسيرتها. فأسرع جلال بالتقاط الصغيرة ومداعبتها وإخراج هداياه المخبأة لها ككل مرة.. ويرفض رفضاً باتاً أن ينزلها عن كتفه ولو بإلحاحنا حتى لا ترهقه. أحبها وتعلق بها وأصبحنا لا نرى ابتسامته العذبة التي حرمنا منها طويلاً إلا لها..تلك الزهرة التي أودعت حضن الأم والجدة بعد استشهاد أبيها..مثلى يوم جئت الدنيا.. فمصطفى الآياتي ومحمود الجيوشي وجهان لعملة واحدة.. فقط بينهما أثنتان وعشرون سنة ..عند الباب أداعبه باسمة لأخفف عنه فراقها..

– أنستك رضوى الدنيا

– لا أريد تركها

– من يدرى قد تصبح أبا لها

– لقد هرمت يا هدى

– لا تقل هذا .. ما نتيجة آخر تحليل

– سيئة

– ما هذا الكلام ..أرجوك اعتنِ بنفسك ..سأحجز لك عند الدكتور مؤنس.. إياك ألا تأتي.. ما الذى حدث لك يا جلال .. قول لي..

– هو ما حدث لنا جميعا..انظري لنفسك ولنوال وخالتي.. أين حازم يا هدى.

لم أتمالك مشاعري ..فسقطت دمعة رغماً عنى..ولم أخجل من حقيقة كان هو أول من عرفها.. نبتة لم تورق بعد ..لولاها ما أوأد مشاعره تجاهي..فلا ضير إن رأني أبكى حب من لا يدرى .

– أعرف ما تعانين ..سيعود قريباً..تجلدي .. حاولي أن تأتى الندوة لأجل وجبت .. وحاولي إحضار نوال أن استطعت..لتخرجي من هذا الجو..

– لا أدرى.. قد لا أستطيع ترك خالتي في هذه الحالة..

– لأجلي حاولي..

أودعه حيرى من أمري..بالرغم من كل هذا الحب الذى يضمره له قلبي..لم أستطع تخيله زوجا لي .. فهو ..حب صافٍ أكثر بكثير أن يكون محسوساً ومادي .

✶ ✶ ✶

حازم

..لم يرفع عينيه عني.. متلذذاً بنظرة الغضب في وجهي.. فضرباتهم لي ليست أمر في حلقي من ذكرى هزيمة قلبت موازين بلدي وعملي وعمري .. حتى أنها لأمرٌّ من ذكرى رحيل أبي.. أذابته الفاجعة فوق كرسيَّه وعبد الفتاح ساجد أمامه يلطم خديه ويمزق قميصه وينبش صدره ويبكي..

– أين ابني يا عبده.. ابني أين ضيعته .. طاوعك قلبك أن تنجى بنفسك وتتركه يغرق وحده..يا عديم الرحمة يا جاحد ..

– اقتلني.. أرجوك أرحني..

– أبني يا عبد الفتاح ذنبه في رقبتك.. آه يا مجرم لن أسامحك أبداً

– حاولت أن أنجده.. صدقني .. بكل جهدي..

– كاذب.. كاذب.. كنت مت معه.. أخرج لا أريد رؤية وجهك.. آه يا مجرم ..آخر مرة عيني تقع عليك يا حشاش.. يا خمورجي.. يا ندل يا خائن .. أمنتك عليه ..تخونه و تخوني وتخون الأمانة..

– سامحني .. أرجوك ..أعطني فرصة .. من غير قصد حصل اللى حصل..أنت عارف كم كنت أحبه ..هو ليس أبنك لوحدك.. هو أيضاً أبني .. وأكثر ..

– يا كداب .. يا منافق.. أبني ديته رقبتك.. أبني ديته رقبتك.. أضعتني وأضعت عائلتي..الله ينتقم منك .. أنا لا يمكن أسامحك..

.. غفلت بألم الضربات والذكريات عن من لم يزل بتشفي يرقبني..

– أليس عندك ما تفعله غيري؟ .

– كيف أتركك في يوم كهذا؟ .

– ولما.

– أخاف عليك الحزن وأريد أن أسرى عنك .

– حقاً.. يظهر إنك أبن حلال وأنا لا أدرى.

– ألست صديقي ..أنسيت اتفاقنا؟.

– هل ضروريا أن تذكرني بها كل دقيقة؟ .. فهمت .. (الزفتة) الساعة.

– موضوع الساعة أصبح مفرغا منه .. سأحضر لك اليوم بالذات حلوى كي نحتفل.

..آه يا ابن اللئيمة.. أهكذا يا كلب.. حسناً .. سأريك كيف ينقلب المكر السيئ عليك يا دنيء .. يا حشرة..

– لا ..بل أشتهي شيئاً أخر .. تعرف الاتفاق .. إن لم تلبى طلبي ضاعت الساعة .. أنت من وضعت هذا الشرط .

– وما تريد؟.

– مش .. أتعرف المش .. طبعاً أكلته أنت وأمك في مصر لما قلتم كفى .. ويا ليته طمر.. حار ونار فيكم وفي أمثالكم من الخونة.

– أعرفه لكن من أين أحضره.

– لتبحث عنه..إن لم تحضره يصبح الاتفاق لاغياً يا حلو..

– لن أجده هنا..

– إذن لن ترى الساعة حتى ينمو شاربك الذى لم ينبت بعد وأغلب الظن أنه لن

ينبت أبداً .. لآن من الواضح أنك أنثى وأتيت إلى هنا بالخطأ..

أبتلع الجبان الإهانة التي لو وجهت لطفل لسال فيها دم..لكن هو بلا كرامة وكل ما يهمه اغتصاب الساعة..هذا كل ما في الأمر .. وانصرف هاذيا بكلمات لم أتبينها..وإن دلت على ورطته التي ليس منها مفر مما أثلج صدري وأراح بالى وليعرف الابتسام لأول مرة طريقة إلى وجهي المغتم .. تلك أول لحظة رضا منذ طلع هذا النهار الأسود ورأيت وجه الشؤم.. دنيال جلبرت..الله يخرب بيته وبيت أهله جميعاً.. قاتله الله وأخزاه..أبوه البطل الذى يدعى أتضح أنه كان بلطجياً وقواداً على باب أحد البارات في مدينة كييف بالمجر وطعن في إحدى الليالي في خلاف على ثمن إحدى المومسات..أخبرني بهذا الحارس زهار المغني.. زميله اليهودي اليمنى..الذي يصدعنا ليل نهار بغنائه الهمجي..وكلماته التي لا أفهم منها شيئاً غير المناخ البدوي .. وإن كان حقا يمتلك صوتا صافياً .. شجياً .. إلا أنه يصدعني .. لفرضه علينا سماعه بالقهر وبالقوة .. وكأنه فرض يومي..والذي ينتقد الجميع بجرأة عجيبة ويعرى الحقيقة حتى ولو كانت تمسه هو شخصياً حتى أنه مؤخرا لا يستحي أن يعترف بمساوئه وشذوذه وأنه ما أتى إلى إسرائيل إلا هربا من قيود المجتمع العربي.. لكن مجتمعه اليهودي كان أشد عليه وأقسى ألف مرة.. فحرمه كليَّةً من إظهار موهبته لانحداره من أصل عربي..فما كان منه إلا إلقاء نفسه من شرفة منزله الأسبوع الماضي.

أجدني أغرق في الضحك كلما تخيلته يسبح في حيرته ويدور حول نفسه باحثا عن ذاك الذى اخترته كي أعكر به صفوه.. ذلك الموروث الشعبي .. أرى أنه بملوحته

الشديدة الدالة عليه .. كان كافياً ليكدره الباقي من يومه ويعطل احتفاله .. هذا اللئيم .. المتدني .. وفي المش مش.. إن وجده.. يبقى يقابلني..

آهٍ ..كم قتل منا في مثل هذا اليوم..آلاف من خيرة الشباب .. كثير منهم اندرج تحت مسمى الجندي المجهول.. آه يا وطني عليك.. وما حل بك ..لكن كيف.. مجهول لمن .. لأهله..لوطنه.. لربه.. حاشا لله .. يجب أن نبدل فورا هذا الاسم .. لهذا الذى كان أول الصفوف.. من ذهب وتمنى ألا يعود .

أقسم بالله إن عدت وأشهدني ربى الحرب التي أتمنى خوضها في أقرب وقت..أن أبلى بلاء حسنا وأن أعود منها شهيداً أو بالنصر .. آه.. كم يمزقني الانتظار والغضب والحزن .. متى ينتهي هذا الكابوس الجاثم على الصدر.. أريد العودة.. أريد الحرب..متى يا رب..

✶ ✶ ✶

يوسف

من معتقل لمعتقل يا قلبي لا تحزن..يميني.. تقدمي.. يساري.. آه من الجاري .. ولا حد فاهم ولا حد فاضي..الكل حامل همه في قلبه وساكت وراضى وأحزان الحاضر أخت أوجاع الماضي .

سكنى عند إسماعيل خاطر مع جموع المثقفين في شقته بأحد حواري الجيزة..التي

كانت أقرب لعنبر بالقصر العيني لتراصَّ الأسرة المعدنية فيها جانبا لجنب بعدد كبير يفوق اتساع الغرفة.. والفقر الناخر في عظام المجموعة لم يعقني من تحقيق حلمي البتة.

لإعالتنا كان يخرج باكرا ليذهب وحيدا إلى الوراق لإحضار كم من الخضار والفاكهة من المزارع ليبيعه في السوق ويرجع لنا قبل أن نفتح أعيننا بما نشتهي.. لا يتذمر.. ولا يتململ..تكفيه لمتنا .. خلاصة الفكر في مصر كانت تحت أمره .. المتلقي الأول لكل تلك الإبداعات حتى الفن التشكيلي وكأنه إسفنج ماص لكل عصارات الأدب المصري .. السمعي والبصري..حتى معاركنا الكلامية ومجادلتنا السفسطائية كان يحفظها ويرددها دون أن يعرف لها معنى .. المهم أن يظل بيننا .. من كان يرانا وقتها كان لابد وأن يجزم بأننا شيوعيون .. بملابسنا الممزقة وأجسادنا المتسخة وحالنا المرثيَّ له من قبلنا قبل أن يكون من غيرنا..كنا أكثر تشيُّعًا للشيوعية من أصحابها وإن كان أغلبنا دائما يصوم وأحيانا يصلى .

المصري يتخلى عن أي شيء إلا عن التجائه لربة .. فالدين في شريان المصري سارٍ سريان نهر النيل من الأعالي .. عباءة الدين تحمى .. عباءة قوامها الحرص والخوف على المؤمنين .. وحدودها الكون من يوم الميلاد إلى يوم الرحيل و الله في كل قلب وعلى كل لسان .. فما بال من يسعى للحق والخير والجمال .. إلا هو .. فكان حاله حالاً.. كان ينكر ويتمادى

وكلما تمادى أقلقني عليه زيادة..

– إلا الإلحاد.. كيف تستطيع أن تنام ..من أين وإلى أين أنت تسير

– زياد القاصي تركيبة لوحده .. اتركوه .. يفعل ما يحلو له ..

– وتتكلم عن نفسك بضمير الغائب وكأنك معصوم.. يا رجل أعقل.. وكفاك تطاولاً وجنوناً ..

ضحكة اللامبالاة والكفران بكل شيء حتى الحب جعله كالمعدن الصلد يجرى عليه الماء فلا يبقى منه شيء .. ومع ذلك كان فناناً وفناناً بحق .. شعره يوقد فيك جذوة الماضي ويسعر فيك الفكر. حاول ضمي إلى وحدة الشيوعيين .. لكنى رفضت .. قال .. تدفع اشتراك شهري للمسئولين السياسيين وهم يسكرون بها طوال الشهر ولا تسمع منهم شيء.. ملهاة .. لا هي قيادة مؤهلة ولا هي شحذ همة لثورة مؤجلة.. الموضوع وما فيه هو استنزاف مدخرات من هم على شاكلتنا .. تحت مسمى الثقافة حجر على الشيوعيين .. فلتكن تولستوى أو جوجول أو بوشكين ..فلتدفع..وإلا فأنت لست بفنان .. وليس لك التشبه بهؤلاء العظام .. جالستهم مرة لأملأ معدتي من المزَّة وهم في سكرهم لا تفهم منهم شيئاً ولا تدرى أهم حقا جادين ومؤمنين بما يقولون أم أنهم هازلين والموضوع مجرد أكل عيش وحرفة.. على قفا البعدة .

ليبدأ بعد ذلك مخطط التخويف..من المباحث و الأقارب والمعارف والأصدقاء ليصبح في النهاية في نظرهم كل من حولك ومن يحيطوك جواسيس في جواسيس .. بمجاراتهم كانت ستفتح أمامي آفاق كثيرة ككاتب ثوري لأن أيادي الشيوعيين كانت واصلة و مهيمنة على الانتشار الفكري..ليتضح لي في النهاية أن من كان يبلغ عنهم هم المسؤلين السياسيين أنفسهم .. ليقبضوا المال من الطرفين .. ومع ذلك كان المناخ السياسي والثقافي في مصر مثالاً يحتذي به لو قورن بما يجرى

في البلدان الأخرى .

وبالرغم من رفضي لتوحش المادة والتربح الغير شرعي وضرورة سقوط الأقنعة عن من هم ينادون بإذابة الطبقية وهم قد أثروا على حساب من هم من أمثالي من الطبقة الكادحة إلا أنى لم أكن في يوم من الأيام شيوعياً بالمرة .

أما زياد فلقد أستمر في طريقه الهمجي وفى شعره الذى فعلا كنا له ننحني .. وطاردته إحدى بنات الأسر الثرية..حسبها في بادئ الأمر به تتسلى ولكنها بالفعل كانت تحبه وتركت لأجله الدنيا حتى مال أسرتها نبذته و اعتنقت أفكاره و استمرت بقربه.. كانت إذا ألقت عليه حمم غضبها.. ألقى عليها سهام تودده.. وإذ ألقت عليه لطف المسامرة.. ألقى عليها نفوره وتمرده..كان يصف عائلتها بالاستغلال والطبقية فترد الهجوم عليه بوصمه بالسلبية و الانطوائية .. وظلا هكذا في شد وجذب حبيبان .. وصديقان.. وزوجان.. إلى أن دهمته سيارة في إحدى الليالي فقد على أثرها ساقه اليمنى ويده اليسرى.. ومع ذلك لم تتركه أو تتخلى عنه وظلت بجانبه وفى ركابه وعاد هو يصوم ويصلى ويكتب الشعر الصوفي في حب النبي صلى الله علية وسلم وآل بيته.

✶ ✶ ✶

حازم

أراه يأتي بها دون إلحاح..أفضل من بقايا الطعام القذر وحتى ما أشتهي ويحضره منصاعا وإلا ألغى الاتفاق.. فالعهود تحتاج كل فترة إلى إنعاش.. تنازلات من هذا

وبعض اللين من ذاك.. أتلقاها مازحاً..

– كثر الله من أمثالك يا سى دان .

– حقا تريد ؟

– لا قدر الله .

.. بلع غيظه وهمَّ بالانصراف..وعيناي تسابق الصفحات..علها تلقى ما يستوقفها .. لمرآها برقت عيناي.. ياه يا ميج ست سنوات .. لكن العبرية سد .. ما أعرفه منها نذر لا يؤهلني لكمال الفهم .. وبعض الكلمات طلاسم وأنا أريد معرفة كل شيء..برقة مفتعلة أناديه على أطفئ ما في قلبه من أستعار .

– عزيزي دان..ليتك تقرأ لي بعض الأخبار .

– وقت آخر .

– لماذا .

– أنسيت حملات التفتيش.. أرجئها للمساء .

..احتضنتها لساعات.. لمرآها جسدي كله عينان..لكن لما أمريكا وليس فرنسا وفيها أخوها إيلى وأختها جان .. لما صورتها بينهم وهى تبغضهم وتراهم مغتصبين ولصوص وغزاة .. فمن يعرفها مثلى.. لقد ظلمت واتهمت بالخيانة والجاسوسية وأن قربها منى لأجل جمع المعلومات عن عملي..لو كان هذا حقيقي للفت نظري ولأخذت حذري..لم تتطرق يوما للحديث عن الجيش أو الحرب أو حتى تنقلاتي لم تعرف عنها شيئاً .. من المشاهير لم تطوله ألسنة الشائعات وهي كانت بالذات الأكثر عرضة للقيل والقال بسبب روعة الجمال وسرعة الانطلاق و

سرقة الأضواء من الأخريات.

وها هو يأتي متأخرا بسماجته المعهودة ووجهه الكالح ذي الاستطالة المنفرة وعيناه البارزتان وحاجباه المنحولان وشفتاه الغير موجودتين..وكأن فمه شق مستعرض في هذا الوجه الطويل النحيل الغير مستصاغ بالمرة من أي زاوية.. بابتسامه باهتة رسمتها بالكاد من باب (إن كان لك عند الكلب حاجة).. لكن لا عاش ولا كان من يسمح لهذا الكلب الحقير أن يكون ندا لمثلى..فكيف بمن يسيدَّه .. وكيف به إن ساد..الدنيا وما فيها ولا يصبحوا لنا أسياد..أضاع الخاطر المستحيل الابتسام وتملكني الامتعاض منه ومن شكله وكدت أصاب بالغثيان وأفرغ ما في جوفي على وجهه..ليجيء صوته المخنث ليزيد من اعتصار معدتي وضجري ومحنتي.. آه.. من يمكنني من ضرب هذا البرص بالحذاء.

– ماذا تريد.. أسرع ..أريد الانصراف .

– وفيم العجلة .. أعندك موعد يا دون جوان .

– أجل وتنتظرني على نار .

– حقاً.. حسناً..فقط اقرأ لي بعض الأخبار .

– كلها أخبار عن إسرائيل .

– ولم لا..من هذا .

– موشى ويزمان.. نشر كتاباً عن الانتصار العظيم والجيش الذى لا يهزم..الجيش

الذي أذهل العالم وفاق كل تصور.

متغاضياً عن كلامة الرث وهذا الكم من التشفي والغل..فهو إن ذهب أو جاء..ما هو إلا حمار.. هكذا لقنوه .

– وتلك

– آه..الجميلة مارجريت جاكوب..فنانة مشهورة..ضحت بهوليود لتتفرغ لدعم الدولة الأم لمواصلة انتصاراتها وتوسعها وتحقيق الحلم.. إسرائيل الكبرى (من النيل للفرات) كما في العلم يا.. يشار إليهما بالخطين الأزرقين.. أكنت تعرف هذا؟.. فالأهم عندها البيت الكبير.. دولة إسرائيل ..الأمل والمستقبل وحبها الوحيد.

سحبت كلماته البغيضة الدماء من عروقي ..وذكر النيل والفرات وكأنهما رمز لدولتهم المزعومة شحذ فيَّ نصال الغضب والتجافي التي لابد راشقته حالا إن لم يغور فورا من أمامي..لكنه أكمل بتعالٍ..

– تعتبر نفسها جندية في الجيش الإسرائيلي بعد حصولها على التدريب العسكري وتعمل الآن لدى الأمم المتحدة .. فاعلة جدا في جمع التبرعات ودعم الوطن .. لولا وجودها بالخارج لرشحت للكنست.

– وبعد.. أكمل .

– سوف تزور إسرائيل أواخر العام لترى ما وصلت إليه دولتنا العظيمة ذات الحضارة العريقة والثقافة الواسعة والقوة العسكرية المتزايدة من نهضة وارتقاء وتوسع ونمو..ما هو قدر حتمي لشعبنا العظيم ..شعب الله المختار.

– كفى ..كفى لتنصرف الآن..هيا اذهب لموعدك الخاص.

لم أحتمل وجوده أمامي أكثر من هذا وأصابني الارتباك..حتى أنت أيها الصعلوك لك قلب وتحب..أي فأرة تلك التي تنتظرك باشتياق..ولكن كيف لي أن أهزأ منك وأنا نفسي أحببت فأرة إسرائيلية لا تستحق غير الحرق..آي نعم حق لكل من له قلب أن يحب ولكنى.. انكفأت رأسا على عقب وعليَّ أن أعود برأسي إلى السماء وقدميَّ إلى الأرض..حسبتها اضطهدت..حوربت في موهبتها وفنها وحاكو حولها المؤامرات فهربت..

– ما عادوا يريدوننا..هددوني بالسجن أو القتل .

– من ؟

– ضباط..أشفق عليَّ أحدهم فنصحني بأن أسرع..أمر الاعتقال مجهز .

– إذن لنتزوج .

– أخاف عليك..الرحيل أفضل حتى تهدأ الأمور..ثم أرجع .

– لا أستطيع الحياة بدونك .

– عندك عملك وعائلتك.. ولأذهب أنا لعائلتي.

– أرجوك ابقى.. أحبك.. أحبك جداً .

– وأنا أيضا..ولن أنساك أبدأ.

ست سنوات وأنا أتساءل في كل لحظة تمر بي أين أنت وكيف أنت..أبحث في كل امرأة وفتاة عنك..من لها عيناك..ومن لها وجهك..لكن تبقى أنت في القلب وحدك..لم تستطع إحداهن زحزحتك ولم أسمح لإحداهن بفرصة من عندي ..

كاذبة .. مخادعة.. إسرائيلية..كلبة..لتموتي..لتهلكي يا من كنت تسعى بتدريبك في جيشهم وجمع التبرعات لهم لقتلى أنا وزملائي..من اليوم أنت العدو ككل مغتصب وكل محتل. أوهمتني بكرهها الشديد لإسرائيل وفكرها الاستعماري..

– قضية الفلسطينيين تذيب قلبي..يجب أن يقف العالم بجانبهم..

– كل من يعرف الحق والعدل يدافع عنهم

– أكثرهم ..جمال..

– الذى لا تعرفيه أن دخول العصابات الصهيونية فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى كان السبب الرئيسي في قيام الحركة الوطنية في مصر سنة**1936**..عمى محمود كان زميل جمال واستشهد في حرب سنة **1948** .. فلسطين قضية كل المسلمين.. ويوما قريبا سيعود الحق ويصحح الوضع .

– طبعا.. طبعا.. هذا ما أتمناه أنا أيضا.

وها أنت لم تحفظي لي عهداً بل أساسا لم تبرميه..أنا وحدي الذى تخيلت أن بيننا ميثاقا تجاهدي كي توفيه..أنا وحدي الذى عاهدت ووفيت انحنيت وقبلت الأقدام والأيدي كي ترضى فإذا بي أهون عندك من أن تفكري لحظة فيما جرى لي..وداعا أيتها الحية ويوما ما سأفصل رأسك عن جسدك جزاء ما فعلت .. كوني واثقة.. فهذه كلمتي وذاك عهدي..

وجدتني أريد الانفراد ..لألملم نفسي.. أبكي أم أضحك من جهلي وأنى أضعت الكثير من عمري في شيء وهمي..من أعطيتها كل ألقاب الهوى..وصرت بعشقي وهيامي أتلوى.. آهٍ .. كم تعبت منى ومنك .. وكأني صعدت جبلاً وهبطت ..

رحمني خروجه المتعجل على غير عادته من التلكؤ و التطويل في الكلام .. لأردد بيني وبين نفسي .. ميج اسم كاذب لقاتلة إسرائيلية محترفة الإجرام تمد قاتلينا بالسلاح والمال..حتى وكأنها لم تعش يوما على أرضنا .. فكلهم مهما ادعوا.. إسرائيليون بالمواطنة وولاؤهم لها وإن ولدوا بالصدفة في غيرها.. ما أشد غبائي .. آهٍ ..غلبتني عاطفتي استبدت بي الأحلام.. حتى أنى لم أصدق فيها حديث أمي..

– كيف تأمن من له سم وناب ألا يلدغ حتى ولو كان في عناق.. الطبع الغادر متأصل فيهم منذ الأزل والكذب والنفاق.. يا ابني الطبع غلاب .

– لكن هي غيرهم .. حتى أنها تكرههم.

–كلهم صنف واحد .. ألم تخن صديقتها .

– الصحافة ظلمتها .. هو الذى أحبها .

– يا ابني لم يسموها العقربة البيضاء من قليل..تزوجته ليفتح لها كل أبواب الشهرة .. فلما أفل نجمه طردته وشردته واستولت على بيته.

– هو بالفعل بيتها ..قالت باعه لها.. اسألي جلال .

– لن أسأل أحداً.. أسأل عقلي.. هي كاذبة ..أإذا قالت إنها اشترته صدقناها.

– والمستندات..

– الرجل قال إنها مزورة..امرأة لعوب مخادعة..أنت مازلت صغيراً لا تعرف شيئاً .. وهى لها خبراتها وتجاربها..بنات الناس الطيبين كثير يا أبني..و يملؤا الدنيا.. أختر لك واحدة .. لن نفرض عليك واحدة بعينها.. فلماذا تلك بالذات..

فتراني لا أطيق الحديث هكذا .. وأثور وأجادل و أدافع دفاع المستميت عنها .. من صغري وأنا حالم وعاطفي فكانوا يلومونني.. أمي وأخوتي..كانوا يريدون أن يكون رجلهم بلا قلب حتى يناموا وهم مطمئنين أنه لن يسلب منهم إذا أحب..

– لكن هي وحدها من أهوى .

– هيا اذهب إليها إن استطعت أن تغمض عينيك وفي حضنك حية.

كانت أول من حذَّر وأستقرأ النهاية وأنا أخطو أولى الخطى.. قلب الأم الذى يرى من دون عيون و يبصر في ظلام الكتمان وإن واستبسلت في التمويه والاختباء منها.

– هي من ستتركك وغدا سوف ترى ..أنت لست بالنسبة لها أكثر من نزوة..

فأعصيها وأعقها وأمرضها وأحرم رضاها لأجل من لا تغادرني ولو للحظة.. معي في الحلم..في اليقظة.. وتفكيري الجاد في الزواج منها جعلني أكرر عرضي عليها في آخر مقابلة لنا في فند ق مينا هاوس علها ترضى .

– معقول يا حازم .. من سيسمح لك بهذا .

– ومن الذى أنتظر منة الإذن إذن .

– عائلتك .

– أنا رجل .. والرجل لا يأخذ إذناً من أحد .

– أرجوك لا تغضب .. و لكن عملك .

– لا يمنع زواجي منك .. أنت مصرية .. وأسلمت .. أليس كذلك؟

– نعم ..ولكن .

– لكن ماذا.. حتى لو عملي منعني أنت الأهم عندي .

– تتخلى عن الطيران .

– وعن روحي ..لو تريدي..

– أنت طيب جدا يا حازم ..لقد أسعدتني ..أوافق ..أنت الفائز .. هيا نخرج..

تقولها وهى تضحك بشدة..متجاهلة نظرتي العاتبة.. كيف لا تدرى مدى حبي وصدق مشاعري .. و تضحيتي.. وأخذت يدها بين يدي أقبلها غير مكتفٍ وإن رجتني ..

– قولى نعم حتى أبدأ الترتيبات .

– صعب.. صعب..

– ما هو الصعب ؟ وما يمنعك أنت ؟.

– خوفي عليك وما سيقال عنى..ممثلة..وقبلك زوجان..وتكبرك ببضع أعوام..و..

– لا يهمني شيء.

– إذن دعني أفكر..أرجوك لا تتعجلني .. أريد بعض الوقت..لابد أن أنصرف الآن فورا.. الجميع ينتظروني في الأستوديو..هل توصلني..

تخرج وضحكتها تملأ الدنيا..فتضئ الشمس ويعتدل الجو وتحلو الحياة في عيني.. لكن ما كان يؤرقني ..هل كانت حقا تحبني؟ أم أن حبى لم يمس حتى طرف ثوبها المخملي.. وإن أضنى قلبي؟.. هكذا أنت وكنت ..لكن عين الحب طافت بي في ظلمات الهوى.. فأعمتني.. فرأيت النار ماء والعذاب هناء وحية مثلك رقطاء ..ملاك وفيها براءة الأتقياء..كانت هي البادئة من أول يوم رأتني مع جلال..ولو أنى أحيانا كنت أشعر أن قلبها الغافل عن كل شيء إلا حب الذات..

يلهو بي .. ليبدو بعيدا كالنجوم لا يطال وما أراه صورة أصلها غاب من سنين..

فهل يكفى تمزيق صورتك.. لا.. أريد أن أقتلك.. أحرقك..الكل عرفك على حقيقتك إلا أنا.. اتبعتك كتابعك.. أما هو .. من أرَّقني تصرفه وتغيرُّه.. فلماذا هي..وهى من هي..ضلعنا الثالث في صداقتنا الحالمة.. القائمة بالفعل على المودة الخالصة.. المتجردة من كل ما يعكر صفوها وصفونا.. مَنْ نقضي معها أوقاتاً أكثر مما نقضي مع أنفسنا أو مع أهلنا.. التي شهد لها بالموهبة..

– خلاقة .. فذة .. متجددة ..متمردة كالرمال الناعمة.. إن أعطيتها نفسك غرقت فيها لأذنيك .. أحذر ..فهي الحاكمة المتحكمة.

حتى شككت أنه يحبها لولا يقيني من حبه لهدى وإن لم يبح لي وفضل السباحة في المياه الراكدة..يرى أن هدى تميل لي وليس هو..فيؤكد لي دائما..

– هدى شيء آخر..هي أمي وأمك وكل النساء الفضليات في العائلة..جزء مني ومنك.. لكن حب.. لا.. لا..هي لك.. هذا لو كان عندك شيء من الفهم أو العقل..

– ألا تحبها

– هدى..بالطبع أحبها..ومن لا يحبها.. الجميع يحبها لطبعها وروحها وطيبتها ورقتها وعقلها..لا تملك إلا أن تخاف عليها..وترعاها..تخاف وتشفق عليها من الهوى..تضحي بروحك إن مسها أذى..تحميها كأختك..كأمك..كأبنتك..أما ميج فهي الفتنة المتجسدة .. قطع الزجاج المتلألئ تحت الأضواء فنحسبها الماس..

في حين أنها زائفة.. خاوية..مقلدة.. والماس الذى في نسائنا.. تتلاشى مباهجه تحت أشرف مسمى .. الأدب و الالتزام و العفة.. وفي ظلام أعيننا التي أخذ بقيادها الإبهار والمبالغة.

فطنته أتاحت له فك طلاسمك وإزاحة هالة الغموض التي اكتسيتها لتربكي من حولك.. فأفلت بذكائه وخبرته من تلك القبضة التي وقعتُ أنا فيها.

✶ ✶ ✶

وجبت

الأمور جامدة..لا تتغير سواء بالاستعجال أو بالانتظار..والنهار يسلم ليلاً والليل يسلم نهاراً.. والحال هو الحال.. والاضطراب في البيت لا يختلف عن ما يحدث بالجامعة.. الكل في ثورة وانفعال .. وبنفاذ الصبر رفض كامل للأعذار.. والسؤال على كل الشفاه نفس السؤال.. متى نحارب؟ ومتى ينقشع الضباب؟ وكثير من الفكاهات وكثير من الاعتقالات بين صفوف الطلبة خاصة من كلية الهندسة كما حدث مع سمير أخو سيسيل.. والسادات كما يقول الجميع لا يشفي غليلَ أيَّ من الأطراف.. من يستعجل الحرب ومن يخاف ولا يتمناها بأي حال من الأحوال..مهما كانت الأسباب.. حتى ولو كان الخوف من ما تحمله في طياتها من هدم ودمار وعدم استقرار.. إلا أنها في نظر الجميع في أخر المطاف.. الاختيار الوحيد والاختيار المقبول والاختيار الذي لا غيره اختيار.. وبدأت ألسنة الاعتقال

تتمادى لتطول الكثيرين داخل وخارج الجامعة مما زاد الغليان والاشتعال .. كمنزلنا الذي عمه الحزن والأسى لغيابه .. وجوده كان يضفي على المكان بهجة وعلى القلب انشراحاً.. وإن كنت ما رأيته إلا القليل من المرات بزي الطيران..كل منها للحظات.. لكن كلماته الرقيقة كانت تأسر الروح وتريح الفؤاد..وكأنه يريد إسعاد كل الفتيات.. وكأنه مبعوث السماء لإرضاء نفوس الجميلات وغير الجميلات اللاتي هن في مثل حالي.. فيجامل هذه ويثني على تلك.. وكلهن في البيت ليس لهن حديث إلا عنه.. وكل منهن تتمناه زوجاً.. إلا أنا.. رحم الله أمرءاً عرف قدر نفسه..لا أملك حتى التمني .. فتاة عادية بل أقل.. لا مال ولا جمال .. هكذا كانت أمي دائما تقول عني.. احتمال لأنها هي شديدة الجمال.. فعشت على هذا اليقين .. درة فقط هي من كانت تدعو لي دوما أن أصبح أجمل البنات .. و كانت تواسيني بأني سأتغير حين أكبر ويأتيني خراط البنات.. ولكن جاء الخراط.. وفي رأيي لا هو أضاف ولا هو زاد ولا هو عاد.. لكن تعطف علي ببعض الطول الذي لم يكن في الحسبان.. ونسي تماما أني كنت مشوقة لبعض الحسن وبعض الإحسان..وإن كان الجميع الآن يؤكدون أني حسناء.. إلا أن أمي ما زالت تؤكد أني لست مليحة كباقي البنات وأن علي ألا ألتفت لهذا الكلام و تزيد في نصحي بأن ليس لي إلا العلم والعلم فقط..وتفوقي هو فقط الأمان.

✶ ✶ ✶

حازم
تكالبت الذكريات على رأسي من كل زمان ومكان فلا أدري ءأنا هنا أم هناك.. فالراقد واحد والهزيمة واحدة والأحباط فاق كل منغصات الأمل اللاهثة تبحث عن بارقة تدثر بها. صوت الجميع في أذني متزامن وحديث نفسي ،ماجد ،ميج، دنيال و..و..و.. حتى أمي ، إذا ما تفوهت قام صوتها يصفعني.
ـ الحية تظل حية ولو بدلت ألف جلد.. أفق يا بني

توهجها تحت شمس إبريل عاد بي للوراء لأبعد من ست سنوات.
وأخي المسكين يقول
– انسَ الأمر .

بالوسادة على وجهي القرد عاد يكرر المحاولة.. لكن قتلي صعب
وأصعب منه نسيان الحب
ميج و رمزي شاعون يد .. عقرب و حية شاعون يد .

حاول من أحسبه بهذا الرداء من بين طيات غيبوبتي طبيب إيقاظي بقوله انت تخرف يا كابتن وأنا في هذياني قائلا
.. لابد مما ليس منه بد ..
ودنيال لا يكف عن ملاحقتي بقول
– نصف فرخة ..شاعون يد .. قطعة حلوى.. شاعون يد.

..رباط البيادة سلاح المعركة والسابعة عشر سقطت محترقة..وأرض الله واسعة.. ولا يحلو لها السقوط إلا هنا..

– كابتن..أستيقظ..

– أين أنا؟.. من أنت؟..

– كيف تشعر الآن

– أشعر بالموت..

– تقول هذا لتفر من الرجوع للسجن..

– لونك أبيض.. ما الذى حد ث..من أنت.. أين الدكتور خليل ..

– خليل من.. أنا الدكتور يوني هارون ..

– أليست هذه السودان ..

– هذه رفح .. وأنت في مستشفى السجن ..

– آه ..تذكرت .. ماذا عندي ..هل سأموت ..

– لا شيء.. أوكد لك لا شيء..

– كيف لا شيء.. وتلك الآلام.. والهزال.. وعدم القدرة على القيام. – يحدث هذا للجميع في السجن .. مجرد تسمم .. دوائي أو ميكروبي.. والاحتمال الأكبر أنه غذائي.. لكنه الآن تحت السيطرة.. أفقدك أغلب سوائل الجسم.. وأفقدك الوعي.. وصلت لحد الغيبوبة.. ولكنك نجوت.. كانت بالفعل معجزة ..احتمال لأنك قوي.. وسوف تغادر المستشفى قريبا.. ستخرج بعد غد.. فاستعد.. وإن كان ولا شك هنا أفضل من السجن.

– كل شيء سواء على هذه الأرض.. أشعر بالإجهاد.. أريد النوم..

– بعد الدواء.. نم كما شئت..

.. لو فهمت إشارته المعادة وأعملت فيها عقلي..إلا أنى بحمقى ظننته يهذي .. هذا الوتد رغم نحوله واصفرار وجهه أراد مساعدتي..عفوا أيها الشقيق أنا غبي..وما علي إلا أن أشكر طبيبهم على أنجازه معي..

– شكرا على كل شيء .. يكفى أنك أنقذتني .. فعلت كل ما عليك..

– هذا واجب الطب ..هل تشعر بتحسن.. أم أنك تريد ملازمة الفراش لتفادي السجن.

– أعتقد أنك قدمت لي أكثر من واجب الطب..عاملتني بإنسانيته.. وكأننا أصدقاء..

– أكيد..أصدقاء بالطبع..

– دكتور هارون ..من أي البلاد أنت .. تجيد العربية..

– العراق..

– ولماذا جئت إلى هنا؟

– نزحت عائلتي إلى هنا بعد عام 1948

– لأجل الهيكل المزعوم تريدون هدم المسجد؟

– من أخبرك بأمر الهيكل ؟

– زوج أختي.. أستاذ للتاريخ العبري.. حكى لي عن خراب الهيكل وحائط البراق..

– اليهود طوائف شتى.. أما عقيدتي أن الهيكل لا يقام إلا بظهور المخلص.. يجمع اليهود من الشتات.. و يقيم دولة الرب ..ليصعد بعدها إلى السماء لتكون نهاية الأرض.

– إذن أنت ضد اغتصاب فلسطين وإقامة دولة إسرائيل .

– التوراة تحرم أن نقيم دولة قبل ظهور المخلص.. نحن نتبع العهد القديم .. الصهاينة مبتدعون.. تيدور هرتزل أوحى إليهم أن من المستحسن أن يجيء المخلص فيجد الدولة قائمة بالفعل ليسهل عليه الأمر ..كلام فارغ ..

– بالطبع كلام فارغ وضحك على الذقون ..الصهيونية حركة قومية اتخذت من الدين ذريعة لاغتصاب فلسطين وجمع اليهود فيها

– قد يكون هذا صحيحاً.. بعض الشيء..

– لا .. هذا صحيح تماما .. هذا ما حد ث بالفعل .. أقرأ الدوريات المنشورة عن الوكالة الصهيونية.. وأقرأ قبلها كتب التاريخ لتعرف أنها عربية.

– قد يكون ..

– ومع ذلك أنت هنا.. وتعمل في جيش هذه الدولة.. التي قناعتك أنها مغتصبة.. وتسعى لاكتساب المزيد من الأرض ..

– أين أذهب إذن؟ .. ثم أنا هنا مواطن من الدرجة الأولى..

– بالنسبة لعرب **48**..لكنك مواطن ثانٍ إذا قورنت بمن جاءوا من أوروبا وأمريكا

– ولكنى ولا شك مستفيد..هنا أفضل من العراق بكثير..واعتقادي الديني لي وحدي..وأنت..

– أنا ماذا؟

– لماذا تحارب؟

– لتحرير فلسطين و القدس

– وهل أنت فلسطيني؟.. دخولكم الحرب أفقدكم سيناء

– كل مسلم قضيته القدس.. شيء مقدس.. كما أنت تنتظر المخلص..أما سيناء

.. ستعود .. لا شك في هذا

– أشك .. نحن شعب لا يهزم..

– وتدعي أنك لست صهيونيا وتنتظر المخلص.. نحن أيضا في عقيدتنا أن دولتكم ستهدم وقريبا جدا..

– مستحيل..أتصدق أنت هذا؟..

– أسأل أحباركم.. أنسيت بختنصر..نصيحة حاول ألا تكون هنا وإلا هدمت فوق رأسك

– كانت مرة ولن تحدث ..أنسيت أنت هزيمة ناصر ..خمسة يونيو مازال يعلم فيكم..

– البعض يبشر أن نهاية دولتكم في الربع الأول من القرن القادم.. قبل أن يأتي من تسموه المخلص .. فمثلكم لن يكون له مخلص.

– لا أصدق.

– أيَّن ما كان موعدها.. فهي آتية لا ريب فيها.. فقط لتنتظرها..

– لا يمكن .. لا يمكن..

– ولم الانفعال؟.. نحن فقط نتحدث.. كأصدقاء كما قلت..

– قلت لك لن نهدم الأقصى ..

– قل لن تستطيعوا لعلمكم جيدا أن المسجد شرف المسلمين في كل أنحاء الدنيا .. فإن مس بسوء .. وقتها لن يصمد موشى ديان أو جولدا.. تلك عقيدة أمة..

– ولم لهجة العنف؟ .. نحن فقط نتحدث.. كأصدقاء كما قلت..

– لا صداقة في الأسر .. آخر مثلك كان يطعمني سماً ويضحك في وجهي كل صباح وهو يذكرني بما بيني وبينه من عهد .

– من الأفضل أن أتركك تستريح ..أراك تكاد تنفجر من الغيظ..
– نعم .. هذا أفضل.. خاصةً أنه قد قرب حسابي مع هذا الكلب .

كلهم سواء. لتجدنهم أكثر الناس عداوة.. كحالي مع الأخرى.. من راهنت عليها بعمري وتمسكت بها وقلت قدري.. حال الغافل.. الذى علم ووعى وبجانب الذئب بحِمْلانه رعى..

تراك يا هدى سوف تشمتين بي حين تعرفين .. أم أن طبعك الهادي الوديع سوف يثنيك عن التشفي.. كم رفقت بي في قلقي وفي مرضي وكنت حنانا خالصا منذ دخلت البيت لتعيشي معنا بعد رحيل خالتي . عاصرت صراعها المرير مع المرض الخبيث المتأبَّي على الشفاء..خمس سنوات..فعشت ما كان المفروض عند الصغار أن يكون أسعد الأوقات ..في مصاحبة الألم والشقاء.. فتعلمت سبل التحمل والتغلب على أي إبتلاء..وتحليت دائما بالصبر والإيمان.. جئت بيتنا تلتمسي الملاذ .. فأعطيتنا ما كنتين تلتمسين .. آه ..كم اشتقت لبيتي وأهلي وإليك يا أبنه عمي .

بئست تلك اللحظة التي نسيت فيها من أنا ومن هم .. من نسي تاريخه وخبراته السابقة لا يلوم إلا نفسه.. ويستحق أن يساق مرات ومرات إلى الموت.. ملعون أيُّ اتفاق بين من هم بينهم ثأر ودم مازال على المحك.. شؤم منفعة تأتى من تناسى تاريخ طويل من كفاح شهداء ضحوا بأنفسهم.. لأجل ميثاق أو عهد..غباءً أن تعطي ظهرك لعدو وتنام وتطمئن..وتحسب كل من مد إليك يدا قد عاثت في الأرض

فسادا..صديق..لمجرد أنه مدها إليك.. وتظن أنك بهذا حققت شيئاً..فما حققت غير الوهن والضعف وسعيت سعياً بطيئاً للخراب والموت.

ملعون أيّ طعام يقدمه عدو.. ملعون أيّ سلام يسلمه عدو.. فمن يقبل أن يبيت في جحر واحد مع ذئب فلا يعجب إن أصبح الصباح وهو ينزف دماً .. ويطعم سمّاً..مثلى ..لا لشيء..إلا لأني قبلت أن أتفاوض مع ندل لأحمى جسدي من جوع.. كان في حقيقة الأمر نعمة أنعمها عليَّ ربي لم أعرف مداها إلا بتسميم بدني. فما جنيت من مهادنتي معه نفعاً..هو الفائز على طول الخط..فقد حمى نفسه منى بمكر..فإن كنت قد استطعت سحقه يوم تجرأ وتطاول عليّ..فد كان بمقدوري سحقه كل يوم.. ويريدونها من النيل للفرات..
آه يا أولاد الكلاب .. أقرب أن يلين لك أي شيء في الدنيا.. لكن قلب اليهودي.. فصعب.. كلهم (شايلوك).. أه يا شكسبير والله صدقت ..

أأسحقه كالصرصار أم أفصل عنقه وأخرج أحشائه ثمن الأيام العشر بين الحياة والموت وخضوعي لعلاج مكثف لا لشيء إلا لأني أنفع لهم حتى .. يتثنى لهم استبدالي بجوزيف بتروفان..لولا عناية الله لكنت هلكت كالجندي الأردني منذ شهر.. كنت حقا على حافة الموت.. السم الذى أفقدني أغلب سوائل جسدي وكاد يشل أمعائي ويتلف كليتي.. كان أحن من قلوبهم على.
لو كان جوزيف يهودياً لكانوا طالبوا بعشرين منة لقاء تسليمي..لكن لكونه روسياً برتبة عقيد ..تجسس لحسابهم في أواخر السيتنيات فهو مهم جدا بالنسبة للموساد ولما يسمونه الأمن القومي..لذلك هم الآن من يستعجلون الأمر الذى تأخر بسبب

مرضى شهراً .

عودتي إليه بوجه غير الذى كان قبل ذلك.. أعلمته بافتضاح الأمر.. فبالطبع.. يكاد المريب.. وبالرغم من تخلخل أوصاله ومحاولته خداعي بإظهار تفاجئه من اللعن والسب .

– أنا .. ماذا فعلت؟

– يا ندل .. يا حقير.. لولا ميعاد عودتي بعد غد لقتلتك.. تطعمني سمًّا يا كلب..

– من قال هذا؟

– طبيبكم يا سافل.. طعام فاسد تكاثرت فيه الجراثيم و أنتجت كمًّا هائل من السم كافٍ لقتل أي إنسان خلال ساعات.

– محال.. كنت أحضر لك من طعام الضباط .

– طعام الضباط؟..يا حقير يا وغد.. بعد فساده وقبل إلقائه في القمامة يا جبان..تريد قتلى كما قتلت الآخرين.. كم هم؟.. عشرة.. عشرون.. مائة..

– لا.. لا يمكن.. إن كان حدث ..فبالخطأ.. عن دون قصد.. لعلى خدعت.. كنت أدفع مالا كثيرا لمسؤول المطعم ..

– أنت تدفع لأجلى شيئاً.. يا مرابي.. يا نجس.. يا وغد

– نعم دفعت.. وكثيرا.. لو كنت تهتم أن تعرف..

– الذى يجب أن تدفعه الآن هو عمرك

– لا.. لما.. أنت الذى ستدفع لي الساعة الآن ثمن ما دفعت.. هذا الاتفاق..

– أي اتفاق يا منافق يا كلب.. عندك الجرأة تذكرني بها بعد ما فعلت .

– لا .. الساعة ساعتي.. قبلت أم أبيت

– حقا هذه ساعتك السوداء.. لأني سوف اَخذ روحك النجسة الآن.. إن لم تغرب عن وجهي فورا .. أفهمت..

– لا.. أريد الساعة يا هازم ..

– أقصر الشر..

– لا.. أنت مجبر..

– من سيجبرني يا وغد .. الساعة في يدي ..حاول أن تلمسها وسترى..

لتجيء اللكمة لوجه البشع أسرع بكثير من وصول يده الممتدة تجاهي رأيت من خلالها وجه عمى ومصطفى وكل الشهداء في الأرض..عنفها أدار وجهه القبيح للحائط..ليعود وفمه ممتلئ بالدم الذى أرعبته رؤية قطراته القليلة وخلعت قلبه وأرعدت جسده النحيل المتيبس.. وكأن ما عنده غيرها..

– أهذا جزاء خدمتي لك؟

– ليتك ما خدمتني .. كنت وفرت عليَّ أيام الشقاء في المستشفى

– أنت ليس لك كلمة ولا عهد

– شرف لمثلى أن لا يكون له مع مثلك من الخونة والقتلة كلمة أو عهد..

مضى يلعق جراحه وعينه تكاد تقطر دما وترسل إليّ سهام الحقد والكراهية.. وتوعدني أنه سيجعل أمه تصلى عليَّ صلاة خاصة بهم يؤدونها إذا أرادوا القضاء على أحد.. فقرات توراتية محرفة تجعل الضحية تصب عليها اللعنات وكأنه يضرب بسياط من نار حتى الموت.. وأني سوف أهلك بعدها بقليل.. فهي مجربة..اسمها على ما أعتقد وإن كنت لم أتبينها بوضوح (بولسادينورا) ومعناها كرابيج النار

..هكذا ألتقطت منه أسمها بصعوبة وهو نطقها بسرعة.. خيبهم الله.. صلاة للشر وللأذى..ويتوقعون أن الله يستجيب لهم..كيف؟.. أي عقيدة تلك..وأي ديانة محرفة وشعائر شيطانية يمارسونها.

حسبت أنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها وجه القذر.. ولكن قبل تركي السجن في طريقي إلى الزورق الموكل بإيصالي للضفة الغربية للقناة.. وجدته يقف على باب غرفتي وعينه مليئة بالدموع ولا ترتفع عن الساعة في يدي وكدت أضعف أمام منظره المزري وهو يردد.. هازم.. شاعون يد ..هازم .. شاعون يد ..وكدت ألقيها إليه.. فما الساعة وإن غلت.. أمام توسل ودموع شخص بائس.. يائس مثله.. مطوي على نفسه كالخرقة البالية.. آه لو كان النذل بذل أمامها فقط بعض الالتزام ولم ينقض عهده بالخديعة والمكر..ولكنى تراجعت لآني شعرت إن أنا أعطيتها إياه فلن أكون قد فرط في حقي فقط.. بل سأكون قد خنت كل المقدسات و خنت مصر.

✶ ✶ ✶

وجبت

أخيرا عاد وأعاد الفرحة لمصر كلها .. من فرحتي بعودته أصبحت هذه المبالغة هي شعوري الحقيقي.. وأمي تتعجب مالي أنا وعودته ..وأنا حتى لم أسأل عنه أو أره للآن.. فقط علمت من هدى..وبدون كلام .. من فستانها الأبيض وبعض الزينة

التي لا تغفلها عين والتي افتقدناها منذ غاب عنا.. وضحكتها الصافية والمجلية ما بقلبها من حب صادق لابن خالتها وإن كانت لا تفصح عنه أبدا ولم تسر إليَّ به ..ولكن أنا عرفت بطرقي الخاصة .. كم تسعدني تلك الأحاسيس الصافية .. كم يسعدني شعور الحب بين البشر وإن كنت لم أحظى بمثله إلى الآن.. من يدري احتمال في المستقبل .. من يدري ..

بدأت الأنوار تلف منزلهم وزيارات كثيرة تتم للترحيب بعودته سالما.. أردت أن أراه..كما رآه الجميع .. حتى أمي ذهبت لهم مع خالي ولكنهم لم يأخذوني ..فأمي لا تريد أن تظهر أمام عينيه بنت أخرى غير هدى وتقول لي لو ذهبت هدى ستغضب مني .. كيف شعرت أمي بما في قلب هدى بل وكيف عرفت كل هذه القواعد الإنسانية والأخلاقيات بالرغم من أنها لم تكمل تعليمها ولا تخرج من البيت إلا نادرا..والعجيب أن ما قالته كان بالفعل حقيقي .. فلقد أخبرتني هدى بعدها من استيائها من حضور جيهان وأختها المستمر إليهم بحجة الاطمئنان على حازم .. فحمدت الله أني لم أذهب وأني أطمئن عليه فقط من هدى التي زادت محبتها لي وازداد تقاربنا ..

حازم

ساعة الصفر كانت بالنسبة للكثير بالفعل مبهمة وغير مبهمة ..فمع كل صباح كان يقال الحرب غدا .. لكن متى هذا الغد لم نكن نعرف بالضبط .. هل هو بعد ساعات أم بعد مئة .. قليل جدا هم من كانوا على دراية بها.. لتأتي شرارة الحرب مفاجأة وأي مفاجأة.. أشترك في إشعالها كل الشعب المصري..فكما القوات المسلحة بكل فرقها من طيران ومدرعات ومظلات ومشاة.. من ضباط وجنود ومهندسين عسكريين .. كان هناك أناس عاديون كأولئك اللذين قاموا ببناء الدشم.. تلك الغرف الخرسانية المغطاة بردم من الطمي، هذا الاختراع المصري العبقري الذي لم يكن معروفاً قبل حرب الاستنزاف والذي ساهم فيه بجانب الجيش والمقاولون العرب شباب وفتيات ريفيون بعضهم لم يتجاوز الثمانية عشر والذي لا يقل في أهميته عن تصميم وبناء الجسور التي أتاحت الوصول للضفة الشرقية للقناة

آخر كلمة لي قبل إغلاق الكابينة كانت الشهادة.. قالوا لنا أفطروا.. جميعا رفضنا وقلنا الإفطار في الجنة، حتى المسيحيون منا قالوا اجعلوه صياما للعذراء. حوالي ثلاث مائة وخمسون طائرة قوام السرب الحربي أصبح في حالة تأهب قصوى.. ميج 15 و17و 21 وسوخوي.. وساعات كل السرب الموحدة.. تنتظر الثانية ظهرا بالثانية.. الساعة التي انتظرناها كلنا.. أحرقت فينا الصبر وخلعت قناعة عن قناعتنا بضرورة إتيانها سريعا .. وبتنا بها متلهفين للحظة المواجهة. كان لتوسل الشعب مبرراته.. ولحرص السادات الشديد على الاستجابه مقدماته.. مما سيعلى قدره ويفرض سطوته الزعامية الكاملة على المنطقة..وهو ما عاش يتمنى.

كل الطائرات هدفها خط (بارليف) الأسطورة، قالوا بجانبه خط (ماجينو)

لعبة..وذلك لحماية عملية إقامة الكباري المائية وحماية الزوارق بجنودها ومهندسيها..الضربات المتتالية للمواقع الأمامية للعدو على الخط المتهاوي جاءت القاصمة..وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم..يوم سبتهم لم يمنعهم منا .. ومن المداهمة ومن زلزلة الأرض تحت أقدامهم وسقوط أسقف مخابئهم على رؤوسهم.. خرجوا بملابسهم الداخلية وخروا أمام جنودنا كالفئران المذعورة.. و كل ثانية كانت الأعلام البيضاء في أيديهم تهوى إذعانا بالتسليم لقواتنا ..في حقيقة الأمر الحرب لم تبدأ في الثانية ظهرا.. واقع الأمر أنها بدأت الثانية إلا خمس إذ لم ننطلق لمهماتنا العسكرية المقررة إلا بعد أن قذفت طائرات التوبولوف العملاقة المتواجدة فوق قاعدة أنشاص قاعدة الميليز التابعة للعدو قرب شرم الشيخ وأبو خشيب.. و التي لولاها ما استطعنا تكملة المهمة الموكلة إلينا.. بعدها فقط تحركت طائراتنا في الساعة الثانية تماما .

ما بين الساعة الثانية ظهرا والثامنة مساء كانت كل الكباري مقامة وأغلب قواتنا البرية في طريقها المؤمن للتمركز على الضفة الشرقية ومعظم مجرى القناة تحت السيطرة الكاملة لمدرعات ودبابات و مجنزرات القوات المصرية والخط الأسطوري قد هوى والعلم المصري اعتلى قمته البائسة..عادت جميع طائرات السرب لقواعدها سالمة.. لولا أن كان علينا الخروج مرة أخرى كي تتمكن قواتنا البرية من نصب منصات صواريخ سام ستة .. في تلك الطلعة تصدت لنا طائراتهم فما كان منا إلا المواجه المباشرة والاشتباك معهم طائرة لطائرة..ما يسمى..(بالدوج فيت) في المصطلحات العسكرية..كنا فيه أنا ورفعت فريقاً لا يضاهى.. سواء في السكشن أو الفورماشن .. فهو دائما (الونج) معي..فتكبدوا خسائر فادحة.. أعتقد أنها ستظل علامة للأجيال القادمة.. عندهم أو عندنا..

– الهدف أمامنا.. الصاروخ في المقدمة.. سأهاجم الآن..
– أحسنت.. وداعا يا حلوة.. حازم أنت ضمن النخبة..
– وأنت بجانبي .. و هل كنت أجرؤ على الطيران بدونك..
– أأطلب الإذن بالعودة.. لقد أنهينا المهمة..

تساقطت الميراج والفانتوم والسكاى هوك كالذباب من حولنا.. انتهى تسع منهم محترقين وخسرنا نحن أربعة ليكون أول شهدائنا الشهيد عاطف السادات .. وكأن الله عز وجل أراد أن يتم للرئيس في هذا اليوم الشرف من كل جهة ..صباح اليوم التالي من المعركة كانت كل منصات سام ستة جاهزة للتعامل مع طائراتهم إن هم حاولوا الوصول لخط القناة ..في حين وصل مدى قواتنا المدرعة التي كان لها الفضل الأكبر في حسم المعركة لصالحنا داخل صفوفهم أكثر من العشر كيلوات المربعة..لنستطيع أن نصرخ بأعلى الصوت ونقول .. انتصرنا.. انتصرنا..ومع ذلك كان لهم في كل يوم معنا معارك على طول الأيام الستة عشر للحرب ..تكبدوا فيها خسائر شتى ..

دفاعنا الجوي بمنصات الصواريخ سام 6و2و3و7 وأجهزة الإعاقة الإلكترونية قاموا بعمل خرافي و تكبد العدو خسائر لا حصر لها.. بالرغم من الفجوة التكنولوجية السحيقة بين وسائل دفاعنا ودفاعهم.. التي بلغت عندهم من الدقة والتعقيد ما لم نتخيله نحن أنفسنا.. لكن ما عزز موقفنا وقدرتنا الإيمان بالله والعزيمة والهدف الأسمى الذي نسعى لتحقيقه والحالة المعنوية العالية .. فقد كان للرئيس السادات كلمة رائعة وهي أن الطيار من أبنائه بمائة طيار من العدو .. فما

كان يعنيا بعد هذا غير النصر أو الشهادة.. لو كنا نمتلك من التسليح أكثر من هذا لانتهت الحرب سريعا لصالحنا ولم تقم لهم بعدها قائمة .. فوق بورسعيد فقط أسقطوا خمسين طائرة.. مما أنساني تماما ما فعله المعتوه على جبل عتاقة .. الطيارون الإسرائيليون لكون أغلبهم مرتزقة كان شغلهم الشاغل إطلاق المقعد بالمظلة.. كل منهم همه الوحيد أن ينجو .. أما موضوع النصر والعقيدة فهذا عندهم موضوع غير ذات أهمية.. كانت شكواهم أن عددهم يتناقص يوميا بنسبه **100** % ما بين قتيل وجريح وأسير.. وليقطع دفاعنا الجوي ذراع إسرائيل الطويلة ولتتحطم عصاهم الغليظة.

في يوم الرابع عشر من أكتوبر كانت لنا أطول معركة جوية في التاريخ الحربي إلى وقتنا هذا فوق مطار المنصورة استمرت **53** دقيقة في حين أكثر المعارك الجوية طولا لا تتجاوز العشر دقائق..كانت الطائرات الميج **21** تحمينا من فوقنا ويرفض رفاقنا العودة إلا بعد إنهاء مهمتنا ..وكانت طائراتنا تنزل كل سبع دقائق للتمويل والتذخير بصورة سريعة ودقيقة أذهلت العدو كما أن تدريبنا على السرعات البطيئة ساعدنا كثيرا في تلك المعركة.. ومع ذلك فقدنا محمد عبد الظاهر ومنير حنا..

بعد يوم السادس عشر من أكتوبر..و بعد تدمير أكثر من ألف دبابة.. ومواقع لا حصر لها وأسر لواء كامل من ألويه العدو وإسقاط عدد كبير من طائراتهم واختلال الميزان العسكري لقواتهم وتحطيم الروح المعنوية لشعبهم .. جنوداً وعامة..أتت لنا الأيام بما لم نتوقعه و بالمفاجأة الكبرى ..الأمر لجميع الوحدات بعدم التقدم أكثر من هذا.

✶ ✶ ✶

جلال

أصبح السادس من أكتوبر هو اليوم الفعلي لتنصيبه أي نعم منذ ثلاث سنوات ولى علينا لكنى كنت أشعر أن هذا ليس حقيقيّاً فلم يكن يعقل أن نستبدل جمال بأي شخص آخر فمن ذا الذى يمكن أن يملأ مكانه سواء الرئاسي أو العالمي أو المحفور في قلوب شعبه حتى أن جنازته لكانت مضربا للأمثال في قوة ارتباط شعب بقائده.. خروج الملايين وراءه يبكون فقدانه هو صك الحب الحقيقي والبوح ضمنا بعدم القبول بغيره.. الذين خرجوا لتشييعه أضعاف أضعاف من خرجوا ليلة قرار التنحي ..الجنازات هي الفاصل في تقييم البشر..الأمام أحمد ابن حنبل.. يوم وفاته أسلم الآلاف.. الفارق بين جنازته وبين جنازة من كادوا له وعذبوه كان واضحاً وضوح العيان..فهذه سنة الله.. لمن يريد أن يستقرىء التاريخ المسطر فوق الجباه.

كنت خرجت مع فريق عمل من صديقي المصور و آخرين لتصوير الجنازة للمشاركة فيها أولا و لعمل فيلم تسجيلي مستقبلا عن توديع شعب عظيم لبطل أعظم..كلما أدرنا شريط العرض بكينا وتعجبنا من هذا الكم من الحب الذي لا يمكن أن يشترى ولو بكنوز الدنيا.. وحقا من ذا الذى له طلعته وهيبته .. من ذا الذى يستطيع مجاراة بطولاته وإنجازاته.. حتى أن نصرنا الحالي ما هو إلا نتاج الجهد وسهر الليالي في إعادة ترتيب هيكلة الجيش وتطويره وتسليحه .. وإدارة حرب شرسة مع العدو لاستنزاف طاقاته كانت هي اللبنة الأولى في هذا الصرح العالي .. من ذا الذى له رفعته وسطوته وإخلاصه وطهارته لعروبته وقوميته وأسرته الرفعة عن الدنيا وهو الذى لو طلبها لأتته تسعى ..دون أدنى مجاهدة .. من ذا

الذى له قيمته وقامته وجماله ..نعم كان جميلا خلقة وخلقا.. بكل المقاييس وبشهادة العالم.. وإلا ما أحبه الجميع من عرب وعجم و اعتبروه قمة من القمم.. يكفى ما كان لديه من قبول رباني..

..لكن ها هو السادات من كان لا يمتلك مثقال خردل من قدر جمال.. أصبح بطلا وفارسا وعالما وعلما ومقداما.. وجميلا جدا في محيانا..وكل من حوله مغاوير وقادة على أعلى مستوى من الكفاءة.. ولم تلدهم ولادة.. فالنصر له سطوة على القلوب والعقول وله أحكامه المعتادة..

الشعب الذى قضى ست سنوات خفيض النفس مطأطأ الهامة احتاج لحظة يفرح فيها ويفتخر بها ..احتاج لرجل ينصبه بطلاً ويقول ..انظروا.. ها هو.. ها هو.. ولأول مرة يقولها صادقا فيها ..بالروح بالدم نفديك يا سادات.. بعدما كان يقول عند رؤياه يا حسرة على من مات وترك لنا هذا السادات .. وليسمعها هو كبداية جديدة.. وبداية لما ينتظره الشعب منه من أعمال مجيدة..

العجيب أن الشر انتفى من العروق لتحل مكانه النخوة والأمانة.. لم تسجل منذ عبرنا حالة واحدة من أعمال الجريمة.. الكل سعى لبذل ما عنده طواعية.. و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.. مال ..جهد.. حتى أن بنوك الدم في المستشفيات الكبرى امتلأت عن آخرها.. مثلها مثل مساجدنا.. و صوت الشيخ النقشابندى في ابتهالات الفجر أمن عليها مسلمون ونصارى.. لا فارق بينهما.. كما هم على الجبهة يدا بيدا ..وليس على ألسنتهم غير يا رب انصرنا.. يا رب

انصرنا..

أنا الآخر أريد أن أعمل عملا كبيرا ..أن أشارك بقلمي.. إن لم أكن استطعت بالسلاح المشاركة..فأنا أريد كتابة ملحمة كبيرة تحكي للأجيال القادمة عن نصرنا هذا..ولأول مرة أشعر أنه هو حقا من يستحق هدى .. لا أنا.. ولأول مرة أتنازل له عنها طواعية من صميم قلبي بصدق وأمانة.. فهو بعد نصر أكتوبر أصبح بالفعل من يستحقها وأصبح هو البطل الحقيقي على كل مستويات المنافسة.

✶ ✶ ✶

هدى

بنك الدم بالقصر العيني..أصبح طريقنا المعتاد أنا ووداد كل بضعة أيام .. ولو أنهم يسمحون لنا بأن نأتي كل يوم للتبرع ما تقاعسنا.. إلا أنهم يشتكون من امتلاء الثلاجات..ويرجونا في كل مرة أن نباعد بين زياراتنا.. ونحن نود لو أن نذهب للجبهة .. فما بالك وفيهم من أهوى. لكن في تلك المرة لفتت وداد نظري إليها.. رايتها باكية منتحبة على باب المشرحة.. وبثوبها الأسود.. تصورت أن لها شهيداً هنا.. إلا أنني تحت كل الظروف لا أحب رؤيتها.. منذ يوم امتحان الجراحة.. فهي السبب المباشر في ضياع النيابة.. لقد كنت مؤهلة لها طول السنين بتقديري.. لولاها.. ولو أني لا أتشاءم إطلاقا.. لا منها ولا من غيرها ..إلا أني كلما رايتها .. حدثت مصيبة.. هي أولا وأخيرا..أقدار.. ليس إلا..

كانت الحالة لرجل مسن.. بعد أخذ التاريخ المرضى والكشف عليه بصورة مخففة

مراعاة لسنٍ وحساسية المكان الذي أكشف عليه ..وكان هذا في نظري كافياً تماما للوصول للتشخيص السليم ولإجابتي الصحيحة لولا أنها جاءت وأصرت أن أكشف عليه أمامها.. فطلبت منه رفع سرواله ليكشف عن ساقيه ..فاحتدت عليَّ وطلبت منه أن يخلع سرواله ويتعرى تماما.. فرفض الرجل متعللا بأن المكان ممتلئ بالطلبة والممتحنين وهذا يحرجه.. فأمرته صارخة فيه بصورة هستيرية بالصعود على الطاولة.. وأخذت تجادله وتتهكم عليه بأنه لو طلب الخصوصية في الكشف فأمامه المستشفيات الخاصة ولكن مادام هو هنا فليطع دون مجادلة.. ولكنه ظل على إصراره.. وفجأة نزعت هي بنفسها عنه سرواله بالقوة.. فانهار الرجل وأخذت أنا وهو نبكى بشدة من إحراج المسكين .. وانهارت أعصابي ولم أستطع الإجابة علي أي من أسئلتها المحورة المشهورة بها والتي لا يستطيع من صعوبتها الإجابة عليها إلا من معه دكتوراه في الجراحة.

وهكذا لم يكن أمامي بعد التخرج غير نيابة في معهد الأورام.. وإن كنت الآن أحمد الله لأن هذا ما كان يصلح لي تماما.. ويكفي أني لم أحرم من زمالة وداد طوال هذه المدة.. منذ أن تعرفنا على باب الكلية لأول مرة.. أنفي عن نفسي تماما أني أنا التي لفت نظر الدكتور أبو بكر لإعجابها به.. لكنها علي يقين من هذا ولكنها لم تفاتحني.. تكن لي كل الولاء خاصا بعد الزيجة السعيدة.. وإن حاولت تأجيلها لنتزوج سويا ولكنى أخبرتها أن ما أنتظره بعيد المنال وقد لا يأتي أبدا.. فعليها ألا تضيع وقتها..ولتتركني أنا مع السراب أحيا..وهبتني أول مولود لها لأعطيه الاسم العزيز وليصبح حازم الصغير قرة عين لي ولها.. أسعد كثيرا بصحبته..كما أني دائما المدعوة الأولي والوحيدة في عيد زواج هذا الثنائي العبقري ..

عادت لي بعد دقائق كعادتها بعد تقصي الحقائق من عم جابر بالخبر اليقين

والحزين الذي هالني.. يا إلهي..الدكتور بهاء لقي مصرعه وهو ذاهب لزيارة والده الذي يحتضر و ينازع سكرات الموت منذ فترة.. صدمته مقطورة على الطريق السريع وهو يبحث عن من يصلح له عجلة السيارة.. ولأنه لم يكن يحمل إثبات شخصية نقلوه على هنا كأحد المجهولين ليبقى بها خمسة أيام.. وهي تسأل عنه في كل مكان يخطر لها على بال إلا هنا.. ليتعرف عليه أحد طلبته بالصدفة .. وهى الآن هنا لاستلامه..

تقدمنا نحوها بخالص الحزن والأسى.. وقدمنا لها واجب العزاء.. وعرضنا عليها خدماتنا والوقوف بجانبها..فوجدناها تريد استخراج بعض الأوراق فأنجزناها لها.. وكنا الوحيدين في صحبتها به إلى عربة الموتى.. فالجميع كان في شغل شاغل عن أي شيء إلا الجبهة ومن فيها.. ومع هذا لم يمنعني انشغالي أنا الأخرى مثلهم من الحزن على هذا الطبيب الأمثولة في الذكاء و الانطلاق والإحساس بالذات .. والتفكير فيه و من رافقهم سنين .. فهل كان عليه أن يبقى على مرافقتهم حتى ساعاته الأخيرة..

في عودتي إلى البيت كان حديث الناس عن الثغرة وكيفيه حدوثها والجدل الذي حولها.

وجبت

من منا في هذه الفترة لم تهتم بكل الضباط.. كأبطال وفرسان وأخوة.. ولم تتمنى زوجا من أفراد القوات المسلحة.. بطل.. كحازم مثلا.. فهم الآن من يملؤا العين والقلب.. محظوظة هدى.. تراه .. تسمعه .. يحكي لها عن بطولاته وإنجازاته ومعاركه.. تعيش تلك الأيام قلقة.. متوترة.. لكنها فرحة وفخورة.. لكن هل سيتزوجها.. لا أدري ..تحبه كثيرا.. أعلم هذا وإن كنا لم نتصارح أبدا في هذه المسالة.. عرفت بالأمر من غيرها.. نوال لمَّحت لي مرة .. ومرة أخرى طنط عاليا..أخجل منها أحيانا لأني أعجبت به في فترة.. في بداية قدومي إلى القاهرة ..عند مقابلتي له أمام المصعد.. بهيأته وزيه العسكري..كان بمظهره المقدام القوي .. شيئاً مشرفاً جدا..كما أني كنت وقتها طفلة.. لا يؤخذ عليَّ .. أبتسم لي وسألني عن نفسي وأين أدرس وعن اسمي ..لم يضحك منه أو مني.. ولم يتعجب أو يحرجني.. كان لطيفا جدا وعطوفاً جدا.. جدا ووسيما جدا.. جدا.. جدا.. بعدها سألني أن أبلغ سلامه لخالي ..فهل يكون مخطئاً من أحب القمر وأحب ضياءه..ولا يطمع إلا أن يرى نوره وبهاءه .. لا يريد منه شيئاً..ولا حتى على اقل قدر من أي شيء.. فهل يكون أخطأ من تمنى له الدوام وكنَّ له الاحترام .. وعرف قدره فلم يتخطى حدَّه.. كان هذا حالي مع النظرة الأولى التي ما كررتها بعد يقيني من حبَّ هدى له..

✶ ✶ ✶

يوسف

حصولي على جواز مروري الوظيفي بعد رحلة كفاح مضنٍ واكب العبور الذى رد الاعتبار لشعب بأكمله ظل ست سنوات ينوح ويبكي ..ويتعجل الثار وهو يغلي .. جاء انتصاري على الليسانس بفضل الله و بمساندة إسماعيل لي.. فقد كان الراعي الرسمي لمسيرة أربع سنوات عجاف..من إقامتي لمطعمي لملبسي.. ولست وحدي .. الجميع مثلى..حتى سجائري..فهو الأب الروحي لكل الفرقة.. وإن كان هو نفسه لم يكن يدري..أيضا توصية كمال أتت بثمارها هي الأخرى بعد خروجه من المعتقل ورد اعتباره وتقلُّده منصباً قيادياً كبيراً في هيئة الاستعلامات.. تعييني بالجريدة كصحفي رسمي بعد دهاليز الأرشيف والهم الأزلي فتح لي آفاق لم تكن تخطر على بالى .. حفزني الوضع الجديد على الانتقال إلى مكان أكثر خصوصية ولو أن إسماعيل سيعانى فقدي.

.. سلسلة مقالاتي عن الانفتاح و رصد التغير الجذري الذي يهدد الشعب المصري من وجهة نظري وكثيرين غيري أعلى اسمى الصحفي وزاد من قيمتي الأدبية في الوسط الثقافي.. ودعمه من قبل ذلك عملي كمراسل حربي وما رصدته بقلمي وعيني من كفاح دامٍ لأهالي السويس في سبيل الحفاظ على كل شبر فيها من دنس المعتدى الإسرائيلى خاصةً قبل قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.. قطعوا المياه العذبة عن المدينة.. ووجهوا الإنذار للمحافظ بإخلائها.. وهددوا بالقذف المدفعي والجوي..لكنهم فقدوا مائة دبابة من السنتيرون والباتون وهم يريدوا احتلالها ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر.. علي يد صاروخ الأر.. ب.. ج ..العادي في أيدي ضباط وجنود وأعضاء منظمة سيناء الذين أذهلوني ببطولاتهم

الخارقة ومساندة خمسة آلاف مدني لم يتركوا مدينتهم وظلوا علي أبوابها الثلاث في كمائن بشرية.. لم ينتظروا أمراً من أحد أو دعوة.

✶ ✶ ✶

وجبت

لا تكف عن الصراخ فيهما..والتوأمان الصغيران ولا هما هنا..في عراكهما ولهوهما يحيا حياتهما..وأنا بينهما عالقة بعد سفرها..فإن حاولت التهدئة اتهمت كالجميع بتحطيم أعصابها.. وكأن حياتها لا تستقيم إلا بالثنائيات المتنافرة.. ومحاولتها إجادة خط وسط للتعايش بينهما غاية المنى..كما في بيت وديع أصلان..الداعم لهما منذ وصولهما بيروت.. أول ميادين المعركة.. كان اقل القليل وفاء للدين ورداً للجميل هو ملازمة التوأمتان الضريرتان من زوجته المارونية بعد رحيلها ..كمعلمة ومربية.. رفقة دائمة..

..لكن الحياة بين كلوديا ونادية كانت تشاحناً دائماً وتضاداً لا يوقفه ولا حتى صرخات واستنكار والدهما كما تفعل هي الآن مع باسل ونضال.. كانتا من المفروض أن تكونا أكثر تفاهما و التصاقاً.. جسدان وحياة واحدة.. لكن على العكس.. حتى اهتمام درة بهما اقتتلا عليه.. جعلاها في صراخ دائم ومجادلة.. حتى أحلامها التي كانت تتحقق بصورة كبيرة كل منهما أرادتها لها وحدها ..فأصبحت وكأنها مقدمة دائما على قتال ومبارزة . وكأنها لم يكن يكفيها تاريخها المضني ومقتل أبيها وأخيها أمام عينيها..ورحلة الترحال المحطمة لأعصاب

الكبار..فما بالك هي ..أبنة السابعة..
– أتدرى.. الظلام الذى كان يلفهما..كان أيضاً يلفني..كان خندقي .. وبوتقة صهرت اعصابي وسردا ب وجد فيه ثلاثتنا كل أنواع الأشباح والوحوش الضواري ..العمى جعلهما تستعيضان عن النور والألوان بالحديث الدائم والمشاجرة.. كرغبة في المقاومة وإثبات الذات.. نظرة عائلة كارمن كنعان لهذه الزيجة نظرة متدنية واعتبارها خاطئة جعل الفتاتين تتخبطان في ظلام القهر بجانب تخبطهما في ظلام العمى .

ظل حالنا على ما هو عليه ..خالي في عطفه وحنانه المتناهيين.. ودرة في عصبيتها ورغبتها في سير الحياة بنظام وحزم متناميين.. والطفلان بينهما عالقان.. ولكنها حياة في أغلبها سعيدة بالمتاح فيها متشاركين و متشاكسين..أما أنا.. ترى ما كان يكون حالي لولا مجدي..لحطمت برودة الفراغ الذى تركت أمي أوصالي.. ولأحرقتني عصبية درة إلا مبررة تجاه كل من حولها وإن كان خالي يحاول دائما تهدئتها واحتواءها لكن هيهات .. فكما لم تفد إعادة العلاقة بين الضريرتين وعائلة أمهما في شفائهما من وهم أن ما أصابهما من عمى هو نتاج إسلام أبيهما ومسيحية أمهما.. كذلك لم يفد كل حبنا و مراعاتنا لدرة في تطييب جراحها ومداواة آلام ماضيها السحيق الذي حفر حروفه بمداد الدم على عقلها وجسدها.

.. بالعناد الذى يملؤني تجاه أبى جاء إصراري على اختياره شريكاً لحياتي.. مازلنا في اشتباك معه كي نحصل على موافقته.. تقدّمه لخالي لم يعفيه من مواجهته بالرغم من معرفتهم السابقة التي كان مجدي دائم التباهي بها..من يوم قابلني عند

هدى في أحد الأعياد وذكر اسم أبى .. بدأ اهتمامه بي..بعث لي بعدها أزهارا رائعة أثناء وجودي بالمستشفى لإجراء جراحة الزائدة ورقم هاتفه..شخصية لطيفة .. مبهجة..يعرف كيف يضحكني ..يوصيني بألا أثق بغيره..وإن كنت أخالفه الرأي إلا أننى سعيدة بسيطرته عليَّ..حتى أنه يستطيع أن يجعلني أغير رأى أو يستخلص منى موافقة على أي شيء بالرغم عنى..ومع ذلك فأنا سعيدة .. وسأظل هكذا ..لولا شكوته الدائمة من إمكانياته المادية وأن أمامه وقت طويل حتى يستطيع إحضار شقة.. وعليَّ أن أصبر .

✶ ✶ ✶

هدى

.. أصبح شارعنا الهادئ بأشجاره الباسقة وشذا الياسمين الملتصق بجدران منازلة العالية والأضواء الحالمة فوق القليل من عرباته الفارهة تتلألأ كنجوم المجرة.. موقفا لسيارات الأجرة السوداء المكبية التي تصدم أعيننا صباحا ومساء بعددها الهائل..فهي تصطف كالخنافس السوداء المتشابكة أمام منزلنا في الثامنة صباحا والثامنة مساء موعد تغير الوردية بين سائقيها وموعد المحاسبة بينهم وبين طنط حكمت زوجة المرشد.. الذي لم يكن يتصدر لهذا الموقف أبدا ويتركها لهم وحدها بصوتها الجهوري وكمَّ المصطلحات التي نوجهها في إلقاء اللوم عليهم وفصالهم معها على الأجرة لتصبح موضع امتعاض وتهكم كل سكان العمارة.. فبالرغم من صراحتها وخفة دمها المتناهية و استطاعتها اقتحام أي أحد لتجعله صديقها حتى لكانت تستطيع هذا مع طوب الأرض بلا أدنى مبالغة.. إلا أنها لم

تستطع اكتساب أنصار لها في بيتنا ..حتى جيهان نفسها كانت تشعر بالإحراج من أمها وتحاول أحيانا الدفاع عنها بأنها مضطرة لهذا وإلا ضاع مالهم وأكله هؤلاء السائقون السفلة على حد قولها .. وأن أمها هي هكذا تهوى التربح والمتاجرة ولا تبيت ليلة إلا وهى تفكر في كيفية إقامة مشاريع جديدة وتسعى لتحقيقها .

ليأتي اغرب مشاريعها على الإطلاق وهو رغبتها في مشاركة طنط بهية في شقتها المفروشة في الدور الأرضي التي تؤجرها في فترة الصيف حين تذهب لابنتها المتزوجة في الإسكندرية.. وذلك لتحولها إلى قاعة للموسيقى والرقص والوجبات السريعة.. وعندما تشاورت طنط بهية معنا ومع باقي سكان العمارة توصلت لقرارها بالرفض رفضا باتا لما في هذا العرض من مخالفة للمعايير المتعارف عليها..إذ إن مكاناً كهذا في منطقة سكنية هادئة قد يعرضها للضوضاء والهمجية واستقطاب أناس غير مرغوب فيهم لتصرفاتهم الغير أخلاقية .. وكثيرا ما تعجبنا من تفكيرها في مشروع اقرب منه إلى ملهى منه إلى مطعم أو قهوة.. ومع ذلك فلم تتوقف عن طموحاتها في إقامة المشاريع التجارية التي اعتدنا عليها منها .. فافتتحت محلاً للأحذية كان في السابق مكتبة وآخر للملابس المستوردة في حي الشواربي و أصبحت هي وبناتها فجأة مواكبين للموضة بصورة صارخة .. ولقد دعتنا أكثر من مرة أنا و سيسييل لشراء ما نحتاجه من عندها.. لكننا كنا نفضل الشراء من أي محل آخر منعا للإحراج معها .. وحتى لا تتفضل علينا بأي تخفيض لنا كمجاملة.. كما كانت أسعارها مبالغاً فيها تحت مسمى الانفتاح وهو ما كان لا يناسبنا في ظروفنا الحالية.. إذ ظهرت طبقة اغتنت بصورة مبالغ فيها ..هي الطبقة المتاجرة ..أما طبقتنا الوسطى المتعلمة فظلت كما هي .. بل بدأت في القهقرة .. ولتظل هي

في حبها للمتاجرة وكسب المال منطلقة كصاروخ خرج من مجاله المغناطيسي الذى يحكمه .. وزوجها وأولادها في ركابها .. وهي في هذا في غاية التباهي والمفاخرة .. ومع ذلك فحازم كان رأيه محايداً في هذه المسألة.. وشغله توجهه للطيران المدني وحياة الحرية بعيدا عن القيود العسكرية عن الكثير من الأمور والمتغيرات المحيطة بنا.

✶ ✶ ✶

يوسف

الشقة الجديدة وبعض المفروشات البسيطة فتح نفسي للزواج ومع هذا الخاطر الرائع لم يخطر غيرها على بالي.. هي التي لم تسمعني منه شيئاً لمدة ثلاث سنوات إلى أن رأيتها تدخل عليَّ الآن مكتبي وتقف أمامي على استحياء كما رأيتها لأول مرة.. لتتسلم عملها كمحررة بالجريدة تحت رئاستي.فلم أستطع مدراة فرحتب بها قائلا..

– مستحيل..أين كنت..انتظرتك تأتى لتسمعيني شعرك..من يوم أن رأيتك لم تغيبي عن بالى..وسألت عنك جلال..ألم يخبرك ..

– نعم أخبرني.. شغلتني الدراسة .. هذا ملفي..

– اجلسي.. كيف حالك..آه.. وجيد جداً..رائع سيكون ملفك الوظيفي مسؤليتي .. وسوف تبدئين فورا.. لكن قبلا أسمعيني شيئا من شعرك

– ليس معي شيء منه الآن

– وجبت..إياك أ ن تغيبي كالمرة السابقة

همت لتمضى وهى في غاية الخجل والارتباك.. فرحتي بمجيئها أعمتني عن خاتما لخطبة في يدها الذى ما تبينته إلا وهى ترفع يدها بالسلام..

– خطبت ؟

– عقد قران ..دكتور مجدي شعلان ..

– نسيب جلال .. معقول.. الاختلاف بينكم كبير جدا .

– تعرفه .

– أليس المسؤول المالي عن حملة تحديد النسل في وزارة الصحة؟ إنه بالفعل محظوظ ..مبروك..

✶ ✶ ✶

هدى

السؤال الذي راودني لم كل هذا الكم الهائل من التحاليل لشابة في الثانية و العشرين من عمرها موفورة الصحة ..وأيضا تحاليل أنسجة .. ويترجاني أن أقنعها بإجرائها..وليس هو..الشك يأكلني وصدري مرعى للفئران المتذاكية .. وكل لحظة تمر تعيد على عقلي كمّاً من الأسئلة.. لماذا هو؟..لماذا هي؟..لكن بعد ساعات قليلة بدأت حيرتي ينقشع عنها بعض غبار الشك وإن ظلت تتأرجح بين أكيد.. يجوز.. قد..فقد أتتني تطير فرحا وطربا كفراشة عثرت أخيرا على مصباح الضوء..لتخبرني النبأ قبل أي أحد..و ياليتني ما عرفت.. أبوها المحترم قرر اصطحابها معه إلى أمريكا حيث ستجرى له عملية زرع كلى فقد أصبح الغسيل الكلوي بالنسبة له غير مجدٍ..وذلك لرعايته وأيضا لقضاء شهر العسل هي

ومجدي..لأنه يريد إسعادها على حد قوله ..خاصةً في أيامه الأخيرة .

وأخيرا اتضحت لي الرؤيا..العجوز يريد اغتصاب كليتها والمسكينة ولا هي هنا..ومجدي ضالع في الأمر..لماذا.. عادت الفئران إسراعا لعملها..لكن يا أنا يا هو.. تاريخه معي لا يبشر بخير.. إما أن يخضع كل من حوله لتنفيذ رغباته وتحقيق مآربه وإما أن ينقلب عليه كذئب..صدمتني الصورة المتخيلة..فبالإحراج والمسكنة وتحت راية بر الوالدين الخالدة..وواجب الابنة البارة تجاه أبيها.. إن كان هذا أساسا يعد أباً..وأن الجنة التي في انتظارها.. ليستولي عليها زورا وغصباً..فسيف الحياء يقطع أي أمر..وتحت رايته يسلب المغتصب أي حق .. ولمعرفتي بها.. فهي لن تستطيع الدفاع عن نفسها أو حتى المقاومة وسترضى وترضخ لتعيش المتبقي لها حزينة مدمرة ..

– تحبينه

– دمه خفيف وشخصية لطيفة ودكتور وله اسمه والوحيد الذي تقدم لي و..

– تحبينه أم لا ..

– بالطبع.. سنتزوج بعد أيام.. ألم أقل لك أنى مسافرة يا هدى ..أخيرا بابا يريد أن يسعدني..

لترحل وهى فرحة مستبشرة .. وأنا في همي ..كيف ستتحمل المكاشفة ..وكيف سأتعامل أنا مع هذه المسألة.

وها هي أمها بعد المكاشفة كالبركان..يفور ويغلي.. على وشك الانفجار وقذف

الحمم .. ضغطها في السماء ، وأوصالها ترتعد ، ووجهها محتقن .. حاولت تهدئتها وإفهامها أن كل الخيوط التي تحت أيدينا تحت مسمى الشك.. لكن هيهات.. قلب الأم الذي يستشعر الخطر عن بعد..ظل متقداً ..يختلج وينتفض ومعه كل أعضائها وعروقها حتى خشيت عليها انفجار شريان أو فقدها للوعي.. وهى في ثورتها لا تكف عن ترديد..

– كلية من..المجرم .. طبعا.. فهو لم يربَّ ولم يتعب ولا عمره شعر أنه أب .. يروح يشترى .. ماله كثير كالهم على القلب .. والأخر.. أهذا زوج يؤتمن.. الخائن .. المتآمر..

– اهدئي أرجوك..لنتأكد أولا..ثم نتصرف..ما تدخلت إلا لأعرف إن كنت على علم ..أرجوك آلا تصدميها فيهم ..فقط أفهميها أن السفر ليس في مصلحتها

– تصدم الآن أفضل..هذا العجوز الوغد.. وهذا الذئب..من سيقترب منهم منها سأقتله..

حاولت طمأنتها بالتأكيد على أن الأمر مازال بأيدينا.. حاولت وحاولت حتى بصرف فكرها المشتعل وقلبها المعتل بالحديث عن أخبار عمى وجيه وملاعبتي للطفل.. وأخيرا أجبرتها على أخذ مهدئ ولم أتركها إلا بعد أن أعدت قياس الضغط واطمأننت ولكن شعور قاتل بالذنب تملكني كوني أرعبتها و أجهدتها ومع ذلك اشعر أن ما جنانبنى الصواب فيما فعلت وأنى تصرفت صح من منطلق خوفي على صديقتي سليمة النية ..فلتنكشف لها الحقيقة اليوم أفضل بكثير من غد أو بعد غد .

✶ ✶ ✶

وجبت

يبدو أن طلاقي من مجدي بات حتمياً بعدما صدقت فيه شكوك هدى وحدث أمي..اتضح لي انه وراء كل خيوط المؤامرة بل هو المقترح لها.. ترى أي ثمن قبض فيَّ من دون مداراة أو حياء أو خجل.. بضمير النخاس المتأصل في أمثاله منذ الأزل..

– لن أسافر معك

– كيف.. بعدما حضرنا كل شيء.. ماذا جرى ..السعادة تنتظرنا .. ثم هذه فرصة لن تتاح لنا ثانية.. آه ..أمك السبب.. افهمي ..لن يكون هناك زواج إن لم نسافر

– وما علاقة زواجنا بالسفر

– هذا أمر أبيك .. إما السفر وإما..أنا لا أريد أن أتركك..لكن هو سيصر.. تعرفي سطوته.. أرجوك.. السفر من أجل حبنا.. أنسيتي .. ألم أحارب والدك من أجل الارتباط بك..سنعيش حياة رائعة.. سيعطينا مالا كثيرا ويبنى لنا بيتاً..

– مقابل ماذا .. الكلية

– ماذا

– هو أخبرني

– آه .. نعم..فعلا هو فكر في هذا ..وليكن ما الضير.. لا تخافي يا حبيبتي الإنسان ممكن يعيش بكلية واحدة وأنت أفضل من تعطيه لتطابق الأنسجة .. اطمئني ليس هناك أي خطر..صدقيني ..أنا معك..لكن إن لم تسافري فلتتحملي النتيجة.

كادت حالته المزرية تصيبني بالعمى كي لا أرى ..الحيلة البسيطة أسقطته .. فهوى..ومضى وهو يتخبط ويتلعثم ويتعثر في مشيته المختلة.. كمن اعتراه مس من الجن أو تعرى .

مسكين يا أبى لم تستطع تحسين صورتك في نظري ..وقبلت أن أذكرك باقي أيامي كمتآمر معتدٍ .. غصة في حلقي وحسرة تمزقني.. ورغم ذلك شيء حاك في صدري يقول أقبلي ..أقبلي.. أعطيه عن طيب خاطر من دون مؤامرة.. أعطيه ما يريحه من عذابه ويعيد إليه العافية ..أعطيه ما حرمك منه طوال السنين .. الحنان والمؤازرة .

عند إخبار أمي بقراري كادت تموت غما وكمدا ونعتتني بكل صفات ذهاب العقل والغباء المستحكم.. ولكنى كنت قد أبرمت أمري ..سأذهب إليه صباحا لأخبره أننا سنسافر معا شريطة استبعاد نخاسي..فإن كان لكليتي ثمن.. فليكن خلاصي.

وأمام فراشه.. حيث كان نفسه في اضطراب متنامٍ وجسده كله يهتز بشدة أمامي.. اختزلت شريط حياتي عليَّ أجد له فيه لمحة.. دون جدوى.. ترك مكانة لجدي وخالي.. حتى الأغراب .. إلا هو...

اقتربت .. أقبله.. بشحوبه والصفرة التي اعتلته وسيل العرق الذى لا يريد أن ينقضي وكم الأنابيب الخارجة من والداخلة في هذا الجسد الواهي ..اعتصرني الألم

لأجله.. قبلته وقبلته لتختلط دموعي المتدفقة بعرقه.. أسدلت جفني علَّي أعيد صورته الأولى..أصبح واحداً على عشر من حجمه الأصلي.. يا حبيبي يا أبي .. أشفق عليك وعلى نفسي من أن تغادر ني بعد ما فتح لك قلبي مسامعه وذاب جبل الجليد الجاثي على معاني الحب لك عندي والحائل دون لقائنا وممارسة شعائر الود الخالص بين فرع وأصل منه نما.

– كيف جئت بهذه السرعة.. هل أخبروك..

– لم يخبرني أحد .. أنا جئت من نفسي.. أريد أن أكون معك.. ولأخبرك أننا سنسافر قريبا جدا..أنا وأنت فقط.. لإجراء العملية..

– لن نسافر.. لا تفرطي في صحتك ..

– لما.. أنا حقا أريد هذا .. كل شيء معد.. لا تخف.. ستشفى .. والكلية لك.. لن تحتاج لأحد .. أعدك ..

– أنا لم أخطط .. هو الذي دفعني .. كيف حالُ أمك.. أريدها أن تسامحني .. ظلمتها.. لكن غصب عنى.. أريد أن أشرب .. لا.. لا تبتعدي ..

آه منه ..المرض ولا غيره .. يشقينا .. يكبلنا ولكنه فرصة مواتية لفتح كشف حساب يطرح أمامنا.. لتسديد قيمة أيام الماضي.. رفعت رأسه الهزيلة ووضعتها على صدري وقربت الماء لتكون آخر رشفة يرتشفها منه بيدي وليسلم الروح ونحن وحدنا .. ظننت أنه غفى .. ما علمت برحيله إلا بحضور الممرضة ..

آه من وداعك يا أبى.. مرارة الدنيا.. هل قربتني إليك أخيرا لتموت بين يدي هكذا.. أسامحك من كل قلبي وإن كنت لا أملك المسامحة.. أنت من كنت تملك

أن تهبني الرضى.. علَّك تكون راضٍ.. عنِّى لم أكن جاحدة..ترى ماذا كان يضيرك لو أخذتني في أحضانك وأنا صغيرة وربتَّ على ظهري ومسحت على شعري وأيقظتني للذهاب إلى المدرسة وعاقبتني حين كنت مقصرة .. ورفعت شهادتي متفاخرا.. الأولى .. ابنة أبيها.. وأوصلتني بيدك الجامعة.. وألبستني ثوب الزفاف وملأت صدرك من أنفاس ابتهاجي وداعبت خجلي وقلت ها أنت يا عزائي أوشكت أن تجعليني جدا.. وأن تصبحي سيدة ..فأتي بهم سريعا .. من سيكونون أغلى عندي من الضنى..ماذا عليك لو كنت فعلت كل هذا ولم تتركني في الحياة وحيدة.. أتخبط شاردة.. واحتضنتني بعطفك وحنانك.. وزدت عليه مما تمليه عليك آيات الأبوة الخالصة.. فأقصى ما يتمناه الأبناء من آبائهم الرضى..عفى الله عنك يا أبى وغفر لك.. أريدك أن تعود لربك راضيا وراض عني.. حقا أريد لك الجنة من كل قلبي .

أما الخائن حين جاء ليعزيني تعمد الاختلاء بي لا ليواسيني ولكن ليهنئني.. وكأن الذى دفناه بالأمس ليس أبى.. التودد في نظرته لم يحرك لي ساكناً واستشراف الشر بات جلياً.

– الحمد لله أنك لم توافقي.. قلبك دليلك..لكن اطمئني.. سنسافر.. سنذهب مهما حدث لأمريكا لقضاء شهر العسل.. لكن هذه المرة وحدنا من غير أن يضايقنا والآن تقدري تشترى شقة وتفرشيها .. أليس كذلك..

– مجدي .. طلقني..

– ماذا قلت .. أجننت..كنا بالأمس سنزف واليوم تريدين أن..

– مجدي أرجوك ..كل منا يذهب لحاله من دون شوشرة..

– أكيد أعصابك.. هي أعصابك المرهقة..إياك أسمعك تقولي هذا الكلام مرة أخرى

– أنا مصممة

– أبعد لك من نجوم السماء.. ماذا تحسبينني .. تحت أمرك و أمر أهلك.. لا يا ماما ..سوف تعيشين معي غصب عنك.. لا يا حلوة أنا لست الرجل الذى تحسبين.. ألم تسمعي عن بيت الطاعة والزوجة الناشز.. أنا دارس قانون يا ماما.. تقدري تسألي.. لو تريدي الطلاق.. ادفعي.. افتدي نفسك يا حلوة .. ترك لك مالا كثيرا أنا وحدي الذي يعرف كم هو..كنت معه خطوة بخطوه.. ماذا لو أعطيتني المستشفى .. كان وعدني بها.. ها..ها ..بناها ليقولوا رجل ورع ..

– أأنت رجل.. ما هذه السفالة ..هذه سرقة..

– إذن سوف تظلين هكذا معلقة إلى آخر يوم في عمرك.. بل وستأتي راكعة بالمحكمة..

– لن يحدث ولو قتلوني ..

– سنرى.. الشاطر من يضحك أخيرا.. ولتعلمي يا حلوة أنك لن تعرفي إثبات حقك في ميراثك بدوني..أنت لا تعرفين ما هو تحت يدي.. ما يجعلك تودين دفع الآلاف لتحصلي عليه..سوف ترين ما يمكن أن أفعله.. ويجعلك تأتين راكعة.. متوسلة.. سوف تري.. يا بنت رجل البر والإحسان والتقوى..ها ها.. غدا سوف تندمين.. سترين.. ليس معك عقود يا حلوة.. ولو شاطرة اثبتي حقك يا فالحة..

أنقذني من بذاءته دخولها متنمرة كقطة تريد أكلي من شدة حرصها .. فأخذ يعدل من هندامه الذى بعثره من كثرة تلويحه لي بيديه وأصابعه.. أسرعت احتمى ورائها متخلية لها عن الصدارة وقيادة المعركة.. عاتبته بما يكفى وأوقفته عند حدَّه ببعض من التهديد الذكي فخرج يرغى ويزبد ويتوعدني.. لكن غيابه عن ناظري أراحني.

لأول مرة منذ ليلة خطبتي له لم أشعر بثقل الكابوس الجاثم على صدري..تلك الليلة التي أحرجني فيها أمام أهلي أولا بادعائه أن الشبكة سرقت منه دون أن يدري ..فما كان مني إلا أن أدعي أنا الأخرى أنى أصدقه تماما.. وأنه أراني إياها من قبل ..كي لا أبدو مغفلة.. ثانيا بمطالبته ببقايا الطعام المتبقي من الحفل الذى أقامه لنا خالي في النادي.. ومن قبل هذا وذاك استغلاله لخجلي وحيائي وسفر أمي لأقبل بتأجيل المهر بل استطاع أن يستخلص منى بالإحراج وسيف الحياء أنه ليس له داعي.. ثم تقاعسه عن إحضار شقة بحجة ظروفه المادية السيئة مع أن الشواهد كلها تؤكد ثراءه.. ظن الخبيث أن تعلقي به سيظل يغفر له وأنى بهذا التعلق في قبضة يده .

لن يصدق أحد أنى كنت أتمنى تلك المواجه وفى كل ليلة كنت أنويها ولكن كانت تخور عزيمتي فبداخلي لم أكن مرتاحة.. لم يبقِ لدى شيئاً لأجله أبقى عليه.. من بدأ لطيفا.. مجاملا.. ومتفانيا.. وساعده خفة ظله ولباقته وقدرته على تسليتي بحكاياته المشوقة والتي فيها كثير من الكذب والمبالغة.. المهم عنده أنها تطلعه

السماء.. حتى لينسى محدثة شكله .. ويتوه في حديثة.. لينقلب بعد الخطبة لشخص آخر .. متكبرا.. متعاليا.. مظهرا لأهميته وانشغاله الدائم.. وبعد القران لثالث لا أعرفه بتاتا يستهين بي وبعقلي ويعتبرني في قرارة نفسه بلهاء متخلفة.. تصرفاته التي حمدت له بعضها كالتمسك بي في وجه أبي الذي أتهمه وقتها أنه ليس بأب وانه ليس له أن يمارس أي سلطة لأنه حتى الآن لا يعرف أنا في أي سنة دراسية بالجامعة.. وحصلنا على موافقة أبي بعد مجاهدة بالرغم من أنهما كانا يعرفان بعضهما من لقاء سابق بينهما في .. لا أدري بالضبط ما هو.. لكن اشترط أبى ألا نطلب منه مليما مما أظهرني أمام مجدي بمظهر متدنٍّ.. ظن معه أنى رخيصة عند أهلي لولا إعزاز خالي ودعمه لي .. ومع ذلك ظل متمسكاً بي ودائما ما يردد على مسامعي أن كل مال أبي الذى ليس له حصر في يوم ما سيكون لنا ولأولادنا.. فلا أهتم بما يقول ولا أعي.. فما فكرت في هذا مطلقا حتى أنى لم أكن أفهم ما يعنى أن يكون مال أبى مالي وأنه يوما ما سينتقل لي.. كل ما كان مترسخ في ذهني أنى فقيرة ..وأبى غنى..كنت أقول لنفسي على أي شيء سيحبني.. لا مال ولا جمال .. فالمال.. يضن به أبي.. والجمال.. أملك منه النذر اليسير على حدَّ تصوري.. وأراني في عيني أقل بكثير من قريناتي .. فإن امتدحني أحدهم.. كحازم في تلك الزيارة السريعة للاطمئنان على والدته.. اعتبرتها مجاملة غير مقصودة.. هذا ما ترسخ وقتها في ذهني .. لأعيش أبخس حقي الذي يشيد به الجميع في سبيل أن يظل هو في عيني المتفضل بالأماني الحلوة التي تنتظرني..لتبدأ سلسلة من تصرفاته الغير مبررة لتسلب منى في النهاية ثقتي المتناهية فيه ويتراخى وتر الأمان المشدود بيننا.. فبذرة الشك لاقت في نفسي تربتها اللائقة .. فطرحت أشواك التنافر والجفاء .. وبات وكأنه لم يكن له يوما في

حياتي صدى .

لمح يوسف في عيني نظرة الانكسار التي حاولت مداراتها عن الجميع وأدركها هو.. علم أني أعاني ولا أريد الإفصاح عن ما بي بشيء من التعالي.. فكرامة المرأة تظل مصانة إلى أن يأتي رجل غادر يريدها أن تطأطىء وتنحني وتشترى حريتها بما تجود به.. ليعلن للجميع أنه ما كان يحبها لذاتها بل كان طامعاً.. ياله من غبي.. لأجل المال يضحي بقلب كقلبي.. وأخير لتأتي الريح بما لا تشتهي سفني ..فتبوء مساعي الجميع معه بالفشل.. جلال وهدى من ناحية.. بالحكمة والموعظة الحسنة..وحازم ووالدته من ناحية..بإلهاب روح المروءة فيه و حثه على مراعاة صلة النسب التي بينهما.. لكن لا فائدة..

– ما بك.. وأين خاتم الخطبة..مهما يكن .. فلا تستسلمي.. وإن كنت متأكدة من مشاعرك فلا تترددي .. فنحن لا نعيش الحياة إلا مرة.. فيجب إن نعيشها بسعادة..

– كيف أعيش وأنا مكبلة..

وجدته يعاتبني على عدم لجوئي إليه بشدة .. بعد معرفته بملابسات القصة..إذ يعتبر نفسه أخاً لي كحازم وجلال من ناحية.. وأقرب مما تمليه علينا ظروف العمل والزمالة .

– وما الذي ستفعله يا أستاذ يوسف أكثر من الآخرين

– الكثير.. يجعل سره في أضعف خلقه

– لا..العفو .. ولكني فقط لا أريد أن أرهقك

– لا اتركيني و اصبري.... لي طريقتي الخاصة.. خصوصا مع من هم على شاكلة مجدي هذا .. فهو يلزمه الطريقة المثلى في قتل الأفاعي..

لتجئ مساعداته فعلا فعالة وقيمة.. فقد كان ما لديه من المعلومات عن معاملات مجدي المالية في إدارة أموال الدولة و المعونة في حملة انظر حولك ما يبعثه وراء الشمس في اقرب حافلة غير مأسوف عليه لا هو ولا من معه.. فملفه الوظيفي كان مليئاً بالمخالفات والاختلاسات والرشاوى.. بعدها فقط أرسل لي مجدي ورقة الطلاق كأغلى هدية نلتها.. واعتبرتها مهري من يوسف الذي تقدم لخطبتي بمنتهى السرعة.

✶ ✶ ✶

هدى

لم أشعر بها وهي تنساب على الماء.. فقد أذاب قلبي المشتاق المفتوح على مصراعيه للحياة.. المزروع على جانبيه كل أزهار وثمار الجنة.. رفيقي في تلك الرحلة الممتدة بين حدائق وبساتين فرنسا.. في جولة نهايتها مرسيليا.. بابتسامته التي تضئ الدنيا أكثر بكثير من شمس أوروبا.. حب عمري..الأمل الذى تناسيته من فرط يأسي..لا يمر أسبوع إلا ويأتي..

ـ مللت منى .. ماذا أفعل إن كانوا لم يعودوا يكلفوني إلا بتلك الرحلة.. ثم الجميع هناك يريدون الاطمئنان عليك .. فكيف لا آتي..

أنا أملك يا عمري.. فقط أحاول أن اوكد لنفسي أن هذا ليس حلما أنسجه حولي

وأحيا فيه وحدي.. نصغي إليه أنا وخديجة ولا نريده أن ينتهي.. كانت تغبطني عليه..

– لو كان لي أبن عم مثله ما كنت تركته أبدا وجئت هنا لأكمل دراستي..كنت اعتزلت الحياة لأجله.. شرط أن يتزوجني..

..حديثها في آن واحد يضحكني ويشقيني.. فما قبلت بتلك المنحة للدكتوراه إلا لأبتعد عنة وأريح عقلي..حتى بعد ميج لم يلتفت لي وسعى لغيري.. كان هو وجيهان على شفا زواج محقق.. لكن ها هما يفسخان الخطبة.. ومع ذلك أشك في حبه لي.. فالحب أما أن يأتي مبكرا جدا من بعد أول لقاء وأما ألا يأتي أبدا.. أما ما يأتي بعد ذلك فهو الاقتناع العقلي لإشباع الخواء الوجداني ثم العشرة التي قد تفجر بعض المشاعر في لحظات عدة .. كالحزن والضعف والشدة . أما الحب فشيء آخر بالمرة.. أما من أحبني حقا.. فهو.. من يوم أعطتني أمي له ليحملني بعد ساعات من مولدي.. فقد قررت مازحة تزويجي ممن سيأتي مبكرا من أولاد خالتي .

– هذه عروسك.. شرط أن تجعلها تحبك ..أحرص عليها وإياك يوما أن تحزنها..

– حقا هي عروسي .. ساجعلها تحبني ..وهذا مهرها..

كانت تضحكها تلك الواقعة كلما تذكرتها هي وجدتي .. و الجنيه الذهبي الذي

كان عديته من جده ووضعه في يدي كمهر ثم قبلني..وها هو من يومها قلادة حول رقبتي لأتذكر دائما أن لجلال دين في عنقي ..لكن أراد قلبي ما لم تتوقعه أمي.. أراد المتأخر القادم على المهل.. من فتنته العربة الحمراء بجمالها فظل بجانبها ونسى الدنيا ومن جاءت فجر العيد لتنضم إليهم وإليها .. لذلك انخلع قلبي وهو يطلب مني عند الوداع أن يقابلني وحدي.. رقصت عيناي طربا وخجلا.. حاولت الإفلات من بين عينيه وهى تحاصرني.. لينطلق بعد تحرير يدي من بين يديه بالقوة.. محاولته استبقاءها لأطول مدة زلزلني .. من فرط انبهاري وسعادتي كدت يغشى عليَّ أو أفقد عقلي.. ثم وداعا يا حبيبتي.. ونزهة بمفردنا.. التغير المفاجئ أذهلني.. أهو ما أرنو إليه من سنيين.. منذ أول لحظة لي كأنثى في هذه الدنيا وشعرت فيها بانجذابي لرجل..وكان هو.. وله وحده دق قلبي.. أم أنه وهم أعتقل فيه نفسي.. أم ماذا يا قلبي..

ولم أكن أخرج معه إلا وهى معنا لنظل نتحدث ثلاثتنا عن الثورة والنكسة ويوم ستة أكتوبرالناشر راياته على شرقنا العربي بالانتصار والفرحة وزيارة القدس المرتقبة الباعثة أشواك الفرقة المرتقبة بين الرفقاء والأخوة بالحديث عن احتمال مصالحة فردية والتغير الجاري في مصر في جميع أوجه السياسات الأخرى وثورة الجزائر ودور جمال العظيم في إنجاح هذه الثورة.. لأجل عينيه تحبنا من كل قلبها وتشعرنا دائما بحمل الجميل والرغبة في ردة ولو مرة.. لذلك غمرتها الفرحة حين

علمت بأمر نزهتنا المرتقبة..

– أشعر أنها ستكون افتتاحية السيمفونية الأولى لسعادتك يا هدى.. لا يطلب رجل من فتاة المقابلة والحديث بمفردهما إلا للخطبة

– أتمنى يا خديجة .. ولك أيضا..ولكل الدنيا..

– الموضوع بالنسبة لي انتهى .. إنما أنت.. إذا الشعب يوما أراد الحياة ..لا تعودي إلا وأنت خطيبته .. إن لم تفعلي فلن أفتح لك ، أفهمت.. في قلبك الكثير .. حاولي أن تعبري عن مشاعرك تجاهه.. لا تبخلي عليه وعلى نفسك بالسعادة ولحظات المكاشفة.. اليوم ستخطَّي أحلى ذكرياتك للحياة المقبلة فأكثري منها قدر المستطاع..تخلى عن بعض طبعك الهادئ الخجول وبعض المثالية.. تحركي..الالتزام ليس معناه التحجر.. ستجدينه يريدك بشرا.. الملائكة فقط في السماء وليست هنا

اختارت لي ردائي الوردي وحثتني على وضع بعض الزينة على وجهي وبدعاء عريض ودعتني متمنية أن يكون هذا أروع أيام حياتي..

– قمة الجمال والأناقة.. هيا يا فتاة انطلقي ..

– سيأتي من يعوضك.. آه.. أريد سعادتك وسعادة كل الدنيا..

من أعماق قلبي دعوت لها دعاءً خفيًّا أن يأتي من ينسيها هذا الخائن الذى هجرها هي وأبنها ليهرب مع فتاة فرنسية إلى أسبانيا بالرغم من أنه وهى أولاد عم..وعائلتهم من أبطال الكفاح المسلح.. فعائلة بو راس المجاهدة.. ضحت

بالكثير من أجل إنجاح الثورة .. وخالها كان من المقربين لبن بيلا.. وكذلك والدها.. أعتقد أن كل الجزائريين أبطال للثورة..أليست بلد المليون شهيد.. أليست أذاقت فرنسا ما زال يوجعها إلى يومنا هذا..إلا أن زوجها أختار الشكل الأوروبي للحياة وفتنته الفتاة الشقراء وسحبته إلى مياهها الراكدة لينسى نهر خديجة الجاري بدفئها وحنانها وابنه الذى سيشب يتيما لمجرد أنه لم يستطع كبح بعض متعه الحسية.. نسى رفيقة كفاحه التي كان لها دور بطولي في إيصال معلومات وأسلحة للمجاهدين وهى لم تتعدى العشرين من عمرها مثلها مثل جميلة بو حريد وزهرة.. نسى ونسى..وطار مع إزابيلا.. وللحق خديجة عادلة تستطيع التفرقة بين فرنسا كحضارة و دولة متقدمة وبين دولة غريمتها والدولة المحتلة .. وها هي تدرس هنا لتحصل على الدكتوراه في الفزياء النووية.. إن شاء الله بجدارة.. حلمها أن تدخل الجزائر عصر التكنولوجيا.. والمفاعلات الذرية..واستخدام الطاقة النووية في المولدات الكهربائية..

– نقبلهم أساتذة وعلماء ومبتكرين .. ونحاربهم غزاة ومحتلين .. و بلا أي حرج نأتي إليهم وننحني ونقترب.. طالبين العلم والمعرفة ممن سبقونا فيها بأشواط كثيرة.. للفريق الأول التبجيل والاحترام ..وللفريق الثاني الرصاص والمقاومة.

هذه هي خديجة القوية..العادلة.. من منهم خديجة لابد وأنهم جميعا عمالقة أو فرسان كأيام الفتوحات الأولى.. لتشعري بالسعادة يا صديقتي كما أشعر أنا

..وليعوضك الله عن ذاك الخائن عديم المروءة.. خائر القوى.

وبالرغم من أتساع الوقت أمامي شعرت أنه لن ينتظرني.. فطرت على الدرج لألقاه على الباب الخارجي. لقيني بفرحة ظاهرة ولهفة ما عهدتها وبنظرة إعجاب شديدة حتى كاد أن يحتضنني..

– ما كل هذا الجمال؟..

من فرط حيائي أشحت بوجهي لأتحاشى نظراته..

– ماذا بك ؟.. هات يدك ..

خطفها منى ليطير بنا و هو يضحك ضحكته الصافية.. آه.. لتبدأ رحلة عمري .. كل شيء يطرب لفرحي .. السماء .. الأرض .. الأشجار.. الأزهار.. الطير.. والمحبين على جانبي الطريق.. كل شيء كالحلم بل أصفى وأروع..آه .. أأمشي على السحاب أم أن الكون حولي يصدح بأنشودة حبي .. في مرفأ السفن ناشدت الوقت آلا يمضى..

– هدى .. أما زلت تحبيني؟ ما أدركته في عيناك.. منذ سنيين.. في المزرعة..

– أنا !

– حين وقعت عن الحصان.. فاضت عينيك.. لا تنكري ..

– أنا !

– هدى .. أحبك وأريدك زوجة ..

– ماذا قلت ؟

– ما سمعتَ .. قولي نعم كي أبشر أمي..

– هكذا فجأة ..

– لا ولكن منذ شعرت بقلبي يريد أن يحتويك.. سامحي غبائي.. كنت أحبك ولم أكن أدرى.. أخيرا تحققت من مدى رغبتي في الارتباط بك.

– فقط لترضى خالتي..

– كيف تفكرين هكذا؟ .. أحبك لذاتك.. أترديني .. أريدك..

ما فعله كان محاولة ضمي إليه إلا أنى أسرعت بالابتعاد ضاحكة .. خجلة.. ومسرعة إلى طرف الباخرة.. وذبت في ركنها كقطعة ثلج تتعرف على الدفيء لأول مرة أو كأعمى لسنين طويلة أبصر النور فجأة.. أكان عليَّ أن أنتظر كل هذا الوقت لآتى معه إلى هنا.. لهذا المكان البديع كالجنة.. لتتشبع روحي منه ومنها .. وتفيض نفسي بشْرا.. حمدا لله أنى طاوعت قلبي الذى منعني من الارتباط بغيره طوال هذه المدة.

ظللنا نتحدث طوال الرحلة وارتديت خاتم الخطبة نزولا على رغبة خالتي التي حمل لي منا خطاباً توصيني فيه ألا أعيده به إليها .. حدثني عن ميج وجيهان بمنتهى الصراحة حتى لا يزعجني الماضي .. قلبي كاد ينفطر لفراقه بعد كل تلك الساعات السعيدة.. حسبتها من لهف قلبي أقل من دقيقة..جفف دمعي بمنديله .. أعرف جيدا عمل يدي.. حرفي أسمه بلون السماء دليلي..

– كان معي في أسري.. وسيظل بدموعك أنيسي إلى أن تعودي..لولا الرسالة لأخذتك معي..لا أريدك آن تبعدي عني بعد الآن لحظة.. أفهمت..

حديثه أشعل الشوق في قلبي وهو لا يزال معي وغيبني عن نفسي .. انخرطت أكثر في البكاء.. وروحي كادت تفارقني.. بابتسامة تخفيها الدموع ألوّح له بيدي وهو يتأهب لتركي ..

✶ ✶ ✶

جلال

ما يكون مشروع المثقفين بدون خط فكرى واضح وسلطة تدعمه.. فالتعليم وحقوق المرأة والعدالة الاجتماعية قوائم بناء أي مجتمع ثقافي.. من قال أن ناصر أغفل البعد الثقافي داخل حكمه الشمولي و أعطى السياسة كل الأولوية.. وقلص مكانته الفاعلة.. حقا إنه وضع كثيراً من الضباط في رئاسات التحرير لبعض الصحف والمجالس القومية للثقافة..ولكن هذا لم يمنع توهج الحركة الثقافية.. أي مسرحية كانت كحزب سياسي متكامل الأنظمة.. أي قصيدة قذيفة موجهة.. أي قصة أو رواية لغم أرضي انفجاره يزيل الأتربة عن العقول الغائبة.. والدور البارز للهيئة العامة لمؤسسه السينما.. لكن بالتدريج بدا الوضع يتراجع بصورة مخيفة .. ليضيع المثقف المجهول في العاصفة.. ويتعرض للازدراء و الاستهانة.. ويوضع على قبره

باقة من الزهور الأرجوانية.. في كل ذكرى قومية ..حيث غيابه من غير مؤامرة مدعاة للرتابة و أحيانا كثيرة للمساءلة

إلى أن وصلنا لعهدنا هذا فحتى باقة الزهور منعوها.. ومن وصله باقة قديمة من عهد جمال طالبوه بها أو سلبوها إياه عنوة أو طالو بالأذى سيرته الأولى فانزوى ..نحن في عهد فقد القدوة وسعى لإسقاط الرموز وإنكار تاريخها والتنكر لها وفسح المجال أمام أشباه المثقفين وحاملي أبواق الدعاية..وتتالت المسارح المغلقة والأفلام الهابطة والأغاني الداعرة.. وأصبح الفن شغل من ليس له شغله.. وظهر نظام الشلالية والمحسوبية إلا من قليلين مازالوا هم المنارة في الوسط الأدبي والفكري والأمل في إعلاء الكلمة وكشف الغمة..

✶ ✶ ✶

هدى

طال الصمت والنظر إلى لاشئ ..الحقيقة الواضحة أنه حتى المواساة والمجاملة لم تستطع جبر الصدع الذي أحدثته المكاشفة ولم تستطع عبور الحاجز الحجري الذي قام فجأة بيننا ولا مداواة المغامرة بمصيري والتلاعب بمشاعري .. فغادرني .. عابسة.. واجمة.. ومع أنى أبديت له مراعاة لمشاعره أنى متفهمة ومقدرة موقفة تجاهها.. بل وأكثر ..عاتبته أن كلف نفسه عناء الرحلة .. كانت تكفى رسالة أو مكالمة.. لكن هو ظن أن المواجه قد تغفر له عندي ما جنى .. ومع ذلك حمدتها فيه .. وأنه لم يتركني أرعى كثيرا في ربوع الخيال والأمل.. وأعادني سريعا إلى أرض

الواقع المضني.. ولم يدعني أصعد جبال الأحلام وحدي .. وإلا كانت كسرت رقبتي وفقدت عقلي..حرمته أن يرى دمعي.. ومن متعة أن يظل يروى كم كانت صدمتي.. في لحظة محوته من قلبي ومن ذاكرتي وحرمته منى..أنا من كنت ملك يمينه وظله على الأرض يوجهني كما شاء أن يوجهني.. حرمته من حبي الذي أجهض فنزل للدنيا سقطا فلم نسمَّه ولم نؤرخ له ولم نره يافعا.. حرمته من كل هذا في ثانية..

شتان ما بين لقائنا الأول والثاني وعشرون يوما فقط بينهما.. ما فرحت في حياتي مثلها.. كان كل شيء مضيئاً .. بل متلألئاً ومبهجاً.. بعدما حصلت على شهادة ميلادي الحقيقية وأصبحت الابنة الشرعية لأيام سعادتي القادمة.. تخليت من أجلها عن كل شيء يشغلني عنها .. واستجديت من كل ركن ذكرى .. لتشعرني أخيرا بجمال الدنيا.. آه.. حلم ومضى.. وهل للأحلام بقاء في دنيانا التعسة..

سرده محاولة انتحارها وكيف جاءت مكالمة أمها له في منتصف الليل مفزعة لترجوه الذهاب إليها.. لمجرد أن تراه ليعيد إليها توازنها وينتشلها من انهيارها ويضمد جراحها.. فحبها الشديد له هو الذي أوردها المهالك.. طبعا.. وهل ضحى أحد بنفسه لأجله غيرها.. فالمسكينة فقدت عقلها لمجرد تركه لها.. فليحمّلوه إذن المسؤولية كاملة.. تشابه غريب ما بين قصة زواج أمها بأبيها التي قصتها عليَّ ذات مرة من باب الرومانسية وتلك القصة.. ولكن قصة أمها ما كانت تدل إلا على سذاجة أبيها.. لأن جدتها طلبت منه المجيء فقط ليطعما.. فقد كانت ترفض تناوله فقط لبعده عنها.. فلما ذهب وجد نفسه في أخر النهار متزوجا منها دون

علم أهله لرفضهم أن يتزوج ابنهم عاملة التليفون البسيطة وابنهم .. هو من هو.

أما أنا.. فأين أنا من خريطة حياته..لا وجود لي.. مجرد رابطة غير مهمة جاء ليفصمها.. وعليَّ أن أرضخ وأرضى.. ما المشكلة.. فكم عاما قضيتها من سنيين عمري في حب من لم يشعر بي بالمرة.. لا شيء على الإطلاق ..لا.. بل وعلى تقديم باقات التهنئة.. ولم لا.. لأجل من ربتني في بيتها.. ولأجل عمى ومن قبلهم لأجله هو.. المسكين الذي إما أن يقود وإما أن يقاد وإن أخذ أحد بقياده ساقه أمامه لأبعد مدى.. وحجتها الداحضة أنها ستعيد المحاولة.. وحجته الواهية أنها إن فعلتها ثانية.. سيعيش العمر معذباً بذنبها..وحجتي المتغابية أنى مستسلمة وبين كل هؤلاء تائهة.. ضائعة.. راضية ..أريد أرضا أضع قدمي عليها.. أريد شاطئاً يستقبل أمواجي المتلاطمة .. أريد يدا تأخذ بيدي .. تربط على جرحى .. أريد أنا الأخرى من يشفق عليَّ من هذا الضنى.

✶ ✶ ✶

يوسف

كانت كلماته صادمة (مستعد أن أذهب إلى بيتهم .. إلى الكنست.. مستعد للذهاب إلى آخر العالم..) ..

خطاب لم اصدق منه كلمه.. واعتبرته زلة لسان ليس إلا.. وأمرت أن يتغاضى عما جاء به ولا ينشر منه بالصحيفة ولو فقرة.. وكأنه فلتة لسان منه علينا نحن أن نتداركها .. لأفاجأ بأن قرار الرجل فعلا حقيقة وهو ذاهب بالفعل إليهم دون مواربة

ضاربا برأي كل المعارضين والثائرين عرض الحائط ووجه الأرض وتاركا الصدمة لكل من لم يستوعب الغرض و الحكمة.. ولو أن الرد الشعبي والعربي جاء مدويّاً.. بعدما تيقن الجميع من عزمه على تلك الخطوة الغير مسبوقة.. احتمال لتحريك المياه الراكدة.. أو لأن الشعب كان بدأ ينسى نصر أكتوبر.. فكان عليه تبني ما يعيده إلى دائرة الضوء من ثاني..أي إن كان فقد نجح تماما في لفت نظر العالم إليه بدبلوماسية الصدمات الغير متوقعة ورفع شعار سلام القوة.

وجَّه إليَّ اللوم الشديد من الرئاسة لحجب النشر عن الزيارة المرتقبة.. تداركته بكتابة مقالة عن سلام القوة..وما ذهابه إلا لفرض شروطه ..كأي منتصر في الدنيا .. العجيب أن جاءني بعدها مَن عندهم من يخبرني أنه قد وقع عليَّ الاختيار لأكون أحد أفراد البعثة الإخبارية المرافقة.. ياه.. القدس والأقصى وقبة الصخرة والقبلة الأولى.. ومُرَافقة الرئيس .. كان الموضوع كله كالحلم بالنسبة لي ..ليس إلا.. لم أستطع حتى استيعابه أو التفكير جيدا في عواقبه .. أحد المقربين منه حذرني ..إما أن أسافر.. وإما الاضطهاد لآخر العمر وما يندرج تحته من فصل أو استبعاد أو نفي..

لكن وجبت كانت ثائرة.. وترفض ذهابي بشدة..

– طبعا لا .. أكرم لك يا يوسف والله ..

– أعمل إيه .. فعلا لا أستطيع الرفض .. وضعوا اسمي .. وانتهى الأمر

– لماذا .. حكم قرقوش

– قرقوش كان طيب .. ده الرئيس يا وجبت .. عارفة معنى الرئيس..وليس أي رئيس .. هذا السادات بطل الحرب والسلام .. سوف يجعلهم يبيعون ملابسهم..

– واهم .. أمل إبليس في الجنة.. هؤلاء يهود .. عارف يعني إيه يهود .. سوف يمتصوا دمه ودمنا ..ثم لماذا يذهب وحده .. أين فلسطين وسوريا .. أليس لهم نفس المشكلة.. ثم لماذا يذهب إليهم .. لماذا.. هل نسى ما فعلوه بنا.. هل نسى شهداءنا..

بت ليلتي محيراً بين ضميري وخوفي .. وبين خوفي ورفضي .. وبين رفضي وقله حيلتي .. الرجل لا يحب أبدا من يقول له لا.. كل من يصل إلى هذا الكرسي يجن بالكبر والعجب والإيمان بأنه الملهم الوحيد على الأرض.. والعياذ بالله ..من كثرة المنافقين والمنتفعين والراضخين يشعر الحاكم فعلا بأنه فرعون .. لولا أن السادات يصلي .. ومع ذلك رأيه في كل من حوله أنهم حمير وبهائم لا يفقهون شيئاً.. وإن فقهوا لا يقدرون على شيء .. وإن قدروا وهذا هو المستحيل بعينه يكون سبقهم بسنين في الفهم والفعل ..فهكذا هو يقين كل فرعون .. يرى وقت الأغبياء فات وهم يغطوا في السبات .. هذا هو السادات ..نجّيني يارب .. لن أدعي البطولة .. لم يعد عندي جهد .. دفعت من عمري سنين في تمرد وسجن .. ما المطلوب مني بعد .. ليفعل هذا الأصغر سنا والأصح عافية والأقدر عليه .. لكن أنا .. لا .. لا أستطيع ..

ليأتي ما يغير مخططي .. وفرحة ما تمت ..من مصاحبة الوفد الرئاسي لمواكبة الحدث الجلل لحظة بلحظة والأهم دخول القدس والصلاة في الأقصى..وكأن

اعتراض وجبت على سفري ترجم في ثوانٍ.. لتحملني عربة الإسعاف من الطائرة إلى المستشفى.. بعد ركوبها بدقائق معدودة.. لأحرم من تلك الرحلة التاريخية التي سعى إليها الكثيرون وتمنوا حضور وقائعها.. ولأتعرف لأول مرة على معنى الأزمة القلبية وأعراض قصور الشريان التاجي.. وكيف هي اللحظة الفارقة بين الدنيا والآخرة؟.

✶ ✶ ✶

حازم

وقع الاختيار عليَّ لأكون من الطاقم الاحتياطي لطائرة الرئاسة .. الأمر الذي لم أتوقعه بالمرة.. لكن جيهان فرحت به جدا واعتبرته تكريما لي.. حيث أني من أكفأ الطيارين بالشركة.. وإن كنت أنا نفسي داخليا غير راضٍ عن زيارته لهم .. فهو أكبر من هذا.. وإن كان ولابد من التفاوض.. كان المفروض أن هم من يأتوا إليه مذعنين.. وهو يتفضل عليهم بالمقابلة.. هذا حال المنتصر إن أراد المهادنة.. لكن البعض قالوا إنه تورط في الكلمة وكان عليه الوفاء بها ..والبعض ظن أنّه يريد لفت أنظار العالم إليه بعد ما أضحى انتصار أكتوبر ذكرى .. وكثيرون تغافلوا عنه.. بعد ما كان ملء السمع والبصر لفترة طويلة.. والبعض قال إن كل شيء كان مرتباً مسبقا والرجل مأمور من أميركا.. فهي التي وراء مشروع الزيارة وما يتبعها .. وقالوا و قالوا.. ولا أحد يعرف الحقيقة.. غير أني مسافر بالأمر للأراضي المقدسة.. ويكفي أني سأرى الأقصى.. وإن كنت وددت دخوله وهو تحت السيطرة العربية ..

في مطار بن جوريون وقعت عيني عليه ويا ليتها ما وقعت.. رمزي حتة.. الله يخرب بيته وبيت كل من هم مثله .. خيبه الله وأخزاه.. ذكرني بالخسة والنذالة المتأصلة فيه.. وكان يخفيها تحت رداء المواطنة.. حين كانوا يعتبرون أنفسهم طائفة من مجتمعنا..تغير تماما.. ترهل وانحنى.. جراء شظية بالظهر في أكتوبر.. ومع ذلك لقاني فرحا ..مرحبا.. وإن كنت وددت أنا صفعه أو ركله بالقدم.. ولكن ها هو السادات يعطيهم حق المصافحة والمعانقة.. ألسنا جئنا إليهم بأقدامنا.. فمجرد هذا المجيء صبغ عليهم صفة الشرعية.. وأصبحنا نحن الضيوف في بلدنا. عرفت منه أن دان قتل يوم ستة نفسه بقذيفة موجهة ..وأن سجن رفح دمر عن آخره.. دعاني لبيته ولكني رفضت بشدة .. وقابلت وعده بزيارة مصر القريبة بامتعاضه شديدة.. فما فكرت يوما أن يستطيع أحد منهم أن يطأها بقدمه القذرة..

✶ ✶ ✶

جلال

عاد لسابق عهده .. أقل من الزعامة وأصغر من الكرسي .. وكأننا في سبتمبر **70** حين ولي علينا بلا إرادة .. بالرغم من كل مظاهر البذخ التي يعشقها ويهواها ويحيط نفسه وعائلته بها .. بداية من مصاهرة المال والسلطة و قوانين الانفتاح الجاحفة للأكثرية وانتهاء بالولع الجنوني لفاخر الثياب في شكل استعراضي مبالغ فيه لدرجة تحوله لملمح كوميدي .. فكان كل ما يرتديه يبدو خاوياً .. محى الانتصار بوضع يده في يد المعتدي .. وتصور أن هذا يبلغه مأربه على طريقة المذهب المكيافلي..

حسب أن المعاهدة تعطيه قيمة وزعامة وسبق دولي وزخم إعلامي ..فما كان منها غير تفرقة الصف العربي ونزع فتيل فرقة لن تنتهي وسحب رصيده السابق والمتبقي .. وإعادته إلى حجمه الطبيعي .. تابع لكل ما هو أمريكي أو إسرائيلي..

أخرجتنا المعاهدة من الصف العربي وأخرجته هو من النسق الزعامي والتواصل الوجداني مع شعبه وكل الوطن العربي .. فتمزق بين رافض باليد ورافض بالقلب ورافض باللسان..وهو يدافع عنها دفاع المستميت .. ويشحذ أقلاماً وأبواقاً تشترى بالمناصب والمال لنصرة منطقه المغلوط وتوجهه الغريب .. وإسرائيل تملي في اشتراطات .. وتطلب في تعهدات .. وتسحق المطلب الفلسطيني بأقدام السادات ..حازم لم يوافقني هذا الرأي وذهابه للقدس معهم أعطاه شيئاً من الرخاوة وعدم وضوح الاتجاه والرؤية .. لكن رفعت كان معي على طول الخط ..وبحكم عملنا معا في المزرعة لساعات طويلة كنا نناقش هذا الموضوع بغزارة .. كان يشعر أن عينه ثمنها أكثر بكثير من أي مكتسبات مزعومة ومصالحة فردية .. والشهداء لن يثأر لهم غير حرب أخرى تحرر كل الأراضي المحتلة .

✶ ✶ ✶

يوسف

قالت لي أسمع هذا ..

– ومض من بين أستار العتمة.. أنار ثريات الثكلى.. نار بالقلب تلظى.. ألعق عجزي .. جوعى.. ظمئى..... ....

– والعنوان..

– إكليل الشوك..

– موافق من غير قيد أو شرط .. أرسليها للنشر..لكن ألن تكتبي في شعر عاطفي ولو مرة..

– شعر الدنيا لا يكفيك حقك يا حبيبي..

– آه ..اضحكي على بكلمتين مثل كل مرة .. ستبقى أنت وأخوك.. أريد بعض الرومانسية.. ولو أن القارئ تعود منك تلك الكلمات بجانب مقالك الأسبوعي.. أصبحت كلماتك الحماسية علامة على بابك.. لكن أراك تتمادين في مهاجمة المبادرة والمعاهدة ولو بصورة غير مباشرة.. احرزي فهم ليسوا بهذه السذاجة .. والسجون مازالت مفتوحة..

– لن يقوم سلام دائم وعادل في المنطقة قبل حل المشكلة الفلسطينية.. ولن تحل المشكلة إلا بعودة اللاجئين ورجوع الحقوق المغتصبة.. و ها نحن ..إلى الآن ماذا جنينا من المعاهدة..معاهدة ظالمة جائرة باع فيها حق الشعب الفلسطيني بعرض الدنيا .. ليقال عنه رجل السلام .. ويحصل على نوبل..

– كان الله في عونه .. فهو مع من يتفاوض.. مناحم بيجن.. المشارك في أغلب المذابح البربرية التي أودت بأرواح الكثيرين وأكبر معاول هدم الشعب الفلسطيني وحملات التطهير العرقي وأحد دعائم قيام الدولة الصهيونية..

– ومع كل هذا يضع يده في يدهم .. ويستميت في إنجاح المعاهدة .. وهم يماطلون ويتراجعون كأنه يستجدي منهم .. لم كل هذا؟ .. أم أن عبد الناصر عمله عقدة .. وبعد محاولته المستميته لمحو تاريخه هو وكل المنافقين الذين حوله .. يريد أن يلفت نظر العالم له ولو على حساب شعبه وعروبته.. مهما حاول لن يصل

إلى مكانة جمال .. ولو محى اسمه من على منجزاته ونسبها لغيره .. ولو طعن في عهده .. ولو أعتقل الجميع كما في مايو .. الرجل هذا حجمه .. يحتاج من يناطحه إلى صعود الهرم كي يصل إلى قدمه..

– لا تكوني قاسيه هكذا .. الرجل يؤكد أنه لم يذهب إليهم لعقد اتفاق منفردا بين مصر وإسرائيل.. وأنه وضع المشكلة الفلسطينية على طاولة المفاوضات.. بعدما كان هذا مرفوضاً عندهم بالمرة..

– كلام .. والتاريخ يثبت كل يوم أنهم ليسوا أهلاً للثقة.. وغدا سترى.. سوف يجنوا كل مكاسب المعاهدة..وسوف يلووا عنق الحقيقة لنجني نحن منها خسائرها..

– على كل حال كوني حذرة..ولا داعي أن تصنفي دائما أنك من جبهة المعارضة..ولا تنسي ما وعدتني ..

– في العدد القادم ستجد ما تريد .. ولا يكون عندك فكرة..

✶ ✶ ✶

جلال

يبدو أنه لو علم رجل بمحاولة انتحار امرأة من أجله.. سلب كل أسلحة المقاومة.. وفي دخيلة نفسه أصبح لا تسعه الدنيا وصار تابعاً لها.. من يستطيع لومه.. لو كنت مكانه لجرى لي ما جرى.. ولو كانت هدى لهدت الدنيا.. ولو أني أرى أن انتقال جيهان للمستشفى بين الحياة والموت قصة مفبركة.. كقصصي القديمة للإذاعة .. لكن من يستطيع أن يقول له هذا .. كما مع ميج .. التاريخ يعيد نفسه..والقصة

هي ..هي.. فآثرت السلامة ولم أفاتحه..وتركته يستلهم عواطفه ..إلا أن قلبي بات مع المسكينة.. التي ذابت وانزوت و ذنبها كله أنها أحبت هذا الأهوج.. ذا المشاعر الضالة .. لكن فرحتي اليوم لا توصف .. فهي ستأتي وتقيم معنا.. إلى أن تدبر أمورها.. لتزداد دنياي إشراقا.. ويرتحل قلبي مع دوامات المنى..

عند رؤيتي لها في المطار لم أعرفها.. أذبلها الحزن و تكاتفت معه الغربة.. أرتمت في حضني تبكي.. فأذابت معها آخر قلوع المقاومة وصبري على سنين البعد والحرقة .. رفضت الذهاب إلى بيتنا مباشرة وأصرَّت على الذهاب لخالتي عالية لتراها وتهنئتها على زواج من تركها غير عابئ بمشاعرها.. اشتكت خالتي منه كثيرا لتركها هي ونوال التي تحملت عبء الطفلة وحدها ورفضت الزواج بعد مصطفى واختارت بإرادتها طريق خالتي ليلى.. عملها كمدرسة بعد إتمام دراستها ساعدها كثيرا ولكن مع ذلك فالعبء كبير على من ترملت في سنها.. أراها بطلة .. أما هو فقد انطلق في ركاب الزوجة.. فقد كان في إحدى رحلاته معها لأمريكا.. لزيارة أخيها وأمها اللذين استقر بهما المقام هناك لمتابعة أعمالهم التجارية.. وهذا ما تسعى إليه هي الأخرى.. حاولوا أن يبقوا هدى معهم وأنا من خوفي أن توافق كدت أن أنهرهما.. ولكني مع ذلك التمست لهم العذر ولها إن وافقت..فقد عاشت في هذا البيت أكثر طفولتها وشبابها.. لكن الحمد لله.. أخيرا بعد مجاهدة عدت بها..عند وصولنا البيت ظلت أمي تبكي بحرقة ولا تريد لهدى الفكاك من حضنها وكأنها تخاف أن تضيع مني مرة أخرى.. وهدى تشاركها البكاء ولكن بفرحة القادم على حياة جديدة..

– أو لم يكن من الأفضل أن تعيشي معنا من الأول؟..

– فقط لأن كان هناك نوال ونجوى.. هنا وهناك واحد

– أعملي حسابك هذا بيتك وأنا وعمك زاهر ضيوف عندك.. أما الولد جلال هذا.. تطرديه .. تبقيه.. براحتك.. أنت ومزاجك..

– هكذا يا ماما.. يرضيك يا هدى.. أم أنكما اتفقتما؟

وضحكنا و ضحكنا حتى أبي شاركنا.. الذي نسينا ضحكته منذ مدة طويلة.. اعتقد من أيام التأميم وتركي الكلية الحربية..

– لا أعرف ماذا أقول.. طنط كوثر أنا عاجزة عن الشكر لاستقبالكم هذا..

يا إلهي.. هي من تشكرنا .. فماذا أفعل أنا .. هل أظل أقبل يديها وقدميها لأنها قبلت وخطت بهما بيتنا.. أم أظل العمر ساهراً على راحتها فلا يغمض لي جفن أبدا.. أم ماذا أفعل يا حبيبة قلبي.. يا حياتي يا هدى.. يبدو أن فرحتي بوجودها معي ذهبت بالباقية الباقية من عقلي المولَّه في حبها..

في شرفة البهو مساءً جلسنا بمفردنا وظللنا نتحدث.. هي عن جمع المادة العلمية لرسالة الدكتوراه.. وعن فرنسا وأنا عن كتابي الأخير عن فتح الأندلس وعن المزرعة.. حتى أوشك الفجر أن يولد ضاحكا مستبشرا بتجمعنا بعد هذه الغيبة الطويلة.. فإذا بها من الإجهاد تغفو وهى جالسة أمامي ساندة رأسها بيدها على سور الشرفة دون أن تدري.. أخذت يدها كحمامة بيضاء أحتضنها بين يدي.. وظللت ساكناً.. لا أريد لهذه اللحظة أن تنتهي.. ما كان يتحرك فيَّ فقط.. قلبي الملتاع و دموعي.. فلما انتبهت.. أخذت تتلقفها بين أصابعها قبل تسقُّطها وتبكي.. وازداد تشابك يدينا.. وتلاقت عينانا .. وقتها تمنيت بشدة أن أخذها في حضني.. ونبقى هكذا إلى آخر عمرنا حتى يصعب التفريق بينها وبين دموعي ..

لكن مع تراجعي .. ونظرتها الخجلة.. ولمسها القلادة.. وهمسها برقة.. عرفت وقتها فقط أني قد استعدت عروستي الصغيرة..

– موافقة يا جلال ..

– على أي شيء .. قولي..

– على ما تفكر فيه.. وسوف أكون أسعد إنسانة في الدنيا..

– حقيقي.. هل هذا حقيقي..أم أنه وليد اللحظة .. لإشفاقك علي..

– إطلاقا يا جلال.. هذا إحساسي وما قررته منذ مدة..كنت فقط منتظرة أن تبدأ بالمبادرة.. ودموعك كانت الإشارة..

– حقيقي يا هدى.. حقيقي ..ماما ..ماما..

– انتظر.. انتظر.. لا توقظها الآن.. في الصباح نخبرها ..

– سيكون أجمل صباح مر عليَّ من يوم ميلادي.. يا حبيبة قلبي وتوأم روحي..

– كفى يا جلال.. أيقظت الدنيا.. كفاك .. ما هذا..

– دعيني أفرح يا حبيبتي بما انتظرته سنين عمري.. منذ حملتك وليدة على يدي.. دعيني..وادعي لي أن أستطيع إسعادك بما في قلبي لك..

– يكفيني حبك يا حبيبي..

✶ ✶ ✶

جلال

هل كان يستحق هذه النهاية الدموية والتصفية الجسدية أمام أعين العالم.. هل هذا فعلا حكم الدين فيه كما قال منفذوا عملية المنصة.. هل كان الحزن عليه كافياً

..أم لم يكن كبيرا لأنه جاء بعد تعمده معاداة كل القوى السياسية والدينية قبل أيام قليلة من اغتياله.. فبات الجميع سجناء قراره الغير عادل والغير عادي والمعادي لكل الاتجاهات والطوائف.. هل راح ضحية تجبُّره أم تهوّره أم تكبّره.. هنا حزنوا عليه كثيرا .. أكثر من مصر .. فهو صديق أمريكا الصدوق..ومن قبلها إسرائيل..وإسرائيل حين تحب.. تحب أمريكا .. وأميركا حين تحب .. تضفي على أوليائها الصفات الجليلة .. جيهان أيضا حزينة .. وجميع العائلة الكريمة ..والدتها وحاتم .. حتى منار التي أحيانا كانت تظهر بعض المشاعر الوطنية .. فالمعاملات التجارية لهم هناك في خطر مع التحولات السياسية في المنطقة كلها ورأس المال جبان والجميع يخاف القادم .. وإن كنت أطمئنهم .. فالقادم لن يختلف كثيرا..

✶ ✶ ✶

يوسف

كذب كل ما قالوه عن تعذيب الأسرى اليهود بعد حرب **73** .. أشهر الأسرى من ناحية الرتبة..ملاح الفانتوم..وعساف ياجورى .. قائد لواء مدرع ..ادعى أنه ضرب وعذب ..وكل ما قاله افتراء وكذب..ميثاق الشرف المصري يلتزم ببنود اتفاقية جنيف لحماية الأسري ومعاملتنا لأسراهم مثال يحتذى وبمقارنته بما فعلوه مع أسرانا ومع واحد مثل حازم مثلا.. كما حكى لي .. فإنهم ولابد يعتبرون مجرمي حرب وسفلة.. هذا ما ستتضمنه سلسلة مقالاتي القادمة لكشف تجاوزتهم

وانتهاكاتهم البشعة.. مما أسعد وجبت وقالت .. هذا هو العمل الحقيقي .. ولأؤجل عملي الروائي لبعد الفراغ من هذا الذي أراه أهم من حياتي..فقد تغيرت الحياة كثيرا في نظري..فالدفاع عن الحق ونصرته أولى كثيرا من أي تلألؤ في سماء الشهرة والإعلام وأهم من أي مجد أدبي.. هكذا علمتني من تشاركني حياتي في غاية من التوافق الفكري والعاطفي ..

وها هي حبيبة قلبي جاءت قائلة

– أسمع هذا .. للأقصى دوما شهداء ..

– أهذا هو الشعر الذي وعدتني من سنين ..كل شعرك لفلسطين.. أين الرومانسية والشعر العاطفي والكلام عن المشاعر الملتهبة والعواطف الجياشة .. وكل يوم تقولي لي بكرة .. لا هذه مؤامرة..ومؤامرة مخيفة وعنيفة .. تستهدف قلبي المسكين .. أم تحسبيني نسيت..

– مؤامرة ومخيفة وعنيفة .. تستهدف قلبك المسكين .. يا حبيبي لقد كبرت على هذا..

– من .. من هذا الذي كبر؟ ..أنظري إلي .. ماذا تري؟

– أرى قمراً..

– ربنا يكرمك .. لكن من أين أصرف هذا؟

– من قلبي المتيم.. أيجب أن أملأ الصفحات بأني أحبك حتى ترضى؟..

– وما المانع؟ .. زيادة الخير خيرين ..

– هكذا أنا أحبك بلا صراخ ولا ضجيج ..هذا هو حبي لك لو كان يعجبك .. كما حبي لوطني .. ولفلسطين ..هو الحب ذاته .. الذي يجب أن يعيشه كل منا.. فهل تختلف معي أم توافقني؟.. ولكن ليكن .. احتمال الأسبوع القادم أكتب عنك يا حبيبي..

– ومتى اختلفت معك.. سيري على بركة الله..ولأنتظر أنا منك شعرا آخر إن صدقت .. ويكفي أني أنا أكتب فيك كل يوم قصيدة يا مهجة فؤادي .

و هيا للعمل ولنفتح ملف الأسرى في **67**.. وكم فيه من بشاعة وخسة.. من صوب إليهم الرشاشات وهم مكبلون داخل العربات اللوري..مجزرة وفضيحة إنسانية تضاف إلى مجازرهم وفضائحهم المعتادة.. وكأنهم فوق المساءلة.. وفوق الشرائع والأعراف الدولية..إلى متى ستظل هذه الشوكة اللعينة ومخلب الذئب الاستعماري.. تهد من عضدنا.. وتدمي قلب الكيان العربي..

✶ ✶ ✶

وجبت

وصلني خطابه أخيرا..

أختي الحبيبة ..

أكتب إليك من أجمل بقاع الأرض قاطبة.. عروس فلسطين وزهرتها.. الموطن والمنشأ وأقدام الأجداد التي مازالت حية وأريجها يسعى على كل شبر فيها..وهى

وإن كانت في الأسر .. وإن كانت في المنفى.. إلا أنها لا زالت حية.. و تصرخ أنا عربية .. أنا إسلامية.. بلون السماء وغبار الأرض والبيوت على الروابي الجبلية.. يافا حبيبتي..كما أنت وأمي وزوجتي والجنين الآتي ومفتاح البيت القديم المعلق في صدري.. منذ علّقه أبي وقال من كل الوطن.. هذا الباقي .. اليوم أعود لجمع عظام جدي وعمى..من على أعتابها رأيت بقلبي وعيني دماءهما تروى ثراها.. ينبوعها الدامي لم ينضب.. ولم يزل يروى .. حتى عندما أغتيل أبى في بيروت كان التكملة لهذا الميراث الأزلي.. ولم يبقى غيري.. وأنت يا حبيبتي.. تُرانى أكون مبالغاً لو قلت أبيع عمري كله لأعيش فيها يوماً واحداً كمواطن حر عربي.. لا والله فهي تستحق هذا وأكثر مني ومن كل فلسطيني..أعرفك فلسطينية أكثر مني..و سوف تدركي مشاعري ..يكفى مقالاتك وأشعارك..

بطريقة فظة منعوني الكلاب أن أدخلها.. حجزوني كالعام الماضي مع أن جواز سفري بريطاني.. بات استعمال الأيدي والأسلحة الخفيفة شيئاً عادياً.. أقتل أولا ثم أبحث عن السبب.. لن تلام مادام المقتول فلسطينياً.. الفلسطيني الطيب هو الفلسطيني الميت .. من حيث أتيت أعادوني..لكنهم سمحوا لعودة بالدخول هذه المرة بمناسبة الألفية.. قال يعني عندهم دم قوي .. كانت هي كل أملها رؤية بيت جدي. في طريقها إليه جاش في صدرها كل مراثي أبي وعمتي .. هناك في بيت قديم مازال قائماً ويسكن فيه بعض من عائلة الديواني حكت السيدة نسيبة التي تخطت الثمانين لعودة كيف كان منزل جدنا في الجوار لمنزلهم على امتداد شاسع من الأراضي المزروعة بأشجار البر تقال الذي ليس له مثيل في الدنيا.. نقياً كنقاء الدر المروى بدموع جنيات البحر.. هل تتخيلي.. وفي آخرها المسجد الصغير

الذي بناه جدي..كل شيء دمر بالكامل على يد الصهاينة منذ أكثر من خمسين عاما إلا هو.. لم يبقَ منه إلا أطلال باتت تبكى .

لقد دمرت بلدية تل أبيب أغلب المنازل والأبنية في حي العجمي .. وأغلب مباني منطقة المنشية حتى لا يستطيع أصحاب الأراضي والمنازل العودة وحتى لا يستطيع الآلاف إثبات حقهم في أنهم يوما عاشوا هنا.. لكن آلاف الشباب يحملون مفاتيحهم مثلى ليقينهم أنهم لابد يوما عائدين ولابد أن ذلك اليوم سيأتي..أما الجامع الكبير في أبعد نقطة من الحي الذي بناه الحاكم العثماني سنة 1916 مازال قائماً في مكانه مشرفاً على شاطئ البحر بمئذنته العالية وعمارته الإسلامية ليصرخ في وجوههم كل يوم بعروبته..حاولوا بشتى الطرق هدمه وتحويله لشيء آخر لتكمله سلسلة الطمس المتعمد لكل ما هو عربي وإسلامي ..كل الأسر الفلسطينية المقيمة في الخارج ساهموا في ترميمه منذ عام 1980 .. وأعيد لحالته الأولى لكن الملاعين وضعوه تحت الحصار ويعوقوا إقامة الصلاة فيه حتى أنهم حاولوا حرق المصلين فيه منذ يومين..كل أملى يا أختاه أن أعود لوطني..أهلكتني الغربة وفراق الأحبة فما أبقت منى..أثقلت عليك بآلامي وعجز إرادتي واختنا قات تلاحقني.. أموت شوقا لرؤيتك.. ليتك تأتى.. متى ينتهي فراقنا .. متى نلتقي يا شقيقتي وأمي الصغيرة وابنتي..أخيرا لك قبلاتي ولحبيبي الغالي عمي يوسف ولكم حبي وحب زوجتي والآتي .

أخوك المحب

عبد الله وجيه العيله

أطوي خطابه بين أحضاني .. آه يا حبيبي لم تعد دموعي كافية لتلقي شجونك وآلامك.. ولا زفراتي وارتعاش خطابك في يدي..آه يا أخي وأبي وولدي..أشفق عليك يا أبن أمي مما تلاقى .. أوجاع سرت في صلب آبائك وها هي تلاحقك.. ميراث لا يريد أن ينضب أو ينقضي ..حديثه لي كأبيه منذ سنوات.. لا فارق هناك.. لاجئون ومشردون.. في الهم سواء .. مثلما جمعوا كل رجال البلدة وأعطوا وجوههم لحوائط المنازل.. وانطلقت رصاصات عصابات الهجنة لتستقر في أجسادهم.. ليرى أباه وأخاه البكر صرعى ولولا أنه لم يدخل طور الرجولة وقتها لكان معهم .. فتى السابعة عشر.. أودت صرخته لإنقاذ ما تبقى من تلك الأسرة..أم في يد وأخت في الأخرى.. طفلة السابعة.. وفي الطريق الطيني.. مع آلاف النازحين هربا من هذا المشهد المضني.. جريا إلى الميناء.. والوطن في الوراء.. جيد غادة نحر ومثل بها على الطرقات .. والسعي إلى المجهول وسفر الشتات.. وفقد ما تيسر وما يستر.. تاركين كل شيء وراءهم ليفروا فرار الهارب من الطوفان الذي طال الكل.. ومنه إلى رحلة الخوف والجوع واليتم..وأنين الأم الثكلى على سطح سفينة يضربها الريح والموج..براثن العدوى بين الأجداث المتراصة دمر الرئة.. واشتياق الدفء والفراش والحجرة المغلقة .. ليخفت الأنين .. وعلى الشاطئ الحجري في خيام العراء جاءت الحشرجة لموت سعى ليفترسها .. ليبقى وحيدا هو والصغيرة التي أبت أن تفتح عينيها لمدة شهر..لاصقة وجهها بصدره حتى ظن الجميع أنها عميت إلى أن جاء من يخبرهم أنه من جراء الصدمة جاء تصرف اللاوعى..ليبدأ عهد الضياع واللاشيء والحياة من تحت الصفر.. وما حاول إخفاءه بالقوة والصبر كان يظهر عليه أحيانا.. الخوف ولا شيء غير الخوف.. لكن الدمع لم أره في عينيه إلا وهو يحكى عن المذبحة .. والإطار الواحد لصورة سوداء

كل ما فيها صدى للهوان والقهر.. من خرج ومن مات دون أن يودعوا التاريخ المسطر ودون أن يجدوا ملجأ من سماء أو أرض.. وليبقَ لقب لاجئ كسبة في جبين كل من كان له في هذه المأساة الإنسانية يد ..من وجدوا أنفسهم لا حول لهم ولا قوة أمام الوحشية والبربرية والسادية.. دير ياسين الجرح وما سمعه على ظهر الباخرة أنطونيا من قتل وهتك عرض..كل من كانوا بتلك البلدة.. أكثر من مائتين وخمسين شخصاً أبيدوا عن أخرهم.. كيف لضمير العالم أن هجع بعدها ..كيف..

آه .. السفاحين.. القتلة.. اعزوا لها الفضل في قيام دولتهم بعد انتشار أخبارها في كل أنحاء فلسطين وكانت مدعاة لهجرة المئات ممن تبقى في القرى المجاورة هربا بأنفسهم من هذا المصير الصعب.. فقد جردوا النساء من ملابسهم وداروا بهم عرايا.. أكثر من خمس وعشرين سيدة حامل بقرت بطونهن و قطعوا أطفالهن أشلاء..لو كان وقتها أقمار صناعية وإذاعات لفاقت أحداثها ما حدث في أي حرب أو تطهير عرقي لشعب.. بعدما أحرقوا الجثث وضعوها في المسجد ومنعوا الصليب الأحمر ومندوبي الأمم المتحدة من دخوله بحجة أنها منطقة مقدسة لكن رائحة اللحم المتفحم أفشت السر..

ست عقود من النكبة لا وبل منذ مشروع الاستيطان المذعن منذ سنة**1900**.. وعصابات الهجنة وارجون وإشجن وهيزل وشتيرن.. اختلافهم في كل شيء إلا غاية واحدة.. ألا وهي سحق المقاومة والقمع والإبادة التامة لشعب أعزل بعضه من جيل النكبة غادره حتى حلم العودة.. لكن ما جدوى إدانة اتفاقيات جنيف الأربعة لسجل الإرهاب الصهيوني تحت الإدارة البريطانية.. فالمحصلة .. مذبحة كفر

قاسم وحيفا ويافا والطنطورة ومذبحة القدس.. ليغادر أكثر من 80% من الفلسطينيين أراضيهم وحصر الباقي في أقل القليل من الأرض بعد الاستيلاء على ممتلكاتهم وبيوتهم التي لم يبقَ منها غير مفاتيحها في الغربة تنتظر العودة ليبنى لها دورا أخرى.. وليتضاعف عدد اليهود بشكل يومي ولا تتوقف سفن المهاجرين منهم عن قذف ما بها من القتلة والسفلة..حثالة الأرض وخبثها.. على أرضنا المقدسة.. ولتهدم خمس وثلاثون قرية وتمحى من الذاكرة وطرد خمس وثلاثين ألف فلسطيني دفعة واحدة..

سبع جيوش عربية ما استطاعوا دفع الأذى أو إعادتهم لغياب الهمة والافتقار إلى التنفيذ المحكم والخطة المشتركة وعدم الالتزام بالوحدة والتنسيق بين قيادتهم المختلفة.. طبعا.. وهل جلوب باشا الإنجليزي قائد الجيش الأردني كان مع وعد بلفور أم كان معنا .. والسلاح الذي عاف علية الزمن ففسد وعفن وحين استخدموه قتل أبناءنا.. و.. و.. مسكين يا أخي بحمل ميراث الثأر وميراث الدم الذي لا ينتهي..واليوم مخيمات اللاجئين الكثيرة المنتشرة.. في الأردن عشر.. فيهم ثلاثة ملايين وسوريا عشر.. فيهم 450000ألف ولبنان عشر.. فيهم 420000ألف والضفة تسعة عشر..فيهم 750000 ألف وغزة ثمانية.. فيهم 950000ألف لاجئ تحت خط الفقر والعوز لكل ما هو أساسي جدا لسد رمق وستر أجساد هؤلاء المساكين العراة الجوعي.

✶ ✶ ✶

جلال

من لم يحزن على الشيخ الشهيد حبيس العجز والضعف والمرض ورائد المقاومة ومشعل الانتفاضة والفارس و العملاق والتنين في وجه الكيان الصهيوني .. الشيخ أحمد ياسين.. الجبناء اغتالوا الرجل القعيد الذى كان من الضعف بحيث عجز جسده الشريف عن النهوض.. ومع ذلك علت قامته رجالاً بكلابيب وذخيرة وآليات حربية حديثة أتت من كل مكان مناصر لإسرائيل لسحق كل من تجرأ وحمل حجرا يذود به عن نفسه وعن أرضه وعن عرضه ويجابه به الترسانات الحديدية. فلولا الانتفاضة الأولى ما سمعنا بحق أي فلسطيني في أرضة فما كانت إسرائيل تسمح حتى بالتلفظ بهذا حتى ولو على سبيل المناقشة.. ولولا الانتفاضة الثانية ما وصلوا إلى أوسلو.. وأصبحنا بعدها نتكلم عن دولة فلسطين التي عاد لها مكان على الخريطة ..وإن كانت فلسطين لن تعود لا بأوسلو ولا غيرها من الاتفاقات والمعاهدات المزعومة ولكنها سوف تعود بالكفاح ومناهضة العدوان ومحاربه العدو الصهيوني فما اخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة..

وها هو شهيد فجر آخر كالشيخ عبد الله أمين وإن كان بينهما أكثر من ثلاثين سنة من عمر الجهاد مضوا كلهن في كفاح وبذل وعطاء و امتلأن بسيرة الشهداء والمجاهدين.. فالدماء لا ينسيها التقادم ولا السنون.. ولكنها تظل زكاة وطهرا إلى يوم الدين .. رحم الله الشيخين وأسكنهما فسيح جناته والمتسع من الرياض مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الشيخ عبد الله أنار لي دربا كانت كل خطواته لي الخير الجزيل.. وما كنت أدرى

أني سأعشق هذا الدرب وسيصبح لي الطريق الذى سأكمل فيه المسير.. منذ تبينت ملامحه لأول مرة على أبواب السويس .. فجاءت مطابقة تماما لما سمعته عنه من الجميع..كان مهيباً بالرغم من رقة الحال.. بعينيه الصادقتين ليغرق كل من يراه في رغبة جامحة في اتباعه والاستماع إليه.. فمنذ رافقنا من المسجد إلى بيته لتناول الغذاء أنا ورفيقي المصور وأخذ يحدثنا في كل شيء حتى وكأنه يعرف ما بداخلنا ويجاوب عليه لأصبح في وقت قليل من مريديه..لأتبدل وأتغير وشمس المعرفة تشرق فيَّ هادية وأقمار بكل أنوار الدنيا تضيء لياليا مع شيخي الذي أحببته من كل قلبي ليحتل فيَّ مكانة تسبق مكانة أبى..مكانة المعلم والداعية ..أول من استمعت منه ما يشعرني بالفخر لكوني مسلماً.. مصرياً.. عربياً .. وعلمت أن الإنسان بالعلم وحده كمن يسير بقدم واحدة..وما يزيد الإيمان إلا الذراع قوة والقلب رحمة.. كان حزني عليه يوم واريته التراب حزنا على نفسي .. فإن كان هو انتقل لدار خير ..فأنا لازلت هنا أخطو خطواتي الأولى من دون مرشدي.. في آخر لقاء بيننا أوصاني على حفيدته وأن أرعاها كأختي.. فقد كان حبه لها طاغياً.. استشهاده بقذيفة من طائرة عمودية صهيونية وقت خروجه لصلاة الفجر كان الباعث على اتقاد الروح الحماسية في المدنيين والعسكريين المتواجدين بالمدينة على السواء.. لتنفذ بعده أكثر من عملية استشهادية ..تذيق العدو نار الكرامة المهانة..

عدت بعدها لأنخرط في الدراسات الإسلامية بداية من سيرة سيد المرسلين وإمام المجاهدين القائد والقدوة إلى الصحابة والتابعين وتاريخ الفتوحات المظفرة وكيف انتشر دين خير الورى في كل ربوع الدنيا.. وبدأت مؤلفاتي في هذا المجال في الانتشار وأصبحت عضوا في اكثر من مؤتمر إسلامي ودعَوِي ونذرت نفسي لنشر

الدين ونصرته على قدر جهدي بجانب رعايتي لمزرعتي الصغيرة التي شاركني في تنميتها رفعت بعد أصابته في الحرب وعدم استطاعته الطيران مرة أخرى.. الإصابة التي حرمته من خطيبته التي رأت أنها لا تستطيع العيش مع زوج بعين واحدة.. وكأن ما تراه عين لا تراه الأخرى.. فكان رده هو أيضا انه لا يستطيع العيش بقلبين في جوفه .. فما حبه الحقيقي إلا لجارته وحبيبة عمره.. عقيلة ..نزيلة المصح النفسي و التي مازالت تحت العلاج إلى يومنا هذا بسبب قسوة أهلها عليها و رفضهم أن يتزوجا..كان في بادئ الأمر عائد المزرعة والمنحل مع ما يأتي من بعض مؤلفاتي يكفى حياتي مع هدى وصغيري لكن مع متغيرات الحياة والغلاء الطاغي ومرض جنة وما تبعة من علاج بالخارج اضطررنا إلى بيع أجزاء كبيرة منها ولم نُبقى أنا و رفعت إلا على خمس أفدنة والمنحل وبرج حمام لتعلق محمود به منذ الصغر .

في تلك الأثناء ظهر نور جديد للأمة.. التي لم تعدم إنجاب الأئمة.. ليجدد لها دينها ويؤلف القلوب حوله وحول قرآن الله العظيم ويعلم ويفسر ويوضح لكل المسلمين ما أخفى عنهم وما تشابه عليهم.. ليصبح جميع المصريين تلاميذ للشيخ محمد متولي الشعراوي.. عن حب وعن صدق.. فكان نعم الإمام لتلك المائة عام. ..منذ رأيته ملأ وجداني وأصبح حديثه أحب إليَّ من أي كلام..تابعته في أول الأمر عن بعد ثم اقتربت واقتربت حتى أصبحت كتابعه..وحلَّت عليَّ البركات بهذا التغير وهذا الحضور وفتح الله على فتوحات عظيمة في فهم الدين وحفظ القرآن وفى العمل الخيري الذي ساندتني فيه هدى بجهدها وبعقلها ووجبت بقلمها وبأكثر مالها.. أعجبتني آخر كلماتها لروح الشيخ الشهيد وإن كنت لا أصنفها شعرا.. فالشعر عندي هو المقفى على رأي الدكتور عبد البديع حلمي أستاذي بكلية

الآداب والناقد الفني بأكثر من جريدة .. ولكن ما يعجبني فيها روحها الثورية ودفاعها عن القضايا الكبرى التي تمس صميم الأمة.. حقا..

لو أن النساء كما عرفنا لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فضل للهلالِ

..حتى أنها تبرعت بالمستشفى التي بناها والدها كمشروع استثماري وكان يطمع مجدي فيها وحاول اقتناصها منها أمام حريتها لولا تهديد يوسف وهي الآن تحت رعاية هدى تخدم قطاعاً كبيراً من المحتاجين للرعاية الصحية ولا يجدون ثمنها ..واستطعنا معا و بجهود أهل الخير بناء جامع صغير على قطعة من أرضى ملحق بها دار لتعليم القرآن ومشغل للفتيات وفصول لمحو الأمية ودار للأيتام مازلت اشرف عليه حتى الآن .

✶ ✶ ✶

هدى

انسحبت مسرعة متعللة بالرغبة في الاختلاء بنفسي .. والحقيقة..كي أداري غيرتي الشديدة عليه.. حتى بعد ما تخطى الأربعين بمدة.. وكي لا أصرخ فيها ناهرة..ابتعدي..الغريب انه أزداد بسنين العمر وسامة وجاذبية..وأصبح مكتملاً في كل شيء.. حتى مرض السكر الذي لا شفاء منه.. بفضل من الله اختفى.. ما لم نجد له تفسيرا طبيا..وهو يقول إن قربي منه كان الترياق من كل أوجاعه والدواء

ولكن طبعا من الله الشفاء..حتى الشعيرات البيضاء القليلة في رأسه ولحيته زادته حسنا ونورا..عيون النساء لا تنحصر عنه..في الشارع..في مكتبه.. في النادي..خصوصا بعد ظهوره في بعض البرامج التليفزيونية.. الغيرة التي أسعدتني وعلمت منها أن الذي يربطني به ليس فقط الاختيار العقلاني والنصيب والأولاد والعشرة ولكن هو العشق والهوى .. ولم لا وهو من هو في طيبته وشهامته وحنانه.. حياتنا وشَّاها بالمودة والرحمة.. وأيامنا كساها بالطمأنينة والاستقرار والفرحة.. لم أر في عينه يوما نظرة تذمر أو عدم رضى.. ولم أسمع منه يوما لفظا نابيا أو تهكماً أو معاتبة.. مسخر لإسعادنا ولو على حساب راحته.. ومتباهٍ بنا بل وطالع بي وبأبنائنا السماء.. هذا ولا شك من رضى أمي.. والهدية التي انتظرتها من فضل ربي. فبالفعل غرت عليه منها وهي تحدثه بتلك الحفاوة والمودة.. ولم أستطع مداراة حنقي عليها..مالها وماله.. لم تقل بلسانها أنها معجبة به ولكن عيناها قالتها..

– حقيقي.. لا يوجد مثلك يا أستاذ جلال.. وحديثك بالأمس كان في منتهى الروعة.. ليتك لا تحرمنا من تلك الندوات القيمة..

✶ ✶ ✶

حازم

في الزواج الجمال والقبح يستويان يقودهما جواد التعود والمصاحبة والاتلاف.. كما الزمان والمكان .. حتى أنه ليصبح هو وأنت شيئاً واحداً لا يختلفان.. جمال جيهان المبهر والذي تضيع فيه الكثير من الجهد والمال بالنسبة لي كأنه ما كان..

كالهواء والماء بلا طعم ولا رائحة ولا ألوان.. ولكنهما ضروريان جدا للحياة.. أبحث فيها عن الشريك وعن الوليف وعن التفاهم والعقل الذي يبث موجاته على أثير ترددي.. حتى عن الحديث العادي.. مجرد الكلام.. حتى ولو كان فاضي وليس له معنى.. فلا أجد غير صمت الغربة.. ووحشة الوحدة في البيت والعمل والبلد.. أمريكا.. لوس أنجلوس.. شيء رائع لمن لا يعرف.. والبنتان في وادٍ آخر.. تسبحان مع أو ضد التيار..المهم أنهما تسبحان علهما تصلان إلى بر الأمان.. آه.. لو أجد لهما زوجين مصريين..فأريح بالي من خوفي الشديد ولا يصبح لي صلة بالهواجس والمخاوف من قريب أو بعيد.. بعكس الولد.. عشقه للطيران فصله عنا وزواجه من يابانية عمق الهوة.. أحفادي بعيون ضيقه جدا.. ولكني أعلم أنهم يرون أفضل كثيرا مما أرى.. بل ويعلمون أشياء كثيرة لا أعلمها .. لكن بصفرتهم يشعرونني أنهم مرضى.. إنهم حتى لا يحفظون الفاتحة.. ولا يعرفون كلمة واحدة عربية..

اختلاف المفاهيم والأخلاقيات غول كاسح.. كيف أقول لابنتي لا تكلمي شاباً وهنا الفتيات من سن الرابعة عشر سيدات.. آه لو محمود يأتي ويتزوج هيدي ويعيش معي هنا كابن لي.. لكنه ابن بار لها ولا يمكن أن يعقها.. فلأفكر في العودة أنا والبنتان ولكن من سيسمح لي.. جيهان أم أمها أم أخوها.. أم حتى البنتان بالرغم من أنهما أقرب لي منها ومطيعتان .. ولكنهما ولدتا هنا.. و هنا أمهم وأصدقاؤهم ودراستهم ومستقبلهم..فكيف لي أن أحرمهما كل هذا لكوني غير

مرتاح.. ثم ماذا سأفعل أنا بحياتي بعد الستين هناك..أجلس في النادي وأقابل الأصدقاء.. لكن هذا ما أريد..و أريد العودة أكيد ولكني أخاف..

✶ ✶ ✶

وجبت

يا شمس الشرق أترتجفي.. بوحي بضيائك واعترفي.. بعينيك الحيرة تتسأل .. من منكم أهداني حتفي..... ....

كلمات طافت بخاطري.. صحبتها دموع مقهورة على الشقيقة التي وقعت ما بين ليلة وضحاها أسيرة.. وبعدما كانت القدس هي الطامة.. انضمت إليها بغداد الحزينة.. ترى على من الدور يا عواصم البلدان العربية.. دمشق أم الخرطوم أم طرابلس أم القاهرة..وما الذي يدبر لنا .. ومع ذلك لا يتحرك عربي واحد ينم عن مساندة حقيقية .

ثم أين هو وأين ذهب.. هل نزل أم صعد.. صدام العراق .. من رأيناه في بداياته بطلاً ..ومن بخديعة أمريكا خدع .. وكان الذريعة في دخولهم الخليج وعاصفة الصحراء وجحيمها الذي هب .. فطال بترول الشرق وأغنى على حسابه الغرب .. ليس من لحب لشخصه أحزاني.. بل لعروبة تنتهك.. آخر صوره المرئية ..على الكتف اليمنى صغيرة تلعب وعلى الأخرى بندقية في وضع المستعد .. وحوله

الكثير من الرجال.. منهم من وعد بانتصار لم يتصوره أحد.. وبعد ساعات تعد .. قالوا اختفى.. بل هرب.. بل ترك الجمل بما حمل.. ولن نراه ثانية مهما حصل.. كيف وأهل بيته يقتلون.. أيترك أولاده لينجو بنفسه.. ليظل سؤالي طول الليل.. ليلة التاسع من إبريل المنقلب.. رأسا على عقب .. والقوات الأمريكية.. تمثل السيناريو الموضوع كما كتب.. لا كلمة أزيد ولا كلمة أقل..ويوسف من تكرار الأسئلة ومني ..ومن انفعالاتي الغير واعية.. ضجر و تعب .. لكن يقيني كان.. مازال هناك بقية.. التاريخ لا يمكن أن يسطر إلا ما يذهل العقل.. ليأتيني الجواب في شكل حلم .. الشمس تغرب في البحر .. رويدا ..رويدا.. ولكنها سوداء قاحلة من غير ضوء.. وبعد اختفائها تماما في الماء.. تعود فتصعد فجأة.. حمراء متوهجة.. ثم شقراء متأججة.. ثم بيضاء ناصعة.. لتضيء الدنيا وأقوم هلعة .. فزعة.. وأردد ما هذا.. ما هذا.. ببكائي الذي لا يريد أن ينقضي بالرغم من محاولات يوسف لطمأنتي وتهدئتي..

– خائفة يا يوسف.. هل من الممكن ما حدث في بغداد يحدث عندنا.

– كل شيء جائز إذا لم ننتبه.. لكن المؤكد أنهم سوف يجعلوها الأخيرة.. تسبقنا في مخططاتهم بلدان أخرى.. نامي يا حبيبتي واهدئي ..ليس كل حلم تعتبريه حكاية.. صدام انتهى كفاك بكاء ..يكفي ما سمعنا اليوم و رأينا.

– لا يا يوسف .. صدام سوف يظهر ..أنا متأكدة ..

✶ ✶ ✶

حازم

روعني أن يكذب ويدلس.. من كان شاهدا ومشاركا في أسرع عملية بيع وشراء.. لقد مضى على العقد أمام عيني كشاهد أول وأنا كشاهد ثاني.. يومها لم أستطع العودة للبيت مباشرة.. فذهبت لجلال .. هو من كنت أريد رؤيته لأشتكي له ومنه.. فهو السبب في ملازمتي لمجدي أكثر من ثماني ساعات كانت كالجبل على القلب..بل إن هذا المال الذي يريد اغتصابه من وجبت الآن هو الذي كان يدافع عنه منذ سنوات باستماتة حين كان سيسلبه إياها.. أما اليوم فهذا المنافق الداعر يريد أن يبيعها هي نفسها لو استطاع لمارجريت حتى يرضيها .. أكيدا أمام حفنة من الدولارات كما هي عادته وكما هي عودته.. سمسار العمليات القذرة..لم أعرف يوما لعلاقتنا مسمى في قاموس العلاقات الإنسانية.. هل هو صديق أم نسيب أم مجرد معرفة أم أنه لا شيء على الإطلاق.. مجرد شخص ساقته الظروف ليكون بيننا باستمرار ولا نستطيع منه فكاكاً.. و بالرغم من كثرة ما فيه من مميزات كسرعة البديهة وخفه الدم الغير متعمدة والذكاء و إغاثة الملهوف ما دام ذاك لن يكلفه مالاً أو مشقة إلا أني سعدت جدا عندما رفضته نوال.. فثقله كان يخنقني ..فما بالك لو أصبح زوجا لأختي..وعندما رأيت تقربه لهدى كدت أقتله.. لكنى رأيتها قد تكفلت بهذا.. فقد طردته كالكلب الأجرب يلعق جراحه.. ومع ذلك كنت أحيانا أشفق عليه .. شاب مثلى ومن حقه البحث عن شريكة.. لولا أن نواياه الطامعة دائما هي ما كانت تقلقني.

الحقيقة أني لم أحبه يوما من قلبي.. ولم يحدث طوال السنين السابقة أن تصادقنا بالمعنى الحقيقي..حتى بالرغم من زواجه من منار الذي جعله أكثر قربا والذي

أعادنا نسيبين مرة أخرى.. لكن لوجوده بمصر بوجودي الدائم بأمريكا خفف من أي احتكاك بيننا أو أي معاملة التي هو فيها مثال للانتهازية.. وهو دائما مستكثر نعمة الله على خلقه وليس علي لسانه إلا انظر كيف صار هذا وكيف صار ذاك ولم وصل هذا لهذا ولما وصل ذاك لذاك.. شيء حقيقي يتعب الأعصاب..ومع هذا اختارته ليكن ثالثنا حتى قبل أن تعرف برفض جلال الغير مبرر وقتها للسفر معنا ..

– يريدون قتلى.. كما قتلوا أبي ..لابد من رحيلي لفرنسا.

– فرنسا؟ .

– هناك إيلي.

– لماذا؟ ماذا فعلت؟ ولم كل هذا التعنت معك؟ وماذا جنيت حتى ينقلب الجميع عليك؟

– لم أفعل شيئاً.. أنت تعرفني.. أحلف لك.. ولكني مازلت احسب على طائفتي.

– اهدئي يا حبيبتي لا تبكي..أرجوك.. لنتزوج وقتها لن يمسوك بسوء..سوف أكون أنا في المواجهة..كيف أتركك ترحلين ..

– حتما سوف أعود ..فهذه أرضي وهذا وطني. لكن الآن حاول أن تجد لي مخرجاً من ورطتي ..

– أنا تحت أمرك .. بماذا تأمرين؟

– أرجوك ألا تتخلى عنى.. أريد بيع ممتلكاتي في بور سعيد..لتسافر معي غدا ..أريد بسرعة مشترياً للأرض والعمارات واستوديوهات التصوير والسندات و..

– والمال كيف ستخرجين به؟

– لا تقلق.. عندي من يخرجه بعد رحيلي.

– ليكن.. لا تقلقي.. سأدبر الأمر مع جلال..

– لا ..أفضل استشارة مجدي.

– كما تحبين.

رأته أقدر الأشخاص .. فأنا أفتقد ما لديه من خبرة في كتابه العقود وتلك المبايعات.. فهو يدرس القانون كهواية ليعرف كيف يتهرب من الضرائب وينجو من المخالفات..وفعلا أتم المهمة بكفاءة بالغة وأوجد لها المشترى وحسب رغبتها بأسرع سرعة..

عرفته في أحد النوادي الليلية.. رجل ظريف وبح بوح.. غني جدا.. فؤاد الديب.. تسمع عنه..

– لا

– من بورسعيد..كنت مدعوًّا ليلة رأس السنة.. وهو كان على طاولته وحوله رجال كثيرون ونساء.. فجأة شعر باختناق وكاد يلفظ أنفاسه.. لولا وجودي طبعا.. أخرجته للهواء وظللت معه حتى أفاق.. في فندقه على النيل بعد ما صحبته إلى هناك بدأت بيننا صداقة ومصالح إلى الآن.. كلما شعر بتوعك اتصل بي.. لأجلك فقط يا حازم وطبعا لأجل عيونك يا مدام ماجدة أؤدي هذا المشوار.

– أشكرك يا دكتور.. أنت حقا صديق عزيز وحميم ..كحازم تماما .

أبد لم يرقَ عندها لدرجة الأصدقاء.. ومع ذلك تدعوه هكذا وتضعني أنا وهو في نفس المقام وتجامله لقيامة بدور السمسار في حين كانت تضيق به و تضجر منه جدا إذا أقحم نفسه علينا في بعض المقابلات.. كان بالأمس يقطر عليها غلا واليوم ينافقها لأجل حفنة من الجنيهات سوف يقبضها ممن اشترى وممن باع.

– من أين أتت هذه المرأة بكل هذا المال وكل تلك البيوت والمحلات .. هل كل هذا جمعه أبوها يعقوب سمعان من تصوير البهوات.. الكل يعلم أنه كان مرابيا وقوادا.. وأنا الدكتور مجدي بعد عشرين سنة علام لا أجد ما يكفيني واعمل لديها سمساراً وها هي ترحل بالآلاف من دمك ودمي.. وأنت بطيبتك الزائدة تصدق أنها طوال عمرها من الأغنياء منذ الأجداد.. ما لا تعرفه أن جدها جاء مع من جاءوا لمصر أثناء حفر القنال لا يملك من حطام الدنيا شيئاً..

وها هي تجلس أمامنا الآن وهي تضع ساقاً على ساق..وها هو يجلس أمامها كالقط.. بل ويعد لها النقود عد صاحب المصلحة المهتم..

– خمس وعشرون ألف.. عدا ونقدا .. تمام يا مدام؟.

– تمام يا أستاذ فؤاد..

– على البركة.. إذن امضي لي على العقد.. وأنت بعدها يا دكتور مجدي.. وأنت يا كابتن حازم بعده إذا سمحت..

ليظل طوال الرحلة ينظر لنا بضيق في المرآة.. عيناه دائمة الزوغان وكأنها تبحث عن ملاذ للاستقرار فلا تهتديان.. مشربة بحمرة الحرمان والشره في كل شيء حلال أو حرام يساندها حركة لا إرادية دالة على الطمع والجوع والاشتهاء من لعق للشفاه باللسان.. يحاول مداراتها بنبرة التعالي والافتراء على خلق الله الضعفاء من خدم وعمال.. حتى أنه لم يستحِ من مغازلتها وهو العالم بمدى علاقتي بها.. والغريب أنها لم تزجره أو تعنفه بشدة أو حتى تبدى نظرة معاتبة.. لا.. بل تغاضت عن كلماته ونظراته بشيء من المهادنة والملاطفة أعزتها وقتها لعدم فهمها أو

لخجلها مني لأني أنا من عرفتهما ببعضهما.. فالإساءة إليه واتهامه بشيء كهذا قد يوغر صدري ويؤدى للمقاطعة..

تابعت حديثه التليفزيوني مندهشا من ردوده على المذيع الذي كان يسأله حانقا

– ما هذا يا أستاذ مجدي.. عن من تدافع.. لماذا أنت دائما في جانب والشعب المصري في الجانب الأخر.. والغريب أنك دائما في الجانب الخاطئ.. لماذا تصر على الدفاع عن من هم مدانين من قبل المجتمع ويطالب الشعب برقابهم.. ككل قضايا الفساد التي يدافع عنها مكتبك..

فإذا به يدافع عن مرجريت دفاع المستميت ويؤكد على أنها ظلمت بخروجها من مصر عام **67** وأنه ولابد من عودة الحق لمستحقيه وهو ما كانت تملكه في بور سعيد واغتصبها فؤاد الديب دون شراء أو عقود ..قائلا ..

– يا أستاذ وائل.. أنا بجانب كوني طبيباً فأنا دارس للقانون وعمل مكتبي الدفاع عن كل من يلجأ إليَّ مهما كانت التهم الموجهة إليه والقضايا المحبوس على ذمتها .. فكل متهم برئ حتى تثبت الإدانة .. هذا هو القانون يا أستاذ وائل..

– إذاً لماذا لا تدافع إلا عن أصحاب الملايين من المجرمين المدانين في قضايا أخلاقية من رشوة و إهدار مال عام وكسب غير مشروع والتلاعب بمقدرات الشعب وقوته وتزوير انتخابات وقضايا أخرى لا حصر لها وكلها لأعضاء بالحزب أو أقاربهم أو مشاركين لهم في أعمال .. أدى جشع أصحابها بأرواح الكثيرين من هذا الشعب المسكين.. كصاحب العبارة السلام..الهارب بلا أي عقاب .. ألف روح مصرية أزهقت بلا رحمة لتمتلئ جيوب هؤلاء الفاسدين ومن يساندهم بالملايين الكثيرة ..أهذا حق الزمالة بما أنك من أبرز الأعضاء أم لثقتهم العمياء .. أم أنك

من تتطوع .. في حين أنك لم تدافع يوما عن ناشط سياسي معتقل أو صاحب حق مغتصب ..

– لم يحدث .. كلهم أبرياء.. على الأقل في نظري..

– وإن كان ممكن إيجاد عذر لك في السابق عن قضايا الفساد التي دافعت عن أصحابها.. وحصلت لهم فيها على البراءة أو استطعت تعطيل الأحكام لحين هروبهم للخارج إلا أن هذه المرة لا أستطيع أن أجد لك عذرا على الإطلاق .. إذ بفعلتها ستفتح الباب للآلاف من الصهاينة من خلفها للادعاء بممتلكاتهم هنا وبعدها .. التطبيع البطيء الذي يرفضه الجميع ولا يعرفون لاختراقه سبيلاً.. فما هو السبيل.. الممتلكات.. والسجلات..والمعابد.. و..

– هذه حقوق يا أستاذ وائل ولابد أن ترجع لأصحابها حتى ولو كانوا يهوداً..ألا نعطي المسيحيين حقوقهم في هذا البلد الحر الديموقراطي ..

– كلمة حق أريد بها باطل يا أستاذ مجدي.. هذه جاء جدودها لمصر ليخدموا جنود الاحتلال في القناة.. ومع ذلك لم يقتلوا أو يطردوا..بل أقاموا بيننا واستقروا وتعلموا وامتلكوا أراضي وأبنية .. لكن وقت الجد باعوها ورحلوا وتنكروا لمصريتهم لينضموا للعصابات الصهيونية المحتلة.. هؤلاء ليسوا يهوداً.. اليهود من بقوا معنا.. فكيف تساوي بينهم وبين إخواننا الأقباط الذين عاشوا معنا قروناً وقروناً في وئام وتآخي .. يدهم بيدنا في كل ملمة .. لم يرفعوا علينا سوطا أو يدا.. كهؤلاء الصهاينة الذين قتلوا أبناءنا واحتلوا أرضنا.. اقرأ أسماء الشهداء على النصب التذكاري.. ستجد أحمد ومحمد ومصطفى وبجانبهم مرقس وجرجس وعيسى.. ثم

هل لو قامت حرب بيننا وبين الصهانية.. هؤلاء اليهود مع أي معسكر سيكونون.. إنهم كلهم مع دولة إسرائيل قلبا وقالبا.. الصهاينة الذين قتلوا إخواننا واحتلوا أرضنا .. ومازالت أعمالهم الإجرامية تسطر بها الصحف يوميا..

– كان على الفلسطينيين أن يحاربوا و يدافعوا عن أرضهم.. مالنا ومالهم..

– كانوا قرويين .. شعب أعزل.. والصهاينة مجرمون حرب.. أنسيت المجازر .. دير ياسين.. وقانا.. وبحر البقر..و..

– على العموم السيدة مارجريت يا أستاذ وائل ليست صهيونية ولكنها يهودية.. مصرية..أمريكية.. وهي تحب مصر جدا وتود لو تعود إليها.. وهي وزوجها الميليردير عرضوا على الحكومة المصرية مالا كثيرا في سبيل أن تسمح لهم بترميم المعابد اليهودية في مصر والإنفاق عليها.. لكن الحكومة رفضت.. ولا أعرف لماذا.

– لأن موضوع المعابد هذا هو مسمار جحا.. ثم إن الترميم تقوم به الحكومة من خلال وزارة الآثار والثقافة.. والحكومة لا تحتاج لأموالهم.. فالحكومة المصرية في غنى عن كل هذا.. هذا يعتبر تدخلاً في الشؤون الداخلية.. ونوعا من الوصاية المرفوضة.. وإن دل فيدل على نوايا إسرائيل الخبيثة ومحاولاتها المستميتة في التسلل إلى داخل مصر بأي طريقة.. تماما كالتطرق لموضوع السجلات..

– وما يضير الحكومة لو أخذت المال للإنفاق على المعابد وأعطتهم السجلات..

– هذه الطائفة لها رئيسة هنا و يعاملوا معاملة حسنة جدا و يقومون بشعائرهم الخاصة دون أدنى تدخل.. ولا توجد ضرورة لإعطاء السجلات لغيرها ..

– على العموم فإن موضوعي اليوم هو حق السيدة مارجريت في ممتلكاتها وإن كان عند السيدة وجبت مستندات فلتقدمها.. ولو أني أشك في هذا.. أنا متأكد أنها لا تملك أي عقود.. وسوف ترى..لأن لا وجود لعقود وقعتها السيدة مار جريت إطلاقا.. وهي لم تبع ممتلكاتها أبدا..

✶ ✶ ✶

جلال

أثرت في الماضي كتمان أمرها لمعرفتي التامة أنه لن يصدق أي شيء عنها..وقتها قلت سيعرف من الصحافة.. لكن الصحف لم تتناول الموضوع وحجبت النشر أو حتى التلميح.. واكتفت الجهات الأمنية بلومها وإنذارها بإنزال عقوبة شديدة بها إن هي عادت لفعلتها مرة أخرى ..أعتقد إنهم ما اعتقلوها أو طردوها من فورها حتى يضعوها تحت المراقبة علهم يصلون من خلالها إلى خيطٍ كشفه قد يحقق لمصر فائدة.. فقد تكون جندت من قبل اليهود هناك خاصةً بعد اختفائها الغير مبرر لنا كانت مفاجأة مشاركة إسرائيل بفلمها في المهرجان مدعاة لانسحابنا ..إلا هي أصرت على حضور حفل الافتتاح ضاربةً بنصيحتي لها عرض الحائط

– أنا لم أقطع كل هذه المسافة هباء.. سحبت الفيلم بلا داعٍ.. كفى تعسفاً .. يكفى حرماني من الجائزة..

علمنا بعد ذلك أنها في الحفل قبلت أن تقدم كممثلة يهودية وألقت كلمة أشادت فيها بإسرائيل كدولة وألقت باللائمة على الوفد المصري لانسحابه إن الفن ليس له

وطن على حد قولها وتمنت لو كانت تنتمي لأي دولة أوربية حتى لا تصطدم بتلك القيود التي فرضت عليها وحرمت فلمها من المشاهدة .. كان الرد الطبيعي من الوفد عليها.. المقاطعة.. وإن كنت رايتها غير كافية.. فمن يشيد بالعدو فهو عدو بل أخس إن كان منا. ليأتينا اليوم التالي بمفاجأة قبولها دعوة رجل الأعمال اليهودي الفرنسي موريس كوبيه الذي رفضت كانا دعوته لتغيب يومين كاملين لم نعرف خلالهما مكانها.. بعد عودتنا وجه إليها رئيس مؤسسة السينما اللائمة وإن كنت لست أنا الذي أخبرته عن تصرفاتها المشينة .. ليبدأ الجميع في تجنبها والإعراض عنها وإقصائها عن أي مشاركة فنية ولتدعي هي أنها محاربة وليترسخ في وجدان الجميع أنها خائنة.. في حين ظل هو يمرضني ويعييني من كثره الأسئلة

– ما الذي غيرك يا جلال .. ماذا فعلت ميج لكل هذا..

فبماذا كنت أجيب وإن أجبت ..ما تكون الفائدة..لمن أصابه العمى.

.. لكن أن أراها اليوم تدعي بهذه الجرأة وتريد اغتصاب أموال المسكينة لمجرد أن وراءها من يساندها ويزيف الحقائق لأجلها.. هذا الذي لا يمكن أن أسكت عنه بتاتا.. وجاء الوقت الذي يجب أن يكون لي معه و معها شأن آخر.. في طريقي للاتصال بالبرنامج سمعت صوته.. هو ولا شك.. حازم.. كما هو.. سابق دائما.. أخبر المذيع بالواقعة وأنه كان أحد شهودها.. وأن مجدي كاذب ومدعي.. ولولا أنه أضاع صورة العقد التي كانت معه .. لكان هذا هو الحد الفاصل بين وجبت وبينهم.. وأنه على استعاد تام أن يحضر إلى القاهرة إذا طلب رسميا للشهادة.

✶ ✶ ✶

حازم

أخذت في الصياح والتعدي بالألفاظ النابية.. كعادتها معي منذ فترة.. ونعتي بالغباء المستحكم .. وعدم النظر للأمام.. و نظري القاصر الذي لا يتعدى مقدمة الحذاء أو قفل الحزام ..و إقحام نفسي فيما لا يعنيني.. وما سيدر علينا غير المشاكل والخراب.. فعلاقتنا نحن ومارجريت وزوجها صمويل مردخاي أهم بكثير مما بيننا وبين وجبت.. تلك الفلاحة التي لا نكاد نعرفها ولا تربطنا بها أي صلة.. وانقطعت علاقتنا بها منذ زمن طويل .. منذ تركنا مصر وأقمنا في لوس أنجلوس.. وظلت تعدد الأسباب.. أولا.. قوة وثراء ونفوذ صمويل رتشيلد وما سيفعله بنا..ثانيا..موقفنا السيء بعد الحادي عشر من سبتمبر .. الذي يجب من بعده في معاملاتنا أن نقول يا حيطة دارينا أو يا داهية خودينا أو يا مصيبة اخفينا.. أفلا يكفي ما حدث وما جنينا .. وإن كنت بالفعل لا أدري ما الذي جنيته وما علاقتي أنا بهذا.. ثالثا.. نفوذ اللوبي الصهيوني وما سيعمل ردا على موقفي هذا.. سواء لها وللبنتين أو لأمها وأخيها.. أما أنا ففي نظرها قد ضعت.. وعليَّ أن أبعد حتي لا يطولهم بسببي أذى .. فهل تستحق مثلها إلا الموت ..ولكنها ماتت بالنسبة لي من يوم ضغطت عليَّ بكل وسائلها الحقيرة لتجعلني أهدي ساعتي الغالية مرغما لصمويل بعد إعجابه بها وتمني الحصول على مثلها ..كل هذا في سبيل دعم العلاقات التجارية بينه وبين شركة أخيها .. أكرهها لضعفي أماما وعدم مقدرتي على الصمود أمام التهديدات الصريحة ولتنازلي عن أشياء كنت أعتبر التفريط فيها خيانة.. قبل ما أبدأ في الرد هجوما أو دفاعا.. أو حتى بالصمت.. كما يحلو لي دائما تلك الأيام معها حتى أشعرها أنها أصبحت بالنسبة لي ككلبة.. تلهث في كلتا الحالتين.. فلا تحرك فيَّ ساكناً ..وأنا .. ولا أنا هنا .. سمعت صوته الحبيب إلى

نفسي.. أتي من بعيد يحدث وائل النقراشي.. ليسرد ما أخفي عني في تلك الليلة التي ذهبت له فيها بعد رحلة بور سعيد مع مجدي ومعها لأرمي بهمومي على كاهله كالعادة.. فقد نسيت عنده عقد البيع لعصبيتي وخروجي المتسرع كعادتي .. العقد الذي نسيته معي مار جريت بدورها بسبب أنها كانت في عجلة من أمرها.. وكان كل ما يعنيها هو استلام المال والهرب به بسرعة.. لكنه هو الذي احتفظ بالعقد كل تلك المدة ..ونسي إرجاعه لي.. وبدوره نسي إرجاعه لوجبت.. فهو بالأحرى يخصها ويخص والديها.. وها هو يوعد بإحضاره للبرنامج بعد رجوعه من المؤتمر الإسلامي بالسعودية..

ظللت أضحك وأضحك.. آه يا حبيبي يا جلال.. يا شقيق روحي .. وصديقي الصدوق.. ورفيق الطفولة والشباب والرجولة..الشاهد على كل ما هو سعيد وبائس في حياتي..المتلقي العزاء في أبي .. والشاهد على زواج أختي معي .. والمنذر مجدي في كثير من المواقف أن يكف أذاه عني .. حتى بعد أن أصبح زوجا لمنار ..فهو دائما يلاحقني بسخافاته وانتقاضاته لي.. بل وأحيانا يوغر قلب جيهان عليَّ لأني لم أحقق لها المستوى المادي الذي حققه هو لزوجته.. ذئب حقير..لماذا لا يذكروا له أنه تزوج عليها خمس مرات.. آه ..إنك حقا بركة يا جلال.. والله لا يضيع حق مظلوم أبدا..فالله يقف بجانب تلك الفلاحة كما تنعتها و تزدريها جيهان الآن لحضارتها الأمريكية وغناها وجاهها وسطوتها ..وهي من كانت في يوم من الأيام صديقتها وجارتها.. تلك التي كانت تجيب سؤالي عن حالها في بعض زيارتها المتكررة لبيتنا بأدب بالغ وحياء جم وهي تنظر إلى نقوش السجادة أو زجاج الشباك أو كرستال النجفة.. المهم ألا تتلاقى أعيننا.. وكأنها تشعر أن بعينيها

شيء إن عرفته سيخجلها.. فاضحك في سري من براءتها.. كانت تختلف كل الاختلاف عن جيهان وحتى عن هدى.. كان فيها شيء سماوي ..نقي.. ملائكي.. أقرب للون الفضاء الخارجي الذي أراه حولي وأنا في الطائرة..سعيد جدا لأجلك أيتها الصغيرة التي مازلت أذكرها برداء المدرسة.. سعيد أن يثبت حقك في مالك و أن تبرأ ساحتك.

أما زوجتي العزيزة التي كانت قبل المكالمة ثائرة وتوجه إليَّ اللائمة وتنعتني بعدم تقدير المسؤولية.. فقد أصبحت بعدها في قمة انفعالها وهياجها..

– حازم .. هل جننت.. ما الذي يضحكك.. حازم.. رد على.. لا تتركني هكذا.. ماذا استفدنا.. أضعنا أنفسنا بمعاديتنا لمارجريت وزوجها.. ماذا أقول لحاتم..أجبني مرة..

– الأكيد أني راجع أنا والبنات لمصر قريبا جدا..

✶ ✶ ✶

هدى

أخيرا حققت حلم الثراء الفاحش الذي سعت إليه وتمنته منذ سنين .. عندما دعتنا لزيارة قصرها في مارينا.. حديقته فقط أكثر من فدان.. أدركت وقتها مدى الفجوة التي حدثت بيننا خلال تلك الأعوام. آتت سنين الكويت بثمارها..ليس من خلال التعليم الذي ذهبت هي وزوجها لتؤديه ولكن من خلال بنات إحدى الأميرات..أخلصا في تعليمهن فأغدقت عليهم المال وفتحت أمامهم باب التجارة والأعمال..يمتلكون اليوم أكبر توكيل أمريكي للأجهزة الكهربائية وعدة شركات

للمقاولات والتسويق العقاري ..وباع في تجارة السيارات وشركة سياحية للتسويق الفندقي وغيرها..وغيرها ..حقا فرحة جدا لأجلها.. فلا يجوز للنجاح وإثبات الذات غير التصفيق والانحناء..

أخبرتني باستعلاء أن كل شيء باسمها ولذلك الجميع يسعى لنيل رضاها.. حتى مجدي بالرغم من ممتلكاته الكثيرة من شركات سياحية ومصانع أغذية وأعمال تجارية أخرى بالمشاركة مع حاتم أخي زوجته بأمريكا إلا أنه لا يساوى بثروته كلها شيئاً بالنسبة لوضعها الحالي.. وأعلمتني أنه يذل جهدا كبيرا حتى يلقاها في كل مرة تنزل فيها القاهرة وحاول مررا مد جسور التعاون بينهما ولكنها رفضت بإصرار ورفض قاطع ليس في مداولة..

– تخيلي فيه بزنس بينهم وبينه.

– وبين من ؟

– يعنى لا تعرفي.. الصهاينة..

– قولي كلام غير هذا.. لا يمكن.. مجدي يفعل هذا؟

– اسألي أي أحد.. أما أنا فشركاتي نظيفة.. لا يمكن نتعامل معهم أبدا.. هذا على جثتي.. ولو حتى أشحت.. وهل يمكن أن ننسى .. القتلة.. هذا دم يا هدى الذي بيننا وبينهم وليس ماء.. مجدي هذا شبهة.. وربنا لن يبارك له أبدا.. أنت ترضى ينخرب بيتي.. يقتلونا ويقتلوا أولادنا هناك وهنا ويطلبوا المعاملة.. قطع راقبهم البعده .. ألا يكفى ما يصدروه لنا من مبيدات مسرطنة ومخدرات ودعارة.. أملهم القضاء على شبابنا.. الله يخرب بيوتهم.. وبيوت من يتعامل معهم أو يثق بهم..

مازالت كما هي بروحها الثورية لم يطفئها بريق الماس والمادة وهى وإن مرت السنون وتغيرت الأحوال لا زالت بنت الثورة والقومية العربية التي عشقتها.. يكفى مجانية التعليم التي لولاها ما كانت هنا الآن تجلس في هذه الهلمة.. وتتفاخر بعدم احتياجها لمجدي أو لغيره ولا أي شريك يركب على أكتافها ليجنى ثمار النجاح الذي أفنت فيه هي وزوجها زهرة شبابهما.. بجانب سنين الغزو التي عاشوها بمرارتها وآلامها وضاع فيها قدر ليس بالقليل من ممتلكاتهم هناك ولولا لطف الله لكانوا الآن قتلى.. اصطحابهم الأميرة وبناتها في ذلك الوقت العصيب واستضافتهم لها جعلها أسيرة معروفهما بعد رحلة مريرة قوامها الرعب والحزن نزفت فيها دماؤهم من غير جرح و بكت فيها أعينهم بدل الدموع دماً.. فما كان يكفيها لا النواح ولا الدموع ..ليظل فيها الأمل في النجاة هو السراج الوحيد الذي يهتدون بنوره لتدوين خطى الغموض والمجهول الذي عبث بمقدرات شعب ..بات آمناً وأستيقظ فإذا الجحيم يصب عليه من دون ذنب .. هي رحلة أشد بؤسا من رحلات جلب العبيد تحت جحيم العبودية والأسر.. تلك الاستضافة التي كانت السبب في التآخي بينهم وكانت على سعاد وزوجها على كل المستويات وجه السعد.. وهاهي اليوم تستنكر أنى في مكاني محلك سر ولم أعمل ثروة..

– قولي أعمل ثورة.. أسهل.. من أين يا سعاد؟ ما أنت عارفة..

– كيف والطب منجم ذهب ؟.. ألم تتعلمي شيئاً من مجدي ؟

– وماذا حقق مجدي.. لم يحقق شيئاً على الإطلاق.. يكفى أنّ اسمه موصوم منذ أموال تحديد النسل.. ثم مركز أطفال الأنابيب.. فضائح لا لها حصر..

– يكفى المستشفى الاستثماري ..

– أي شخص ممكن أن يمتلك مستشفى استثماري لو معه مال.. المسألة أصبحت

أكثرها خدمة فندقية..ثم أنا أعالج مرضى السرطان بالإشعاع في معهد الأورام.. مجرد وظيفة حكومية من أين أدخر المال..

– ما هذه الخيبة؟.. وأين عملك الخاص يا ست يا دكتورة؟..

– لا يمكنني امتلاك مركز خاص للعلاج بالإشعاع لغلو الأجهزة.. ثم إنهم مرضى بشيء بشع.. ألا يكفى ما هم في .. ماذا يمكن أن يأخذ منهم.. حتى التبرعات لهم لا تصلهم ..

– هناك الأغنياء ..

– حتى الأغنياء منهم يستحقون الإشفاق.. ألا تتذكري كم عانينا في مرض جنة..

– وهل تعدي نفسك غنية .. أنت فقيرة وتستحقي الصدقة يا أختي العزيزة ..هناك أغنياء بجنون .. لا يهمهم المال إطلاقا..أغنياء عهد مبارك يا هدى .. أفيقي..

– تقصدي اللصوص..

– لصوص لصوص ..ونحن مالنا ..

– كيف ونحن مالنا ..وإن لم يكن مالنا .. فمال من إذن..

– ما هذه الخيبة .. كنت سافرت مثلى ..

– لماذا والثروة ليست أملى ولا أمل زوجي ولا ابني ..ثم إننا مستورون والحمد لله.

– الستر في وقتنا هذا لا يكفى .. ألا ترى الدنيا من حولك ..هل أنت مغيبة أم أنك لست من هنا .. أفيقي يا أختي ..الدنيا ليست هكذا..الدنيا صعبة ..والكل يقول يلا نفسي.

✶ ✶ ✶

جلال

ما الذي حدث في الدنيا .. المزرعة أحيطت تماما بالمباني الخرسانية ..وقسمت كل الأراضي الزراعية الخصبة من حولنا إلى شوارع وحواري عشوائية .. لا الحكومة أدخلتها كردون المدينة وقامت بتقسيم مبانيها وشوارعها على صورة صحيحة .. ولا منعت التقسيم والبناء العشوائي عليها.. وما أفرز قانون عدم التعدي على الأراضي الزراعية إلا طابوراً من المرتشين من الموظفين والصولات في المحافظة والمحليات وأقسام الشرطة.. حتى أصبحت الرشوة عرفاً من الأعراف المصرية وقننت كمرتبات بدل غلاء وبدل طبيعة عمل على مستوى الجمهورية .. يقبضون ممن بنى بلا ترخيص بصورة دورية.. ويهدمون له كل فترة جداراً .. كذر الرمل في العيون .. حتى لا يقال عنهم إنهم لا يطبقون قوانين الدولة .. الدولة التي تتهاون في أرض الدلتا وطينها وتستصلح الصحراء بالملايين .. وتستعين بالخبرة الإسرائيلية لهذا وتفتح لها الطريق على مصراعيه كما الأراضي على جانبي الطريق الصحراوي..

قابلت من هؤلاء المتعاملين معهم مهندساً استعنت به لترميم سقف الاستراحة.. فبدأ أولاً باقناعي ببيع المزرعة لشخص لا يريد الإفصاح عن هويته وشراء أرض استصلحها في الطريق الصحراوي فلما رفضت حاول إقناعي بتأجيرها له فلما رفضت تركني في نصف الترميم وتلاعب بي وكان منذ تعاقدنا على الترميم يزود كل يوم في الثمن المتفق عليه ويحضر عمال من الطريق ويدعي أنهم من شركته وعلى قدر كبير من المهارة فما يكون منهم إلا الإفساد وعدم إنجاز أي شيء أطلبه وفجأة أختفى بما أخذه من مال ولم يرد على مكالماتي .. علمت بعد هذا أنه من يعمل مع الصهاينة في البناء والاستثمار والسمسرة..وقتها فقط فهمت لماذا هو هكذا ..

لا عهد ولا وفاء بالكلمة..

✶ ✶ ✶

هدى

استلقيت أفكر في عرضها السخي.. لم تستحي أن تطلب منى يد ابني.. حقيقي ولاء بنت جميلة ولطيفة..بجانب أن سعاد تحبني .. لكن هو كأبيه يرى النسب تناسب وتقارب خاصا في المستوى المادي.. عنده حق.. حقيقي الفارق مخيف.. مفزع.. انقلب الهرم الاجتماعي ..الأطباء في الماضي كانوا شيئاً آخر.. الفقر الذي كان في الماضي العائق من زواجها من مجدي أصبح اليوم ثراء فاحش وعائقاً أمام قبول ابني.. آه .. قلْبة الهرم أوجعتني.

– قصر بمارينا آخر بأكتوبر والثالث بالسخنة.. ولا تنسى ما بمدينتي.. لا يا ماما.. لن تفلح هذه الزيجة أبدا.. ماذا عندي.. ماذا يمكن أن أقدمه لها.. ماذا يمكن أن يبهرها في..

– علمك.. شخصيتك.. وسامتك.. أصلك..

– يا ماما.. انسى

– أنسى ماذا.. يوم كان جدودك أغنياء جدا.. كان جدها لا يجد قوت يومه ..لولا التأميم.. الله يسامحهم ..

– ما يحدث الآن هو الذي قلب الموازين.. بالتأميم كنا لازلنا أغنياء .. حقا ظلمنا .. لكن ليس بهذه الطريقة .. هناك شيء خطأ في كل المنظومة .. حكام ورعية .. المسألة فعلا ليست نافعة.. كما قلت لطنط وجبت بالأمس.. توحش المادة سمة

عصرنا .. الأصل والأخلاق أصبحا موضة قديمة.. كانت دراستها زمان اسمها سياسة واقتصاد.. فكانت السياسة هي من توجه الاقتصاد وتلجمه.. وإن حاول المراوغة وشراء الضمائر لاكتساب المزيد من الثروة.. قطعت رقبته ولوحت له بالعدالة الاجتماعية .. أما الآن فاسمها اقتصاد وعلوم سياسية أي أن الاقتصاد هو المهيمن.. والمال يسبق السلطة بل ويمتلكها.. وإذا تزوجا.. أصبحت الهلكة .. لمن هما من دونهما.. من هم مثلنا لا مالا ولا جمالا.. أي على باب الله يا ماما..

– لا.. الجمال موجود يا حبيبي .. وبكثرة يا حبيب ماما.. أنت أخدت جمال وهيبة أبوك..

– من يشهد للعروسة ..

– لماذا .. أليس أبوك جميلاً .. أصل وقيمة ..

– أمازلت تحبيه يا ماما بتلك الحرارة .. بعد كل هذه السنين الطويلة..

– ولد يا دودو.. آه ..لم أحب ولن أحب غيره .. لا أرى له مثيلاً في الدنيا..

– يا حبيبتي يا ماما ..مادمت رجعت تقولي لي يا دودو.. يبقى أكيد حب بابا في قلبك شديد قوي يا هدهوده .. لكن ألم تفكري مرة أنه كان ممكن تتزوجي من هو أحسن منه..

– لا يوجد في الدنيا من هو أحسن من أبوك أبدا ولا في الجنة .. أنا أخترته زوج الدنيا والآخرة.

– يا سلام عليكي يا ماما يا أحسن أم في الدنيا .. ليتني أجد من تحبني هكذا وترضى بي وتحبني لشخصي ..مثل حبك لبابا.. وتنسى موضوع المادة.. لكن فين يا ماما .. البنات لا تفكر هذا التفكير المثالي في وقتنا هذا.. ومسألة نحن بنشتري راجل أصبحت موضة قديمة ..

– فعلا يا حبيبي.. عندك حق والله.. الدنيا أتغيرت والحالة شائكة.. لولا شراكة أبوك مع عمك رفعت ولولا المزرعة والمنحل كنا شحتنا.

– وليتكم تركتموها ..

– نعم بعنا أكثرها.. ماذا كنا نفعل.. جنة ومرضها و تعليمك والتزاماتنا.. لم يبقى غير الخمس أفدنه..

– نعم .. بالضبط مثل ما قرره جمال لكل معدم في هذه البلد ..

– نعم .. قانون الأصلاح الزراعي ..ولكننا سوف نبيعهم أيضا عند زواجك .. فمن أين نشتري لك شقة يا حبيب قلبي..أحمد الله يا ابني.. المهم راحة البال.. يا محمود نحن احسن من غيرنا بكثير..

– نعم ياهدهد ..ألف مرة .. هذا بالضبط ما يقوله لنا ليسكتنا ..وكلما قال لنا (نجيب لكم منين) وأشعرنا أنه يصرف علينا من جيبه ويستجدي الأمم لإطعامنا وأننا بلد فقير جدا لا حول لها ولا قوة وأننا نعيش على المعونة الأمريكية والمنح الدولية كلما شعرنا بالمهانة وأصبحت كرامتنا في الأرض.. وكلما زادت السرقة واستغلال المناصب والفروق الطبقية والفساد والمحسوبية ..كلما لجأ الكثيرون للرشوة والسرقة كحل لغلاء المعيشة بالمقارنة للمرتبات الضئيلة .. وإذا كان رب البيت بالدف ضاربا ..فمن يلومهم ..هم الذين علموا الشعب هذا .. أما العاطلون فلهم الله..الدنيا بتغلى يا ماما ..

– إذن القادم هو ثورة الجياع كما يقولون..

– احتمال يا هدهد ..كل شيء وارد .. وسلام للمساكن الشعبية..

خرج من الغرفة وهو يدندن بطريقته الهزلية (متصبرنيش مخلاص أنا فاض بيه

ومليت)..

أراه يستحق من هي أفضل منها مئات المرات..وكيف لا وهو ابني .. ربيته أنا وأبوه على الدين والأخلاق..أول دفعته في كل مراحل دراسته ومدرس مساعد العظام الآن بالقصر العيني والتلميذ الواعد النجيب لأستاذه العظيم العلامة الدكتور أحمد عبد العزيز وساعده الأيمن.. ألا يستحق هذا الطبيب الشاب بنت الأمراء.. المسألة ليست غنى ..وماذا تكون فيهم هذه الولاء وما تكون بجانبه كل أموال الدنيا..

لاحظت إعجابه بهايدي عندما أحضرها أبوها معه الصيف الماضي.. لكن التاريخ القديم لجَّمه ومنعه أن يمضى متعقبا دقات قلبه الفتى.. ظن أن هذا قد يجرحني.. مع أنى نسيته تماما.. وعدت أنا وحازم أخوان أكثر من الماضي.. حاول إقناعه بالذهاب معه لأمريكا ووعده أنه سيوفر له كل سبل الدراسة والإقامة ..

– ويتركنا .. وأنا وأبوه على أبواب الشيخوخة..

– شيخوخة ماذا يا هدى؟!.. الذين في مثل سنك في أمريكا لم يتزوجوا بعد ويعتبرون أنفسهم أطفالا.. ثم إنك لم تكبري أبدا .. كأن السنين لا تعدي عليك .. أنظري لنفسك في المرآة..

– ها.. ها..ها. مجاملة لطيفة .. لكن دعك من ابني..

– دعيه يحقق أحلامه وطموحاته.. شاب بهذا الذكاء وهذه الكفاءة خسارة أن يستمر هنا.. مع كل تلك المعوقات والمنغصات.. العلم هناك يا هدى.. هناك السعادة والمجد والثراء ينتظر العلماء..من مثله ممكن أن يصل إلى نوبل.. فلا ترفضي.. هو لن يذهب معي إلا إذا أنت وافقت .. وهذا مما يزيد إعجابي به.

آه.. يا لقسوته..يريد حرماني من قمر ليلى وشمس نهاري.. ابن عمري ووحيدي.. لجموح رغبته في زوج مصري لابنته.. هي فعلاً آية في الجمال كأمها بالإضافة لما أخذته منه من وسامة.. لكن إن كان يريده لها فليعد هو.. هذا إن كانت جيهان ترضى ولا أظنها تفعل أبدا.. فأمريكا هي أبوها وأمها وكل أهلها وكل ما لها حتى لأنها كانت قبل استقرارها فيها تذهب لتضع هناك أبناءها ليحصلوا على الجنسية ، وكان كل ما ليس أمريكياً عورة.. فلو تطاول حازم وطلب منها هذا.. لطلقته فورا وأعادته إلينا جثة هامدة.ليبقوا هناك إذن كما يحلو لهم .. وليعظموا العم سام بكل قوة.. مع ألف سلامة.. والقلب داعي لهم .. لكن ليبعدوا عن ابني .. ليبعدوا تماما .. لكم دينكم ولى ديني.

✶ ✶ ✶

يوسف

بسفرها توقفت الدنيا من حولي واحتل الفراغ البارد دفء حياتي .. ليتني ما سمحت لها بالذهاب وتمسكت برأي.. ولكنها حنان وطيبة متجسدة.. تمتاز بما لم ألمسه في غيرها.. لا ينطوي قلبها الوديع على ذرة كره ولو صغيرة.. نبضاته وكأنها السكينة.. عشنا العمر متعانقين في منظومة من التواصل الإنساني .. فكرى وعاطفي ومهني.. أختلط دمى بدمها أثناء العملية.. فأصبحنا وجهين لنفس

العملة..هي التي أحبها.. كيف أرفض رجاءها..زوجة وأم وابنة .. تصميمها على الذهاب أثار غيرتي ممن أحببته من كل قلبي وتربى في بيتي كابن لي ولها ..

– فلتذهب درة..

– كان الله في عونها.. مرض خالي ومرضها.. والتوأم المنضمان للمقاومة وقلقها عليهما.. واحد في الضفة والثاني في غزة.. ومع ذلك لا يريان بعضهما ولا يرى أي منهما عبد الله..

– وأنا .

– أنت كل شيء .

– كلام.. أم فعل..

– لا بالفعل.. لكنك عودتني على التضحية .. فلم هذه المرة ..

– خائف عليك .. ولا أريد أن تفارقيني..

– شهر واحد وأعود إن شاء الله .. أنا لست ذاهبة لأموت.. ولو أن (من يطول)

– إياك أن تقولي هذا .. لا حياة لي من دونك..

– مجرد اطمئن عليه وأكون بجانب عودة أثناء الوضع بدل أمها.. تخيل تلك الطفلة ستصبح أما لأربعة.. وأعاين من أكتب عنهم كل يوم عن قرب.. أرصد على ارض الواقع معاناتهم .. أعرف أنهم يحتاجونني بشدة..

– صدقيني حالتهم جيدة .. بل أحسن منى ومنك..

– غزة يا يوسف محاصرة.. لا أدوية ولا أطعمة..

– لا يا حبيبتي عندهم كل شيء.. بل عندهم ما ليس عندنا.

– حتى ولو عندهم الدنيا.. يكفى الحصار والعدو الذي من كل جهة.. يكفى نومهم وقلوبهم وجلة أن يقذفوا في أي لحظة.. حتى الأخوة في الضفة لا يمدون إليهم يد

العون إلا في أضيق الحدود وكأنهم يحتاجون لإذن حتى يبروهم ويقسطوا إليهم.. ألم تقرأ خطابه الأخير..الحمل ثقل عليه يا يوسف..

– ولكنى كبرت.. نفرض أصابتني أزمة كالسابقة أو مت .. ألا تشفقي على..

– لا قدر الله.. إياك أن تقول هذا ولو بالضحك..أرجوك ألا تغضب وارضى .. لأجل أبنك حبيبك عبد الله ..

– تمسكينني من يدي التي تؤلمني .. اذهبي ..راضٍ أنا دائما عنك وعنه وعن الدنيا .. فتوكلي على الله..ومن توكل على الله كفاه..

دامت مجادلتي معها أيام وليالي حتى أثنيها عن عزمها لأخرج منها مهزوماً أمام إصرارها.. وهي فرحة كطفل سيخرج للنزهة لأول مرة..فرؤية غزة وأخيها.. بعد طول بعاد كان بالنسبة لها غاية المنى.. أصبح شاعرها المفوَّه وأحد أبرز رجالاتها وأدبائها.. أنا من علمته وهو لا ينكر هذا بل يظل يذكره في كل محفل ويتباهى.. بعد موت أبيه آلت إليه التركة.. وكأبيه مساندة المقاومة بالمال والنفس وحمل عبء القضية له عنده كل الأولوية ولو على حساب حياته الخاصة.. حتى دراسته الهندسة ما كانت إلا للإسهام في إعمار غزة وغيرها من الأراضي التي كذباً يدعون أنها محررة وهي مازالت تابعة تماما للسيطرة الإسرائيلية.. أفتخر به كثيرا وأتمنى رؤيته مثلها تماما لولا الصحة.. من ربيته في بيتي طفلا.. ابن السابعة.. منذ تركه والده أمانة في أعناقنا وسافر إلى انجلترا بعد وفاه والدته عام **77** إلى أن زوجته ابنة عمته بيدي فلم يشعرنا يوما لا أنا ولا هي بحرماننا من منظومة الأمومة أو الأبوة..أعددت لهم الهدايا لتحملها إليهم وأوصيتها أن تحضر لي أكبر كم من الصور حتى وكأني معهم في كل لحظة.. علهم يستطيعون المجيء العام القادم كي أراهم.. إن كان في

العمر بقية..

✶ ✶ ✶

حازم

وصلت متأخرا بعد فوات الأوان كما هو حالي مع كل أحبائي.. دفنوها بالأمس.. وكما قدر لي دائما.. جلال هو من كان مكاني.. أو قد أكون أنا دائما متعمدا من أترك له مكاني.. دفنوها بجوار أبي الذي أيضا ما قدر لي وداعه.. البيت موحش وبارد من دونها.. وكأنها كانت الشمس التي تدفئه بحرارة قلبها.. كانت تنادي عليَّ طيلة الأيام الأواخر.. كانت في شوق شديد لرؤيتي كما يؤكد الجميع هذا ويقصوه عليَّ كل برهة وجيزة وكأنهم يريدون الانتقام مني لتأخيري وعدم إدراكها وتحقيق رغبتها..

انتحى بي جلال جانبا ليسر إلي وصيتها الأخيرة..تريدني ألا أعود لأمريكا مرة أخرى.. فيكفي ما ضاع من عمري بعيداعنها ..وأن أحضر البنتين ليتزوجا من هنا.. وأن أعيش في هذه الشقة وألا أفرط فيها خاصة بعد إقامة نوال في الغردقة لتكون بالقرب من رضوى وزوجها المهندس الإنشائي الذي يشارك في بناء قرية سياحية هناك..

– صعب تنفيذ هذه الوصية.. أنت عارف جيهان.. وأيضا البنات لن يوافقوا.. لقد

أتوا معي هذه المرة بالعافية..

– أنا أبلغتك .. هذا شيء يرجع لك وهذه حياتك.. لكننا جميعا نريدك معنا.. ثم ماذا يبقي جيهان هناك بعد وفاة والدتها ..

– أنت عندك كتاباتك والمزرعة.. لكن أنا ماذا أعمل هنا.. بعدما تخطيت الستين.. ولم أعد أطير..

– ما تعمله هناك..

– على الأقل هناك سبل الإعاشة والراحة متاحة..لكن هنا كيف أبدأ من جديد..

– والغربة..

– وهل القاهرة تفرق الآن عن أميركا؟.. شعور الغربة واحد.. مصر تغيرت تماما ..هل هذه الزمالك التي أعرفها؟.. لا يمكن.. هل هذا بيتنا؟.. ما الذي جرى؟ .. أصبحت شقتنا الشقة الوحيدة التي مازال يسكنها مصريون.. كل من حولنا مستأجرون أجانب.. أشعر كأني دخيل فيها.

– هذا حال الدنيا .. رحيل الكبار فرَّق الصغار.. ثم إنه منذ أشترى البيت رجل الأعمال المشبوة ماهر الحاوي من أصحاب البيت القدامى ومنذ آخر مستأجر لشقة طنط بهية المفروشة.. هذا الأجنبي الحقير الذي استطاع الاستيلاء عليها بالخديعة وبمساندة المالك الجديد للعمارة..من يمتلك نفوذه من مشاركة الرؤوس الكبيرة..وأنت فاهم ..ومنظومة رحيل المستأجرين المصريين واستبدالهم بمستأجرين أو ملاك أجانب مستمرة.. كما باعوا مصر كلها أو سرقوها .. لا أحد يدري ..

– وأنتم .. أين كنتم؟.. وكيف لم تقفوا بجانب طنط بهية وهي أرملة وحيدة؟..

– عندما ذهبت للمحكمة.. القانون لم ينصفها ولم يكن في صفها.. فهو لا يعرف

غير الأوراق.. فالقانون بدون قلب.. وله فقط عين واحدة يدرس بهما المستندات المقدمة.. وقد كان هذا النذل يعرف ماذا يفعل .. فظل يغريها برفع الإيجار بصورة مذهلة.. أضعاف.. أضعاف ما كانت تتمنى.. في سبيل حصوله على عقد طويل المدى وفيه بنود بمقتضاها كان له الحق في امتلاك الشقة بموافقة مالك العمارة.. الذي أعطاه الموافقة وباعها له غير عابئ بتلك المسكينة وحقها الشرعي في الشقة..طبعا في سبيل المال و المعاملات المشتركة ..بل والأكثر من هذا.. باع سطح العمارة لأخيه ليبني عليه شركة لأعمال السمسرة والمضاربة في البورصة.. وهذا غير قانوني.. فالسطح مشاع لكل ساكنيها.. فكل شقة لها حق الانتفاع بغرفة خاصة بها كالغرفة التي كان يبيت بها الطباخ الذي كان يعمل عندكم .. ثم إن البناء فوق السطح أختصر عمر العمارة إلى النصف.. بل أقل..وهذا ما يتمناه بالطبع المالك الذي يريد طرد كل السكان .. وعلى فكرة .. عينه على شقتك .. هل تعرف أن هذا القذر الذي سانده لأغتصاب الشقة يهودي؟

– و يهودي ؟ يانهار أسود .. ابن ....

– نعم.. ألا تعلم أنهم داخلين خارجين مصر بمنتهى السهولة .. يمكن أكثر مننا..

– ما هذا الكلام الذي ليس له معنى .. جميل قوي.. هناك كل جيراني يهود.. وهنا أيضا.. وتريدني أبقى.. فلأعود أفضل.. مادام تساوينا بأمريكا..

– طائرتك متى؟

– بعد أسبوع.. حتى لا نترك جيهان وحدها ليلة رأس السنة..

– بهذه السرعة .. ليكن .. ليقضي الله أمرا كان مفعولا..

✶ ✶ ✶

هدى

كنا نمشي خلفها..أنا ونجوى ونوال فتقول لمحدثها: بناتي الثلاثة .. كانت أمّاً لي وأكثر وكنت لها أكثر من ابنة ..حتى عندما تزوجت نجوى ونوال وذهبت كل منهما لبيتها .. وبقيت أنا وهي لنؤنس بعضنا ونقاسي من حب شخص واحد.. عندما أسر كانت تنام جالسة.. ولا أدري أكانت تنام فعلا أم أنها كانت تتظاهر حتى نتركها وحدها .. لتطلق كل برهةٍ آهةً يتبعها بكاء حار يكاد يوصل قلبها إلى أزمة أخرى كالتي أصابتها عند سماعها خبر سقوطه بين أيديهم ..فأسرع بالدواء الذي ترفضه في البداية ثم تأخذه مغصوبة .. وكنت مثلها .. أؤدي طقوس الإغفاء والقلب يقظ .. منفطر وقتها على الأخ والحبيب و ابن الخالة وابن العم وكل علاقات القرابة التي تطوقنا من قمة رأسنا إلى أخمص أقدامنا..ولا أعرف كيف أواسيها .. فأنا أريد من يواسيني .. فمصابي مثلها وأكثر .. ماتت على يدي وهي توصيني عليه.. ظلت تخاف أني أكون لازلت غاضبة من الماضي..

– جلال ظفره برقبته.. أنت لم تخسري .. هو الخسران .. أنت ابنتي ..سامحيه يا هدى ..عندما أموت لا تجعلي غريب يدخل عليَّ .. أريدك أنت أن تقفي على غسلي..نوال لن تستطيع .. أنت تعرفيها.. ولا نجوى.. منظر فقط لكن من الداخل مخوخة ولا تتحمل أي مسؤلية..

– ربنا يعطيك العمر والصحة ..

– هدى .. إوعديني..

حققت لها كل وصاياها .. ووفيت بوعدي ..إلى أن أوصلناها بسلام دارها الجديد من دونه..المتأخر دائما..أخَّرته العربة الحمراء في الماضي عن سرعة لقائي ..

وأخَّرته أمريكا اليوم .. لكن تأخُّره عني ممكن أن يغتفر.. لكن عن أمه .. أقف في البيت القديم الذي أحتضنني طويلا أتلفت حولي .. خلا الدار من الأحبة .. هي وعمي والأيام الخوالي .. والذكريات المر منها والحلو ومتوالية الليالي.. تراه سيبقي عليه..أم سيفرط فيه كتفريطه في كل غالي.. هل ستكون لنا فيه مرات أخرى ..أم ستكون تلك آخر مرة .. ولن أعود إلى هنا ثانية ..

✶ ✶ ✶

حازم

منظرها وهي تطمئن بنفسها على إحكام الكوفية بمنتهى الحب والرحمة قبل خروجهم للشارع أشعرتني بمدى الخسارة التي منيت بها لاستمراري مع جيهان كل هذه المدة الطويلة من الجفاء والبغض والمشاحنة..لو كنت تزوجت خالدة من إحدى عشر عاما في مقابلتي الأخيرة لها في تركيا بعدما خيرتني ما بين الارتباط الدائم أو الفراق الدائم ..وبعدما تفاقمت الخلافات الأسرية في بيتي حتى أصبحت الحياة مستحيلة..لكنت الآن أحيا حياة طبيعية وسعيدة معها مثل جلال وهدى..كانت مثلي هادئة..حالمة..تعرفنا أثناء عملها كمضيفة في مكتب الشركة بنيويورك..أصولها التركية جعلتها قريبة مني لجمعها بين الجمال و الروح الشرقية والمدنية الملتزمة في توليفة رائعة.. كانت كل رغبتها أن تحيا الحياة معي في محبة وألفة..وتتمتع بها في صورة معتدلة..لا هي مادية جافة..ولا هي روحية صرفة.. لكن للأسف.. تراجعي عن هذا ظانا مني أنها تضحية كبرى لأجل الأولاد وأنهم سوف يذكرونها طوال العمر على أنها بطولة.. كان في حقيقة الأمر قمة الخرافة.. فلا

زواجي كان سيعذبهم ولا عدمه أضاف لهم وأسعدهم .. أنا وحدي الذي تحملت الأسى.. بل ويلومونني على تصرفي الغبي ويكررونها أمامي دائما..

– أنت غلطان طبعا يا بابي .. نحن لم نطلب منك هذا. بالعكس.. كان ممكن بزواجك أن ترحمنا من جو البيت الخانق المتوتر بصورة مستمرة..

لم أفكر في زواجي من خالدة أبدا كخيانة.. لو كنت أريد خيانة جيهان لوجدت كل يوم واحدة.. فالعروض كثيرة بطريقة مذهلة..فالعلاقات عندهم شيء عادي مادام بالتراضي..كضروريات الحياة من طعام وشراب وقضاء حاجة.. يجب إشباعه أو إفراغه بأي طريقة..وما دام ليس هناك حاكم أو رادع للمسألة إلا عند القلة.. فالوضع كان بالفعل مهزلة.. لم يكن لي أبدا يوما علاقات محرمة خارج إطار الشرعية.. ولهذا كان تفكيري جديا بالزواج مرة أخرى..منذ جئت وجلال وهدى لم يتركاني وحدي لحظة.. وكذلك رفعت وعقيلة.. الغريب أنها لم تشفَ تماما ومع ذلك تزوجا خاصةً بعد موت اغلب أفراد أسرتها ولم يبق لها غير أخت واحدة تسكن بعيدا عنها وتقريبا لا تراها .. فلم يبقَ لها بعد الله غير رفعت الذي ظل يواليها ويتابع علاجها.. وها هما يتعكزان على بعضهما.. هي بضعفها وهو بإصابته التي كنت أحد شهودها يوم **14**أكتوبر **73** .. آه .. أيام مضت ولازلت أذكرها.. وكأنها كانت بالأمس فقط الواقعة .. كان في سرب من ثمان طائرات سوخوي **21** في فايد وهي قاذفات قنابل ثقيلة من نوع (البومبر فيتر) وهو القائد عليها حين جاءته الأوامر بأن هناك مجموعة من دبابات العدو في الدفرسوار على البحيرات المرة وعليه التعامل معها.. بكلمة واحدة جاءته (مصر منتظراك .. شدو حيلكوا) فما كان منه إلا الجواب (بحاضر يا أفندم) وتغيير التسليح للطائرات بسرعة فائقة

وتحويلها إلى مقاتلات بالصواريخ و الرشاشات مع أنها عملية شديدة الصعوبة خصوصا لو كان عامل الوقت ليس في صالحها.. واستطاع الطيران بها فورا في تشكيل رباعي للقضاء على تلك الدبابات المتسللة.. هو في السرب الأول على أن يليه السرب الثاني بعد خمس دقائق.. لكنه فوجئ بتلك الدبابات تستدرجه لمنطقة صواريخ مضادة تم تثبيتها على المراكب الغارقة .. فما كان منه إلا أن بعث بإشارة لاسلكية حتى يعود السرب الثاني إلى القاعدة.. وتعامل هو ومن معه مع الدبابات ودمروا خمساً منها ولكن نحن أيضا كانت خسائرنا فادحة .. فقد فقدنا الطائرات الأربع بملاحيها ولم ينجو غير رأفت وزميل لنا كانت إصابته هو الآخر خطيرة..وها هو سعيد بما حققه وبما أصابه ويتعايش مع إصابته بمنتهى الرضا والسهولة ..ويقول إنها عنده أغلى من وسام نجمة سيناء الذي حصل عليه عام **74** لأن الوسام تقدير إنساني أما الإصابة فوسام أعلى .. من عند ربنا..

أعيد النظر إلى من تتأبط ذراع زوجها في منتهى الرفق والرقة .. فلا تدري من النظرة الأولى من منهما الذي يتكئ على الآخر.. في هذه السن المتقدمة التي تزداد فيها الحاجة للصحبة والرفقة.. وتنادي على محمود الذي لا يريد أن يمضي ويترك هايدي.. فتعيد النداء بعصبية.. ناظرة إليَّ بمعنى واحد وهو (أنسى).. ناهرة إعجابه وتعلقه بها..

– محمود.. هيا بنا.. كفى.. والدك تعبان ويريد العودة ..فورا .. الآن ..

✶ ✶ ✶

هدى

تذكرت الخائن..وأنا أبكى بدل الدموع دماً حاراً يغلي في العروق على ما يجرى لأطفالنا هناك.. صورهم تطاردني .. استغاثتهم تدمرني.. وتحرقني غفلة الضمير العالمي. من لم يجافيه النوم في تلك الليالي.. لصدى دائم التصدي.. يؤنب كل عربي ..أترضى ما يفعل بهم.. أترضي..من لم يدعوا على الصهاينة الظلمة في كل ثانية.. وعلى كل من مد أو يمد إليهم يدا من عملاء وخونة تحت مسمى المعاهدة المزعومة ..معاهدة الخزي والعار لبادئها وكاتبها والمحافظ عليها وعلى مبادئها..لم اصدق سعاد في بادئ الأمر من هول المفاجأة..لكنى تأكدت من أكثر من مصدر أن هذا المجدي وصل إلى هذه الدرجة من النذالة والانحطاط والخسة.. لم يكفه مد جسور التعاون بينهم وبينه في التعاملات المدنية..لا.. بل يمد جيشهم بالمعلبات والأطعمة ليتمكنوا أكثر وأكثر من قتل أطفالنا ونسائنا..ولا يستحي أن يخرج على الملأ ليؤكد أن هناك اتفاقات لا يمكن فصمها أو نقضها.. فصم الله عروة أمره وكفأه على وجهه في وحل الخيانة والدناءة والخسة.ما هذا التاريخ الطويل من الفساد والإفساد المتعمد في كل مجالات حياتنا ..من تعاون مع إسرائيل على أوسع نطاق.. لتزوير انتخابات .. لرشاوي .. لعمولات.. لدفاع عن لصوص سرقوا الميليارات وتجار مخدرات مختبئين تحت مسمى رجال الأعمال وسارقي أرواح الناس البسطاء في سبيل الإثراء الفاحش والامتلاك ..وقبلها مال حملة تحديد النسل ..وقبلها محاولة اللعب على كل الحبال .. أما آن أن يرحل

ويكف عن الدنيا أذاه؟ .. العجيب أن حازم رفض السفر الذي كان مقرراً له يوم التاسع والعشرين .. بعد ما رأى ما لا تصدقه عين من المجازر المقامة هناك .. وكذلك بناته.. وإذا ما اتصلت بهم أمهم لحثهم على العودة .. جابهوها بالرفض وأغلظوا لها القول بأنها أنانية وبلا قلب ولا يهمها إلا نفسها.. وأتعجب من تلك الجرأة التي يحدثوها بها.. لكن موقفهما أشعرني أنهما مصريتان قلبا وقالبا..وبدأ قلبي يرق بعض الشيء لهيدي وهي تعرب عن ثورتها وعروبتها لتستميلني بها .. وبدأت بالفعل أقتنع بها لولا أن تغلبت سيطرة جيهان المعنوية والمادية عليها.. فعادت هي وأختها وفي يدهم أبوهم الذي هددته بأمور شتى .. أبسطها كان محادثة مع أحد الوزراء الذي بينه وبين أخيها والصهاينة أعمال ومعاملات مادية لإجباره للرجوع بالقوة ..وما الغريب هكذا هو..

✶ ✶ ✶

جلال

ملعونة تلك الاتفاقات التي تغذى يد العدوان .. ملعون حتى الكلام .. ورصاصهم وقنابلهم العنقودية تنزل على رؤوس الأبرياء كالمطر في غزة.. مئات القتلى وآلاف الجرحى وشعب أعزل لا يملك ما يدافع به عن نفسه إلا الإرادة في الصمود لآخر قطرة.. ملعونةٌ تلك الاتفاقات التي تسمح بتدنيس الأقصى بأقدام الكفرة الفجرة والتي تمنعنا أن نذود عن أنفسنا وأن ندافع عن البقية الباقية.. من كرامتنا وشرفنا..

اتفاقات تزدرى النخوة والحمية.. وتعتبرهما إرهابا وهمجية .. اتفاقات تزيدنا ضعفا وتزيديهم قوة.. بالمعاهدات أصبح تسليحهم أضعاف ما عندنا والحرب دائما صاروخ وطائرة.. الطفل الصغير يعرف هذا ..وكأننا عدمنا الفهم.. وكأن التاريخ لم يترك بصمته علينا ..أنسينا يونيو..وكأن ربنا عز وجل ما أمرنا بأن نعد لهم ما استطعنا من قوة ..فما يحدث في فلسطين والعراق ممكن أن يحدث في أي دولة.. ونحن نيام نسبح في بحيرة من الأماني الحلوة.. ولا على بالنا .. يالهول هذا الذي سوف يداهمنا إن استمرينا على هذا..

✶ ✶ ✶

هدى

على المعبر وقفت أبكى.. مودعة ومستقبلة.. وفي الحالتين أنا غير متزنة .. تأبى قدماي أن تحملني .. أصر كغيره من زملائه وأساتذته على الذهاب لبذل العون للمؤسسة الطبية .. فالوقت عصيب والكل يتمنى لو يضحي بنفسه لأخر قطرة..ومع ذلك أخشى عليه وأحاول إخفاء جزعي دون جدوى .. ومن ناحية أخرى حزني وألمي الذي يعتصرنى على الآتية.. من ذهبت بالأمل للمساعدة لترجع لنا في صندوق ساكنة.. هامدة..لكن كعهدي بها.. دائما سابقة.. كحين هبت لنجدتنا ونحن نبحث عن متبرع بكلية لأبنتي جنة.. قالت وهي تربت على كتفي وتمسح دموعي..

– لو أن لي ابنة ما أحببتها أكثر منها.. أنا متأكدة أنها وهى معها ستكون سبقتني

إلى الجنة.. ثم إنك من حافظتِ لي عليها.. أولا تذكري يا هدى..

لتحيا بها جنة ثلاث سنوات رائعة.. عايشنا فيها السعادة والبهجة بهذه التضحية التي لم أستطع أنا القيام بها لتعرضي للإشعاع لفترات طويلة .. ولترحل بعدها وحيدتي في سكون الملائكة.. وها هي المانحة اليوم تلحق ببقيتها ..

أصر أخوها أن تنفذ وصيتها فأعادها لتدفن بجانب أمها..أما هو فسيدفن زهراته الثلاث هناك في غزة. استشهدوا الأربعة في لحظة واحدة في مدرسة الفاخورة التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأنروا) .. التي لجأوا إليها تلمسا لبعض الأمن بعد القذف الوحشي على إقليم التفاح وجباليا وبيت حنون و بيت لاهيا حيث يقيم عبد الله.. لكن الصهاينة القتلة الفجرة خرقاً لكل معايير الإنسانية و اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين قذفوا هذه المدارس متعللين بأن قد يكون لجأ إليها بعض عناصر المقاومة.. لترحل هي ورياحين الجنة اللاتي تركهن أبوهم معها للذهاب بعودة لتضع مولودها بالمستشفى.. ففاضت روحها الطاهرة هي والحوريات الثلاثة وهم وحدهم .. ليجدهم عبد الله تحت الأنقاض محتضنين بعضهم البعض في جلسة مطمئنة .

مشهد الصلاة علي شهداء المدرسة الاثنين وأربعين أبكى الكل.. حتى المذيعة لم تتمالك نفسها .. صفوهم جنبا إلى جنب .. وهى بينهم .. برفق تحتضنهم ويحتضنونها .. أحبتهم وآمنت بقضيتهم حتى النهاية .. فرافقتهم حتى اللحظة الأخيرة..

أنظر لباب المعبر بحسرة الذي أوصد في وجوههم أحياء وفتح قلبه لاستقبالهم مصابين وقتلى.. في آخر إحصائية ..**1450** شهيد وأكثر من ثلاثة آلاف مصاب أكثرهم في حالة شديدة .. يا ألهي ارحمنا.. أي قلب يتحمل هذا.. أي ضمير يرضى.. العملاء والخونة ومن يبيعون ضمائرهم .. من يتمنوا ألا يفتح هذا المعبر أبدا بصورة رسمية حتى يرضوا الصهاينة ولتظل الفرقة وتظل الفتنة بين الأخوة والأشقاء إلى الأبد مستمرة.. الآن يقف عليه العديد من كل الجنسيات .. جاءوا للمساندة وتقديم العون ولكن بعضهم لا يسمح له بالمرور فيكون الصراخ..

(اتركونا نموت معهم وإلا قتلنا أنفسنا) في حين أن بعضهم يبحث عن الأنفاق لعلها تكون هي البوابة الرسمية لشعب يحتضر ولا يجد من يمد له يدا.. وليتهم تركوها .. عوضا عن المعبر شريان الحياة والحبل السري لهذه البلدة الصغيرة التي تتعلق بإصرار برحم أمها والأم لكل جيرانها ..ولو رفضوا هم ..ولو رفضت هي..

لتقف العربة.. وتنزل من جمعتنا.. لا أعرف من أين أحتشد كل هذا الجمع حولنا.. والسماء التي امتلأت فوقنا غيماً.. من أين هي.. سحب بيضاء كالملائكة اصطفت وراء بعضها.. كطابور عرض للغالية..والنسيم.. يا الله .. لفنا بغلالة لم أشتمها في حياتي.. شيء بالغ الروعة.. ما بين الزهر والمسك .. كريح الجنة..حملوها كعروس ليصلوا بها إلى العربة التي أرسلها يوسف وإن كان غاب هو.. داهمته الأزمة عند سماعة النبأ.. فأسرع قلبه الخطا وكأنه في سباق مع الزمن عله يلقاها قبلنا.. فكان عليَّ أنا وجلال أن نزفها وحدنا إلى بلدتها الطيبة..كما كانت تحب أن تسميها..لتدخلها كبطلة بعد ما خرجت منها طفلة.. وما بين السنين من رحلة..

ليأتي ترديدهم ما بين السيارتين الذين لم يعرفوا اسمها.. وجبت لها الجنة .. وجبت لها الجنة..وكأن الاسم الذي اختاره لها جدها والذي ظلت سنين تضيق به كان المناسب تماما لتكليل مشوارها الصادق مع ربها وصك القبول الحق هناك في الآخرة..

ولنردد نحن هنا .. حقا وعدلا.. وجبت لها الجنة..

تمت بحمد الله تعالى

تم تسجيلها بالشهر العقاري في 30 / 12 /2009

الكاتبة في سطور

عضو عامل فى : جماعة الأدباء والشعراء بالمكتبه الثقافيه لحى المعادى..

الأعمال الأدبية: مسرحية: جائزة أنتصار منشورة بموقع بكتب عربية . قصص قصيرة منها :الثغرة ـ عابرة المضيق ـ وداع ـ السجدة الأولى ـ كلنا في الهوى أسرى ـ و تلك الأيام ـ باكو زبد ـ جلوريا ـ إلا أول حب ـ جلوكوما ـ البوابة السحرية ـ غياب ـ لوحة للطهارة ـ هكذا هي ـ هو كما هو ـ أستحالة ـ قصة حقيقية ـ الجنة العالية ـ بيتا 444 ـ المنظار قصص للأطفال : درة المملكة ـ أش أش وهديل ونبيل والحاسوب الفرعوني أز ميل

ـ رواية: أتفاقية الساعة ـ رواية نقاب القلب

ـ ديوان بالفصحى: أحاسيس مصورة ـ ديوان بالفصحى:للأقصى دوما شهداء ـ ديوان زجلي: ليل الغربة ـ ديوان زجلي: فرعون لما حكم

- الكتابة في مجلة الفكر الحر ، الرسالة ، صلاح هلال ،مدونة الكاتب أحمد طوسون
- عضو جمعية الأدب والفكر المعاصر

الجوائز الحاصلة عليها في مجال الأدب:

1ـ جائزة الكاتب صلاح هلال في القصة القصيرة عن قصة وداع التي نشرت بمجلة مبدعون الأدبية 2010

2ـ جائزة الكاتب موسى نجيب موسى في القصة القصيرة عن قصة الثغرة .2010

3ـ حاصلة على جائزة المدينة المنورة لكتابة قصة للأطفال عن قصة درة المملكة في المسابقة الإبداعية لقصص الأطفال التي أقامها النادي الأدبي بالمملكة العربية السعودية في المدينة المنورة بمشاركة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة.2012

الفن التشكيلي:

عضو عامل فى : جماعة الفنون التشكيليه بالمكتبه الثقافيه لحى المعادي

المعارض : اقامت خمس معارض فنية:

الأول بعنوان: من وحى الربيع (المكتبه الثقافيه لحى المعادى)

الثانى بعنوان : همس الطبيعه (المكتبه الثقافيه لحى المعادى)

الثالث بعنوان : ومضات من ليالى الشتاء (المكتبه الثقافيه لحى المعادي)

الرابع بعنوان: بالأشتراك مع جمعية اصاله الفنيه

الخامس بعنوان : شمس الشرق (المكتبه الثقافيه لحى المعادى)

التصميمات : قامت بتصميم غلاف ديوان (وداعا جبل الاحزان) للشاعر أحمد عبد السلام و تصميم غلاف مسرحية (جائزة انتصار) و رواية (أتفاقية الساعة) من الاعمال الادبيه للفنانة و غلاف المجموعة القصصية للكاتب محمد نجار الفارسي طرح النوى وغلاف ديوان زمن العاشقين للدكتور علاء عبد النعيم بدار النشر المكتب العربي للمعارف ورواية العنقود والكف للدكتور علاء عبد النعيم بدار النشر المكتب العربي للمعارف .

الجوائز الحاصلة عليها في مجال الفن التشكيلي :

1ـ حاصله على شهادات تقديرعلى تميزها فى هذه المعارض2004 ..2005 .. 2006.. 2010.

2ـ حاصله على جائزة مركز مساواة لحقوق الإنسان في مسابقته الأدبية والفنية 2012 فى فرع الرسم والتصوير.